

الذكورة عائشة عبد الرحمن  
«بنت الشاطئ»

# لغتنا والحياة



دار المعارف

## لغتنا والحياة

مما يشغل بالنا من القضايا الحيوية في عصرنا : لغتنا والحياة ،  
فهى أداة نطقنا وتفكيرنا ، ولسان قوميتنا ، ووسيلة ثقافتنا ،  
والتعبير عن إنسانيتنا ، وهى التى تصلنا بتراث الأسلاف وتاريخ  
الأمة . وإنه ليعنينا النظر فى لغتنا من حيث صلتها الحتمية  
بالحياة ، والتعرض للقضايا اللغوية التى تواجهها فى وجودنا  
المعاصر .

والدكتورة بنت الشاطىء تعرض فى هذا الكتاب مجموعة  
من القضايا التى تهتم كل باحث غيور على لغته ، فهى تعرض  
لمشكلات : العامية والفصحى ، والعربية وعلوم العصر ،  
والأدب الشعبى بين العامية والفصحى ، وغير ذلك من المباحث  
اللغوية المفيدة التى يتجلى فيها عمق البحث العلمى ، وحسن  
العرض الأدبى .

لَعَنَّا وَالْحَيَاةُ

# لغتنا والحياة

الدكتورة عائشة عبد الرحمن  
• بنت الشاطئ •

أستاذ الدراسات القرآنية بكلية الشريعة ودار الحديث  
جامعة القرويين : المغرب

الطبعة الثانية



دارالمعارف



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

إلى أستاذنا الإمام

أمين الخولي

في قلوبنا ، وضمائنا ، وعقولنا

عائشة

مصر الجديدة : مارس ١٩٦٩

مايو ١٩٧١

ربيع الأول ١٣٩١

المغرب



## تمهيد

هذه المحاضرات<sup>٥</sup> ليست إلا إضافة يسيرة إلى جهود سابقة لأساتذة جيلنا ، ممن اشتغلوا بالدراسات اللغوية وتركوا لنا ثمار جهودهم السخية مناراً على الطريق .

وهؤلاء ، وآخرون معهم من المستشرقين . انطلقوا بالبحث اللغوي من حيث انتهت خطوات الذين سبقوهم من علماء السلف<sup>(١)</sup> .

والشوط الذي قطعه هؤلاء العلماء من قدامى ومحدثين ، قد عبّد الطريق لمن يأتي بعدهم ، بحيث لا يبدأ أجداً خطوة على الدرب ، دون الإفادة من بحوثهم والتزود منها لما هو بسبيل إلى درسه .

وهذا الوضع ، يلقي عليكم عبء الاطلاع على ما قدموه ، قبل أن تمضوا معي في خطوتي على الطريق . ولا أراي أشق عليكم بمثل هذا فأنتم عندي أهل له . ولا أراكم تؤثرون أن أمهد لمحاضراتي بتلخيص هذه الكتب العربية ، فما يحل لأستاذ أن يحرم طلابه متعة البذل والمعاناة ، ويجور على حقهم في أن يستقلوا بالعمل حين تيسر لهم أدواته ووسائله ، فينفرد بالاتصال بمصادر ومراجع يلخصها لهم ، حين تكون قريبة منهم يصلون إليها ، ويظالعونها في أصولها غير مبتورة بتلخيص وإيجاز .

وفي مكتبة معهدكم بحوث مطبوعة لعدد من أساتذتنا الذين حاضروا أفواجاً من زملائكم ، في البحوث اللغوية . ويتصل منها بموضوعنا من قرب ، محاضرات « الأستاذ مصطفى الشهابي » في : المصطلحات العلمية في اللغة العربية - ١٩٥٥ .

---

٥ ألقى هذه المحاضرات على طلاب معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة ، سنة ١٩٦٩ .

(١) جمع السيوطي قدراً هاماً من آثار لغويي السلف ، في كتابه ( المزمهر في علوم اللغة ) .

وقد استخلص منه « جورجى زيدان » مادة كتابيه ( الفلسفة اللغوية ، واللغة كائن حي ) مع إضافة من دراسات اللغويين الغربيين ، في القرن الماضي .

وفيه دراسة مستوعبة لموقف لغتنا من المصطلحات العلمية في القديم والحديث .  
محاضرات الأستاذ « الدكتور إبراهيم أنيس » في : مستقبل اللغة العربية  
المشتركة - ١٩٦٠ . وفيه معالجة حرة ، لقضية من أعقد قضايا اللغوية المعاصرة .  
محاضرات « الأستاذ أمين الخولي » في : مشكلات حياتنا اللغوية - ١٩٦٤ .  
وقد عالج فيه قضية التطور اللغوي في المرحلة التي سبقت استقرار  
العربية على النحو المعروف لنا من القرون الثلاثة الأولى للهجرة . وهي  
مرحلة شاقة يوغل قديمها في عصور غابرة ، وتتوارد عليها مرويات وأقوال  
متناقضة متدافعة ، تختلف في أصل اللغة هل كان توقيفياً أو بوضع ؟ ثم  
تختلف في تقديرها : هل بلغت غاية الكمال منذ عُرِفَت في القديم ، أو أن  
شأنها كان شأن الظواهر الاجتماعية الأخرى في خضوعها لقوانين الحياة  
وسنن التطور ؟ ثم تختلف بعد ذلك في حرمتها التي أضفاها عليها نزول القرآن  
الكريم بها ، هل يجب الوقوف بها حيث عرفها عصر المبعث ، أو تساير  
الزمن مستجيبة لمقتضيات الحياة ؟

وغير بعيد منكم ، في دور الكتب العربية ، بحوث أخرى قيمة ،  
تتصل بموضوعنا ، أذكر منها :

« مقدمة لدرس لغة العرب » للشيخ عبد الله العلايلي .

« إحياء النحو » للأستاذ إبراهيم مصطفى

« نحو التيسير » للدكتور أحمد عبد الستار الجوارى .

« التطور النحوي للغة العربية » للمستشرق برجشتراسر .

ولسنا على أى حال نعرض للبحث من الناحية الموضوعية اللغوية التي  
وطأها لنا هؤلاء الدارسون ، وإنما الذي يعنينا هو النظر في لغتنا من حيث  
صالحها الحتمية بالحياة ، والتعرض للقضايا اللغوية التي تواجهنا في وجودنا المعاصر .  
وما قد نعرض له في هذه المحاضرات ، مما يتصل بماضى حياتنا اللغوية ،  
ليس إلا نظرة تاريخية تتابع سير الحياة بهذه اللغة .



والحق أن الدراسة اللغوية في أى مجال ، لا تفقد صفة المعاصرة مهما  
يوغل الدارس في الماضي البعيد . فلست إذن في حاجة إلى أن ألتبس مسوِّغاً  
لوضع « لغتنا والحياة » بين ما نشتغل به من القضايا الحيوية لعصرنا ، إذ يظل  
موضوع اللغة جديداً ما بقيت هذه العربية أداة نطقنا وتفكيرنا ،  
ولسان قوميتنا ، ووسيلة الثقافة والتعبير عن إنسانيتنا ، واللغة التى تصلنا  
بتراث أسلافنا وتاريخ أمتنا ، وبها نتفاهم ونلتقى عبر حدود الزمان والمكان .

## مدخل تاريخي

عرف التاريخ شعوب هذا الوطن ،  
ترفض الاندماج في كل الغزاة الذين تعاقبوا  
عليها ، قبل الإسلام ، على مدى ألف عام ،  
من فرس وروم ويونان ووندال .  
ثم رآها تستجيب للإسلام عن طواعية ،  
فما لبثت أن تعربت واندججت بعناصر  
شخصياتها القديمة وقومياتها المتعددة ، في  
شخصية جامعة وقومية مشتركة .

اللغة العربية هي اللسان القومى لشعوب الوطن العربى من وادى  
الرافدين فى قلب الشرق الآسيوى ، إلى وادى النيل وأقطار المغرب الممتدة  
على طول الشمال الإفريقى إلى ساحل المحيط الأطلسى .

ومهما تختلف اللهجات المحلية لهذه الأقطار ، فإنها لاتعرف غير العربية  
لسان قومية ، ووسيلة تفاهم مشترك ، وأداة اتصال فكرى عبر الحدود والمسافات  
ومهما يعرف التاريخ من أواصر قبرى ونسب وجوار ، كانت بين  
أقطار هذا الوطن من قديم الزمان ، فالذى لاشك فيه هو أنها بدأت  
بالإسلام تاريخها المشترك وقوميتها الجامعة ولسانها الموحد .

وهذا يعنى أننا فى مدخلنا التاريخى إلى الموضوع ، نبدأ من حيث  
بدأت شعوب أمتنا تتعرب ، بعد أن تلقت الإسلام ديناً واعتنقته عقيدة .

غير أنا مع ذلك : نحتاج إلى لمحة سريعة من عصر ما قبل الإسلام ، تضىء  
لنا حركة التحول الحاسم الذى تم فى القرن الأول للهجرة .

• • •

قبل الإسلام ، خضعت أقطار هذا الوطن نحو ألف عام للحكم الأجنبى ،  
باستثناء جزيرة العرب التى اعتصمت ببواديها الجرد ، لا مطمع فيها لغريب .

وتعاقب على شعوبنا الرومان والفرس واليونان ، فى أدوار تاريخية واحدة  
أو متقاربة ، ففرضوا عليها لغاتهم وعقائدهم وقومياتهم وأعرافهم ، ثم مضوا  
جميعاً ، لم يتركوا هنا قومية فارسية أو رومانية أو يونانية . وكل ما خلفوه  
على المدى الطويل من أثر مادى أو معنوى ، ذاب فى عناصر الشخصية  
الأصيلة لإنسان المنطقة ، ولم تذب تلك الشخصية قط فى أجنبى أو دخيل .

ثم جاء الإسلام ، فكان التحول الذى لا يعرف التاريخ له مثيلاً :

إلى المشرق ، خرج العرب المسلمون من جزيرتهم فاتحين ، فما مضى

ربع قرن على بدء التاريخ الهجري ، حتى كانت الشام ومصر والعراق قد انتهى تاريخها الروماني واليوناني والفارسي ، وبدأ تاريخها الإسلامي العربي فكان لقاءه بقديمها الأصيل الذي صمد نحو ألف عام ( ٣٣١ ق م : ٦٤٠ م ) للغزو الأجنبي ، وأرق الغزاة بثورات يعرفها تاريخنا القديم ، ويعطى رصيدها الضخم من الضحايا والثرات والأحقاد .

وعلى ذلك الزمن الطويل . بقيت لغات الغزاة وثقافتهم وعقائدهم المفروضة بالإكراه ، لغة دواوين وثقافة دخيل وعقائد مستعمر ، يرتسم بقاؤها بما يحميها من سلطة الحكام وجبروتهم ، وتواجهها الشعوب بالتحدي الذي يتمثل في الإصرار على التعامل بلسانها القومي خارج الحدود الرسمية ، وبالرفض الذي يتمثل في تمسكها بعقائدها وتقاليدها وأعرافها ، ما استطاعت إلى ذلك سبيلا . . .

ومن عجب أنها ما كادت تستجيب للإسلام ، حتى نبذت كل ماضيها الأجنبي المفروض ، وحملت لواء دينها الجديد داعية إليه مناضلة عنه ، مشاركة في حركة المد الكبير للفتوح الإسلامية التي بلغت أقصى المغرب .

ومن المشرق ، خرجت كتائب الفاتحين تحمل لواء الإسلام إلى أقطار المغرب . وفي هذه الكتائب عرب خلّص من عدنان وقحطان ، ومستعربة من العراق والشام ومصر وبرقة ، اتجهوا غربا إلى إفريقيا والمغرب الأقصى ، وفيها شعب قوى الشكيمة ، دوخ الغزاة وغلب عتاة الأباطرة ودهاة القادة . تنابعت عليه الجيوش الغازية فما استطاعت أن تتجاوز المنطقة الساحلية ، وكأنها كانت تجد في قربها من البحر المتوسط شعوراً بتأمين هروبها من مصير مقرر محتوم . واعتصمت قبائل الأمازيج في معاقلها بالجبال والريف والبادي ، لا تدين لمستعمر ولا تخضع لسلطة أجنبية .

احتل الرومان الشمال الإفريقي بعد سقوط قرطاجنة التي دوخت الإغريق جولات مريّة ما بين عامي ( ٢٦٤ : ١٤٦ ق . م . ) بقيادة هانيبال

وماسينيسا وأسد روباى . وقد دمر الرومان قرطاجنة التى كانت منار حضارة زاهرة امتدت إلى أسبانيا وساحل الأطلسى . وبنى الرومان فى مستعمراتهم على حافة البحر المتوسط نحو ستة قرون ( ١٤٦ ق م : ٤٣٩ م ) فكان احتلالاً عسكرياً واقتصادياً لم يتغلغل فى الروح والفكر ولم ينفذ إلى العقيدة والضمير والوجدان . وشهد العصر الرومانى ثورات وطنية عاتية ، بقيادة باخوس الأول فى المغرب ، ويوغورطا النيوميدي الجزائرى حفيد ماسينيسا ، ثم يوغود وباخوس الثانى الذى حرر الجزائر فى عهد « أكتاف » ثم كاليجولا ، وسابال ، وفرموس الذى سحق جيوش الرومان سنة ٣٦٩ م وأعاد الحكم إلى قومه البربر . حتى جاء الوندال من سواحل البلطيق وبلاد الغال فورثوا الاستعمار الرومانى واحتلوا الشمال الإفريقى نحو قرن ، انهزموا بعده أمام ثوار البربر فى طرابلس بقيادة « أنطالاس » فهدت هزيمتهم للغزو البيزنطى الساحق عام ٥٣٣ م ، فى عهد « الامبراطور جستنيان » وواجه البيزنطيون بدورهم مقاومة عنيفة من بربر المغرب ، خضبت الساحة الشمالية بالدماء . ثم مضى البيزنطيون كما مضى كل الغزاة من قبلهم ، لم يتركوا سوى أطلال تزار ، وبقايا آثار تحدث عن ماضى انطوى واندثر .

ويكاد المؤرخون يجمعون على أن ما تركه الاحتلال الرومانى الذى احتل البلاد نحو ستة قرون ، لم يصمد للفتح الإسلامى . وأن اللاتينية التى بدا أنها سادت الشمال الإفريقى زماناً ، صُفِّيت فى القرن الهجرى الأول<sup>(١)</sup> .

ويقرر الواقع التاريخى ، أن العرب فى المرحلة الأولى للفتح ، لم يجابهوا خطراً ذا بال من ناحية البيزنطيين ، وإنما كانت المواجهة مع زعماء الأمازيج عشاق الحرية المعتزين بشخصيتهم وقوميتهم . وقد شهدت المرحلة الأولى مقاومة عنيفة للعرب من هؤلاء الزعماء ، فى مثل ثورة « كسيلة البربرى » وثورة « الكاهنة »<sup>(٢)</sup> فلم يكن خضوع البربر سهلاً ولا كانت بلادهم غنيمة تلقاها

( ١ ) إبراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٧٥ ط السلمى بالدار البيضاء .

( ٢ ) « » : « » ص ٨٨ وما بعدها .

العرب من أهلها في استسلام<sup>(١)</sup>. ومع ذلك ، لم يلبث التاريخ أن شهد قبائل الأمازيغ التي عصيت على الغزاة من كل جنس وملة ، تسير بعد أقل من نصف قرن من الفتح الإسلامي ، تحت لواء دينها الجديد . فتنطلق عبر مضيق جبل طارق إلى أسبانيا فاتحة منتصرة . والجيش الذي عبر المضيق كان بقيادة « طارق بن زياد » المغربي ، في أكثر من عشرة آلاف من قومه البربر ، وألفين من العرب . تمكن بهم « طارق » من فتح قرطبة ومالقة وغرناطة ومرسية ، ثم كانت الموقعة الحاسمة في وادي الرطراط بين جيش طارق وجيش لذريق سنة ٩٢ هجرية ، أي بعد نحو نصف قرن من دخول « عقبة بن نافع » إفريقية ، واختطاطه مدينة القيروان أول مدينة إسلامية هناك !

نصف قرن فحسب ، كان كافياً لأن يحول مجرى التاريخ ، ويجعل من الأمازيغ الأحرار الأباة البواسل ، جنوداً مجاهدين في سبيل الإسلام .

وما يزال التاريخ في حيرة من أمر هذا التحول الفذ الحاسم . وأكثر المؤرخين العرب ، يردونه إلى وحدة الأصل العربي لكل شعوب المنطقة من المشرق والمغرب<sup>(٢)</sup>؛ دون أن يفسروا لماذا لم تلتق هذه الشعوب الموحدة الأصل ، في جبهة واحدة ضد الغزاة الذين احتلوا البلاد قروناً ، قبل الإسلام ؟

أما الغربيون ، فلم ينكروا قط ، ما كان بين الشعوب القديمة للمنطقة من صلات جوار وأواصر قرى ، لكن أكثرهم يفصلون الجنس السامي عن الجنس الحامي والآرى لشعوب المنطقة .

وينقل الدكتور مراد كامل : « أن العلماء اتفقوا على أن موطن الشعب السامي في العصور التاريخية كان شبه الجزيرة العربية . ومنها خرجت الهجرات السامية : الأولى نحو العراق من ابتداء الألف الرابع ق.م وهي

( ١ ) اللواء الركن محمود شيت خطاب : قادة فتح المغرب .

( ٢ ) محمد عزة دروزة : تاريخ الجنس العربي - ط بيروت .



الأكدية ، والثانية حوالى سنة ألفين قبل الميلاد وهى الكنعانية . والثالثة حوالى سنة ألف وخمسة قبل الميلاد وهى الآرامية . ثم الهجرة الرابعة وهى العربية ، وتمثل أقوى الهجرات السامية ، ونحن نعرف تفاصيلها التاريخية والأسباب التى دعت إليها « (١) » .

وغريب منه هذا القول باتفاق العلماء على هذا ، بعد أن صدر الفقرة التى نقلناها عنه آنفاً بما ينقض هذا الاتفاق وينفيه . قال ما نصه :

« ذهب العلماء مذاهب شتى فى المهد الأصيلى للساميين فى عصور ما قبل التاريخ . وقد حاول أصحاب كل نظرية أن يأتوا بأدلة تثبت رأيهم : منها جغرافية ومنها لغوية ومنها ما يختص بالجنس ومنها ما فسروا به التوراة . فمن قائل إن مهد الساميين الأصيلى بلاد أرمينية ، ومن قائل إنه شمال إفريقية ، ومن قائل إنه شبه الجزيرة العربية ، ومن قائل إنه ما بين النهرين ، ومن قائل إنه بلاد العموريين فى سوريا » (٢) .

وأحسب أنه فيما ذكر بعد ذلك ، من اتفاق العلماء على أن الجزيرة العربية كانت الموطن القديم للساميين ، متأثر بما نشره هنا ، المؤرخ اليهودى « أبو ذؤيب : إسرائيل ولفنسون » الذى كان مدرساً للغات السامية فى الجامعة المصرية ( ١٩٢٧ : ١٩٢٩ ) ، ولقد اختلطت اليهودية بالعربية فى أكثر محاضراته ، لطول ما قال بوحدة أصلهما السامى . فما تدرى حين تقرأ كتابه « تاريخ اللغات السامية » (٣) أين الحد الفاصل فى تصوره بين السامية واليهودية ، أو بين العربية والعبرية ! وقد قرر « أن الجزيرة العربية كانت وطننا مشتركاً لجميع الأمم العبرية والكنعانية... » .

وأن « الهجرة الإسرائيلية التى فتحت بلاد فلسطين بعد أن صدرت

( ١ ) من تعليقه بهامش صفحة ٢٩ ، من كتاب جرجى زيدان ( اللغة العربية كائن حي ) .

( ٢ ) المرجع السابق : هامش ص ٢٨ . ط دار الهلال .

( ٣ ) نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مطبوعاً فى مطبعة الاعتماد بالقاهرة ، سنة ١٩٢٩ .

من الجزيرة العربية ، كانت سبباً لتقلبات اجتماعية ودينية كثيرة ، كبيرة الأثر في التاريخ العام ....

وأن انتشار الكنعانيين في بابل ، بعد أن انتشروا في سورية وفلسطين ، كان له تأثير عظيم في حضارة بابل « فقد أدخلوا على البلاد بعض عقائدهم كما كان للغتهم نفوذ كبير في لغة تلك البلاد . . ولشريعة حمورابي الكنعاني قيمة تاريخية عظيمة فوق قيمتها الحقيقية ، لأنها تمثل لنا عقلية بابل وشومر من ناحية ، وتدل على الروح التي كانت للكنعانيين من ناحية أخرى ، وهي أقدم شريعة في تاريخ التمددين البشري » <sup>(١)</sup>.

وترتبط كلمة عبري بكلمة عربي « ارتباطاً متيناً لأنهما مشتقتان من أصل واحد وتدلان على معنى واحد » <sup>(٢)</sup>.

« ولأن بني إسرائيل جاءوا بلغتهم العبرية من الجزيرة العربية ، كانت مميزات الحياة الصحراوية بارزة جداً في هذه اللغة ، وقد توارث الإسرائيليون هذه المميزات إلى أن استوطنوا فلسطين ، فلم يكونوا يستنكرون على الأدب أن يستعمل التشبيهات الصحراوية والخيال البدوي » <sup>(٣)</sup>.

والحق أن « إسرائيل ولقنسون » لم يبتدع هذه الأقوال ، فقد سبقه عدد من متعصبي المستشرقين ، إلى مثل ما قاله أو قريب منه . فالمستشرق مرجوليوث : يذهب إلى « أن الوطن الأصلي لبني إسرائيل كان ببلاد اليمن » ويلتقط بعض ألفاظ مشتركة في العبرية والسبئية ، وبعض عادات وأخلاق دينية ، قال إنها متشابهة عند أهل سبأ وبني إسرائيل <sup>(٤)</sup>.

(١) يصرح ولقنسون بأنه، في رده إلى الكنعانيين أعرق حضارة للشرق الآسيوي، يفترض أن اسم حموربي مشتق من لفظ عموربي، وهو تركيب مزجي معناه كمنى اللفظ العبري «الله ربي» وقد وجد اسم الملك عمرى الإسرائيلي في الخطوط المسماة يكتب: حمري ! ص ٢٦ من كتاب تاريخ اللغات السامية .

(٢ : ٣) المرجع نفسه ، ص ٧٨ ، ٧٩ .

(٤) . (٤) . Margoloth : Dir Israeliten zu Mekka, p. 10.

ولمح « دوزى » مثل هذه الملامح المتشابهة بين اليهود وقريش ! ،  
فادعى « أن مكة وعمراتها الوثني وتقدم قبائلها في الجاهلية على غيرهم من  
قبائل العرب ، إنما جاء إليها من بطون شمعونية إسرائيلية <sup>(١)</sup> » .  
وأبو ذؤيب يناقش مثل هذه الأقوال ، في لهجة المؤرخ المحقق ، ثم  
لا يلبث أن يعضى إلى أبعد منها وأغرب ، على ما نقلنا آنفاً من كتابه  
« تاريخ اللغات السامية » .

\* \* \*

وحين نلتمس المسارب الأولى لفكرة السامية ، لغة وجنساً ، نجدها  
خرجت أول ما خرجت من علماء يهود الأندلس في العصور الوسطى ،  
كانوا أول من ظهر بهذه العلاقة بين الأمم السامية . ثم جاء « شلوتسر »  
فكان أول مؤرخ غربي استعمل اصطلاح السامية في بحوثه وتحقيقاته التي  
نشرها في النصف الثاني من القرن الثامن عشر . وقد استخلص هذه التسمية  
مما جاء في التوراة ( الإصحاح العاشر من سفر التكوين ) عن أولاد  
بنى نوح : سام وحام ويافت ، ومن ولد لكل منهم بعد الطوفان .

ومن ذلك الحين راجت فكرة تقسيم أصول الجنس البشرى إلى سامية  
وحامية وآرية . في دراسات المستشرقين من اللغويين وعلماء الأجناس .

وهي دراسات جادة أعطت الفكرة صبغة محترمة وأقامت عليها عدة  
بحوث علمية ، لها تقديرها وقيمتها . ونقلها الناقلون منا من حيث انتهت إليه  
في البيئة العلمية ، دون نظر إلى وهن الأساس الذي قامت عليه ، حتى صارت  
من البديهيات التي لا تختمل مناقشة أو جدلاً . وقد حملوها على محمل  
الحقائق التاريخية والنظريات العلمية ، فكان أن ألقت على جنسنا العربى كل  
أوزار اليهود وجرائمهم التي ضجعت البشرية منها على امتداد الزمان والمكان .

هل يبدو هذا الوقوف عند السامية . بعيداً عن موضوعنا ؟ الواقع  
أننى أردت أن ألفتكم إلى ما ينبغي من حذر في تلقى ما راج من نظريات

ودعاوى تلقاها الدارسون منا مستسلمين ، ثم لم يلبثوا أن تعصبوا لها وتصدوا لترويجها وتأييدها وترسيخها .

وفكرة السامية لو أنها وقفت عند الدراسة العلمية لشعوب المنطقة ، في التاريخ المعروف جنساً ولغة ، لما كان منها بأس علينا ، أما أن توغل الفكرة في غيابات ما قبل التاريخ وتوجهه لخدمة غرض بعينه ، فذلك ما يرفضه العلم .

وإذا كان يجذبنا إلى السامية أنها ترد شعوبنا إلى أصل واحد ، فينبغي ألا يفوتنا أنها كذلك قد جنت على تاريخنا بمثل هذه الدعاوى المرسلة ، وألقت على أصولنا ظلاً يهودياً تنكره دماؤنا التي لو سيطت بدم يهودى ، تزايلن حتى ما يمس دما !

ولست أدري في الواقع ، فيم تعلقنا بهذه الفروض التي أقحمت على مناخنا الفكرى الحديث ، عن رغبة طيبة في إثبات وحدة شعوبنا من عصر ما قبل التاريخ : فالقول بوحدة أصول ثلاثة للبشر ، عند سام وحام ويافت ، لا يستحق كل هذا الجهد المبذول . إذ ليس بين أبناء نوح الثلاثة وبين أبيهم ، إلا جيل واحد تلتقى عنده كل هذه السلالات التي وزعوا البشرية عليها ، فما هو إلا أن نرجع بسام وحام ويافت إلى أبيهم نوح ، حتى تجتمع كل هذه الأجناس في أب واحد ! .

على كل حال ، لا أقصد من هذه الإشارة إلى السامية ، أن تتجهوا إلى رفض الدراسات العلمية التي أقيمت عليها ، لأنكم إن فعلتم ، وقعتم فيما أحذركم منه ، من التورط في التسليم بفكرة أو رأى دون نظر أو تأمل ؛ وكرامتكم العقلية ، تفرض عليكم ألا تسلموا عقولكم إلى ما يبدو من البديهيات ، وألا تتابعوا تياراً فكرياً دون أن يكون لكم رأى فيه ، بعد تتبع مصدره ومجراه ، وطول التأمل في البراهين والأدلة التي سيقف لتأييده .

وسترون فيما نعالج من أزمتنا اللغوية ، أنها ما تعقدت إلا بما رسخ في فكرنا الحديث من دعاوى حُملت على محمل الحقائق العلمية ، وأقحمت على

على وجودنا اللغوى والقومى فسايرناها ، فما لبثت أن رسخت وأخذت صورة البديهيات أوالحقائق العلمية .

حسبنا أن نكتفى بالمعروف من تاريخنا ، فننتفع بالدراسات التى نظرت فى لغات المنطقة العربية ، وتتبع ما بينها من صلات ، وأن نتدبر الواقع التاريخى الذى وعى أن أقطار هذا الوطن العربى قد خضعت على مسار الزمن لأحداث تاريخية متماثلة ، وارتبطت بوحدة وجود ومصير ، ورفضت جميعاً أن تندمج فى الدول التى طرأت عليها واحتلتها نحو ألف عام قبل الإسلام ، ثم مضت وكأنها لم تكن هناك .

والتاريخ قد يفسر هذه الظاهرة ، بأن شعوب المنطقة كان بينها تقارب فى المزاج والعقلية : أثراً للروابط التى قامت على الجوارب والقربى والتبادل التجارى والفكرى .

ومع كل هذه الروابط والصلات ، ومع تماثل الأحداث التاريخية لشعوب المنطقة ، كانت هناك قوميات خاصة ، مصرية وفينيقية وبربرية وعربية وفارسية ، بينها حدود قائمة معروفة .

ثم لما جاء الإسلام وترك لها حرية العقيدة ، لم تلبث أن انضوت تحت لوائه ، وبدأت تتعرب من الجليل الأول بعد الفتح .

وامتزجت الدماء بالنسب والمصاهرة والقرى ، وانصهرت الأمزجة والعقليات فى شخصية جامعة . واندمجت العناصر والأجناس فى قومية مشتركة .

\* \* \*

والتاريخ لا يجد تفسيراً لهذا التحول الحاسم ، سوى أن هذه الشعوب آمنت عن عقيدة وأسلمت عن طوعية ، بعد أن أرهقتها محاولات الإكراه على التخلّى عن موروث عقائدها وقومياتها وتقاليدها ، وشهدت فترة ما قبل الإسلام اضطهاداً مريراً من السلطات الحاكمة ، لفرض عقائدها ولغاتها وتقاليدها . كان رد الفعل الطبيعى له ، أن واجهته الشعوب بالإصرار

على الرفض ، مدفوعة بالتحدى عن حدس الدفاع عن الذات . فلم يكن التحول انتقالاً من حكم الرومان والفرس واليونان إلى حكم العرب ، وإنما كان استجابة باهرة لعقيدة اقتنعوا بها . وقد وجدت الضمائر التي ظلت بمعزل عن تيارات الغزو ، ما تستريح إليه في دين الفطرة المصدق لما بين يديه من الرسالات الدينية . وكان المبدأ الإسلامى فى إقرار حرية العقيدة وحظر الإكراه فى الدين : هو الذى أطلقهم من موقف التحدى والرفض ، إذ ترك لهم فرصة الاختيار وحق التفكير دون قسر أو إرغام ، وهياً لهم الفتح لدين يحترم حرية العبادة ويكفل للإنسان حقوق إنسانيته .

وثابت تاريخياً أن الصراع المذهبى الدينى بين روما ومصر قد وصل قبل الإسلام إلى حافة الحرب ، ثم إلى عزلة صارمة من رجال الدين المصريين الذين لاذوا بأديرتهم فى الصعيد وصحراء سيناء ، رفضاً لسياسة روما فى فرض مذهبها الدينى على الشعب المصرى بالقسر والإكراه والاضطهاد . . .

وثابت تاريخياً كذلك ، أن الرومان الذين حملوا المسيحية إلى الشمال الإفريقى ، عجزوا عن القضاء على الوثنية ، فظلت الآلهة المعبودة موضع تقديس ، وبقي لكهنة « بعل دوخ » بوجه خاص ، نفوذ مسيطر دفع الحكام الرومان إلى مطاردتهم وصلبهم فى القرن الثانى للميلاد . وإلى القرنين الرابع والخامس ، كانت المسيحية ما تزال تلقى مقاومة عنيفة من الوثنية ، بل إن الإسلام حين دخل المغرب . وجد الوثنية فى جبال الريف وعمارة . ولا شك فى أن الصراع المذهبى للطوائف المسيحية قد قوى نفوذ الكهنة ، الذين لبثوا يمارسون سلطانهم العتيد على القبائل إلى المرحلة الأولى من الفتح الإسلامى ، فكانوا هم الذين تصدوا لمقاومة الكتائب الوافدة من الشرق ، إلى أن استقر الإسلام فى المنطقة ، وتتابعت القرون فلم تزده إلا رسوخاً وثباتاً . . .

\* \* \*

والسودان وإن تأخر دخوله رسمياً فى الدولة الإسلامية إلى القرن العاشر



الهجرى ، لم يلبث طويلا حتى غلب عليه المناخ الدينى ، وتوهجت نار القرآن فى البوادرى والنجوم ، وازدهر التصوف تأثراً بطبيعة البيئة ومزاج الإقليم ، فكان لمشايخ الطرق سلطان لا يدانيه سلطان الملوك والحكام . . .

ومنذ دخل الإسلام هذا القطر الشقيق ، أخذ لواء القيادة للأحداث ؛ فكان العامل الدينى هو الموجه الأكبر لتاريخه شعباً ودولة .

وفى كل هذا ، لم يكن اتصال الشخصية الإسلامية العربية بالماضى الأجنبى القريب المرفوض من هذه الشعوب ، وإنما كان الاتصال بماضيها الأصيل العريق عبر فجوة من الزمن مداها ألف عام ، رفضت فيه قوميات الغزاة وثقافتهم وعقائدهم ، إلا القدر القليل الذى فرضه طول المدى وأساغته شعوب المنطقة ، فتمثلته بروحها ومزاجها . وأقرب مثل لذلك مدرسة الإسكندرية التى هاجر إليها الفكر اليونانى بعد انطفائه فى أثينا ، فلم تقبله كما هو ، ولم تأخذه نقلاً ، وإنما أعطته روح الشرق ومزاجه وصفاءه فصيرته هيلينسيا بعد أن كان هيلينياً<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

ومن قصور الإدراك ، أن نتصور أن الشخصية الجديدة للأمة الإسلامية العربية ، هى نفس الشخصية العربية التى خرجت من الجزيرة العربية مع كتائب الفتح ، بكل ملامحها وسماتها وألوانها وظلالها وميراثها . فليس من طبيعة الأشياء أن تتعرض شخصية العربى لكل التيارات الجديدة الطارئة دون أن تنفعل بها .

كما ليس من المنطق أيضاً ، أن تتلقى الشعوب المتعربة جديدة الوافد وقد انقطع كل ما يربطها بقديمها العريق الذى ناضلت عنه ضد كل الغزاة الذين تسلطوا عليها قروناً قبل الإسلام ، فرفضت أن تندمج فيهم أو تسالمهم .

(١) نجيب بلدى : مدرسة الإسكندرية .

بتلر : فتح العرب لمصر - ص ٥٥ وما بعدها ، الترجمة العربية لفريد أبو حديد ط ١٩٤٦ .

وإنما الصحيح هو أن شعوب المنطقة حملت معها تراثها الفكري والحضارى ، واندمجت به فى جديدها الإسلامى العربى ؛ فنشأ عن الامتزاج والانصهار شخصية إسلامية الجوهر عربية اللسان ، وصبت كل الروافد فى المجرى المشترك لأمة موحدة ، مع ظواهر مميزة لكل قطر منها ، جاءت من طبيعة البيئة والسلالة ، والميراث المادى والمعنوى . .

• • • • •

من هنا لا نرى وجهاً لما كثر فيه الجدل على قوميتنا بين أصولها القديمة ، فرعونية أو بربرية أو فينيقية أو آشورية وبابلية أو زنجية ، سامية أو حامية أو آرية ، وبين قوميتها الجامعة الموحدة ، منذ أربعة عشر قرناً . وهو جدل تورط فيه عدد من المؤرخين الغربيين ، فتعثر منطقهم . مثل « جوستاف لوبون » الذى قال فى كتابه حضارة العرب :

« وسوف ترى أن المصريين الذين تمردوا على حضارة الفرس والإغريق والرومان ولغاتهم ، انتحلوا لغة العرب ودينهم وتمدينهم ( ؟ ! ) وأن مصر غدت بذلك أشد البلاد التى دخلت فى دين محمد عروبة . وأنه مع كثرة توالد المصريين والعرب الفاتحين وظهور مثال جديد يختلف عن الأصل بعد جيلين أو ثلاثة ، أدى تفوق نسبة المصريين العددية ، من حيث النتيجة ، إلى تقلص أثر الدم العربى فى المصريين ، وأن الفلاح المصرى العتيق : العربى بدينه ولغته ، رجع ابناً لقدماء المصريين وصورة حية لهم ! » (١) .

وذلك عجيب من خلل المنطق وفحش الخطأ : يرفضه قانون الحياة وتأباه سنن الاجتماع . بل يرفضه المنطق الفطرى الذى لا يمكن أن يتصور أن بكائناً بشرياً يحيا قروناً ، دون أن يتأثر بدماء اختلطت بدمه ، ولغة أعطته ذوقها ومزاجها وحسها : ودين اعتنقه وآمن به .

( ١ ) ص ٨٠ وما بعدها ، من الترجمة العربية لمعادل زعيتر - ط ٢ حلى .

ولست أدري فيم الجدل في قوميتنا وقد مضى على عروبتنا الصريحة المشتركة أربعة عشر قرناً ، ولا أحد يسأل الأمريكيين اليوم عن أنسابهم القريبة الموزعة بين شتى الجنسيات والقوميات وأخلاط السلالات . !؟

وقد انساق عدد من الكتاب العرب وراء هذا المنطق الشاذ ، فضى بعضهم يبيح ماضينا كله ، ومضى آخرون منهم يبيحون واقعنا الحى ليردونا إلى أصول متناهية في القدم .

ولهم جميعاً نقول : الجيل الأول بعد الفتح مباشرة ، امتزجت فيه الدماء العربية بالدماء الموروثة ، مهما يختلف عليها علماء الأجناس والسلالات . ثم تابعت الأجيال والتعرب يزداد عمقاً ورسوخاً وتأصلاً ، وعناصر الشخصية القومية لشعوب الوطن العربى الإسلامى تنصهر فى بوتقة البيئة ، المادية والمعنوية ، بحيث يتعذر على أدق جهاز علمى أن يميز ما فى عروقنا من الدم العربى الصريح أو الدم القديم الموروث .

وأياً ما تختلف أصولنا القديمة ، فنحن عرب مستعربة ، رسخت فىنا العربية على تتابع أجيال طوال ، منذ أظللنا لواء الإسلام وجمعنا أمة واحدة .

# مدخل لغوى

فى العصر الجاهل ، كانت مخالطة لغوية  
بين قبائل العرب وشعوب المنطقة .

لكن حركة الفتوح الكبرى ، كانت  
المنطلق إلى الوحدة اللغوية ، فى اللسان المشترك  
لشعوب هذا الوطن الواحد ، منذ هجرت  
ألسنها الأولى إلى لغة القرآن الكريم ،  
كتاب دينها .

وفي اللغة بوجه خاص ، نعرف أنه قد كان هناك اتصال لغوي قديم بين العربية ولغات الشعوب التي تعربت بعد الإسلام .

ولسنا نوغل بهذا القديم إلى الأصول البعيدة لما يُعرف باللغات السامية والحامية والآرية ، وإنما حسبنا أن نشير إلى المعروف من صلات العربية باللغات التي خالطتها في الجاهلية<sup>(١)</sup> .

• • •

كانت الإماراتان العربيتان في الحيرة والشام ، على اتصال سياسي وحضاري وثقافي بالفرس والروم . ومعروف من تاريخ الأدب الجاهلي — وهو من أهم المصادر اللغوية للفصحى — أن أمراء المناذرة والغساسنة كان لهم شعراء عرب مختصون بهم ، وإلى هؤلاء الأمراء كانت رحلة الشعراء من الجزيرة العربية ، فمنهم من كانوا يؤثرون المقام في بلاط الأمراء كالنابغة الذبياني ، ومنهم من كان يكتفى بالوفود على الحيرة وغسان ابتغاء الصلة كالأعشى ، أو لعرض

---

( ١ ) يركز المؤرخ اليهودي «إسرائيل ولغنون» في محاضراته بالجامعة المصرية عن ( تاريخ اللغات السامية ) كلاً اهتمامه في تتبع أثر العبرية في لغات العالم القديم الذي تعربت شعوبه وتعرب لسانه بعد الإسلام . والفكرة تبدو مبطرة عليه تماماً ، على رغم محاولاته الملتوية في مناقشة بعض آراء اللغويين من المستشرقين ، لإضفاء روح العلم والنزاهة ، على ما يثبت من فكرته .

وقد نقلنا في المدخل التاريخي ، كيف انطلق ولغنون من فكرة السامية-التي بذرها يهود العصور الوسطى في الحقل اللغوي واللساني لشعوب المنطقة- إلى حد ادعاء أن جزيرة العرب كانت الموطن الأصلي لليهود ، وأنهم هاجروا منها بلفتهم العبرية وأحدثت هجرتهم أثراً بعيداً في التاريخ العام .

وهو يضيف إلى هذا كله ، أن الكنعانيين كان لهم التأثير الهام على العالم المتدين ، علمياً وصناعياً ودينيّاً (ص ٥٣) وأن الكنعانية والعبرية ليستا في الحقيقة سوى لغة واحدة (ص ٥٥) وقد انقسمت مجموعهم إلى كتلتين كونت الأولى منهما الممالك الكنعانية في سورية ، وكونت ثانيتهما دول الكنعانيين ومستعمراتهم في جزر البحر الأبيض وفي شمال إفريقيا (ص ٥٥) .

ومنطقه في كل هذا ، يقوم على دعاوى وفروض لا تحتل مناقشة علمية ولا تثبت لنظرة تاريخية

فاحصة .

قضايا قبائلهم كالحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم ، ومنهم من كانت الظروف تسعى به إلى الأمراء ، كطرفه بن العبد .

وهؤلاء الذين ذكرناهم ، على سبيل المثال ، معدودون من فحول الشعراء الجاهليين . وكلهم من أصحاب المعلقات ، وقد كانت دواوينهم من المصادر الأولى لجمع معجم ألفاظ العربية ووضع قواعدها في النحو والصرف والعروض والبلاغة .

وعن هذا الطريق ، اتصلت عربية الجزيرة بلغات الشام والعراق ، وقد صاروا بعد الإسلام ، من أكبر أقطار الوطن العربي .

وعرب الحجاز ، وفيهم لغة قريش ، كانوا على اتصال موسمي بالشعوب المجاورة جنوباً وشمالاً في رحلتى الشتاء والصيف ، وبمصر والسودان عن طريق سينا والبحر الأحمر . كما كان لعرب الجنوب صلاتهم التجارية ومخالطتهم اللغوية للشعوب الواقعة على الساحل الشرقى والشمالى لإفريقية . والساحل الجنوبي لآسيا ، عبر البحر الأحمر وخليج عدن وبحر العرب المنفضى إلى بحر الهند .

ثم كان هناك بين قبائل العرب نفسها ، اتصال حيوى مستمر ، لعل أقواه ما كان في الحجاز حيث العاصمة الدينية والاقتصادية والأدبية الكبرى لبلاد العرب ، وملتقى قبائلهم في مواسم الحج التى كانت في الوقت نفسه مواسم تجارية وأدبية .

ولا أحاول هنا أن أتبع أسماء الذين ذكرت مصادرنا التاريخية للعصر الجاهلى أنهم كانوا يعرفون إلى جانب لغتهم العربية لغة أو أكثر من لغات الشعوب التى كان لها بالجزيرة العربية اتصال ، إذ مهما يكن عدد هؤلاء فإن كتب التاريخ لا تذكر عادة إلا ذوى الشهرة منهم كالشعراء والمترجمين الرسميين كعدى بن زيد ولقيط بن معمر ، ومن اشتهروا بالقراءة في الكتب الدينية كورقة بن نوفل ، أو اكتبوا قصص الشعوب وأساطيرها مثل سويد بن الصامت<sup>(١)</sup> .

(١) أخبارهم مبسطة في (السيرة النبوية لابن هشام وتاريخ الطبرى ، عصر المبعث) وقرأ الدكتور ناصر الدين الأسد في (مصادر الشعر الجاهلى) ص ١٤ وما بعدها .



وكذلك الأمر في عصر المبعث ، قبل جركة الفتوح : تقتصر كتب التاريخ عادة على ذكر ذوى المكانة ، مثل كُتّاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، الذين كانوا يكتبون له إلى الملوك ويترجمون رسائلهم من اللغات الفارسية أو القبطية أو الحبشية ، وتجد أسماءهم في ( التنبيه والإشراف ) للمسعودي .

فالذى لاشك فيه ، أن المسألة في هذا لم تقف عند حالات فردية لأشخاص معروفين بأسمائهم ، بل تجاوزتها إلى النطاق العام ، فكان هناك عرب غير هؤلاء يعرفون لغة أو أخرى من لغات الشعوب التي كانوا يتعاملون معها ، كما كان هناك من أهل هذه الشعوب من يعرفون العربية .

ثم كانت هناك مخالطة لغوية بين هذه الألسن ، تأخذ طريقها من حيث يريد أهلها أو لا يريدون ، وترون أثرها فيما دخل معجم العربية القديم ، من ألفاظ دخيلة أو معربة ، حاول بعض علماء العربية استقصاءها وردها إلى أصولها من لغات غير العرب ، كأبي منصور الجواليقي في ( المعرب ) والشهاب الخفاجي في ( شفاء الغليل فيما في ألفاظ العربية من الدخيل ) وجلال الدين السيوطي في الباب الذي عقده في ( المزهر ) لما أخذت العربية من اللغات الفارسية والسريانية والعبرية والرومية والحبشية والقبطية .

ونقول هنا أيضاً ، إن الأمر لا يقتصر على ألفاظ بعينها يمكن تحديدها وحصرها ، وإنما كانت مناطق اتصال العرب بالأمم المجاورة ، مجالا لتأثير لغوى عام ، يكتفى دليلا عليه ما نقرأ من حرص علماء اللغة ، فيما جمعوا من شواهد الفصحى ، على أن يتحاشوا قدر الإمكان ، الاستشهاد بالمرورى من شعر قبائل معينة ، لمخالطتها أمماً أخرى . وقد ذكرها « ابن جني » في ( الخصائص ) و« السيوطي » في ( المزهر )<sup>(١)</sup> وعدوا منها بوجه خاص :

— لحم وجذام : لمجاورتهم أهل مصر والقبط .

— الحيرة : لمخالطتهم أهل فارس .

( ١ ) راجع كتاب الأستاذ سميد الأفغانى في ( الاستشهاد في اللغة ) ط دمشق .

قضاة وغسان وإياد : لمجاورتهم أهل الشام .

تغلب : كانوا بالجزيرة مجاورين للروم .

بكر : لمجاورتهم للقبط والفرس .

عبد القيس وأزد عمان : كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس .

اليمن : لمخالطتهم للهند والحبشة .

كما حاول علماء اللغة في عصر التدوين أن يتجنبوا « بنى حنيفة ، وسكان اليمامة ، وأهل الطائف وحاضرة الحجاز ، لأن الذين نقلوا اللغة صادفهم حين ابتدعوا ينقلون لغة العرب ؛ قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم »<sup>(١)</sup> .

والمحاولة وحدها تكشف عن مدى المخالطة اللغوية وما تركت من أثر في القبائل العربية الصميمة .

ومهما يكن من جدوى هذه المحاولة التي شهدتها عصر التدوين ، فالذي لا شك فيه هو أنها ما كانت لتستطيع أن تُحكمِ الحصارَ على الحياة اللغوية بعد الذي كان من قديم مجاورة ومخالطة .. والحياة اللغوية لم تكن محكومة بهؤلاء اللغويين فحسب ، وإنما كانت تحكمها قبل كل شيء ، عوامل اجتماعية واقتصادية ودينية ، لم يفلت منها فصحاء العرب في المناطق المعتمدة من اللغويين ، إن لم يكن بطريق مباشرة ، فعن طريق الاتصال بالقبائل العربية التي خالطت الأمم المجاورة .

وحركة التدوين نفسها ، لم تصير على قيود علماء اللغة الأقدمين لحصر مناطق الرواية والاستشهاد في قبائل معينة . فالطبقة الأولى من الرواة الذين جمعوا تراث العربية ، لم ينبذوا تراث الشعراء الذين عاشوا في غير المناطق المعتمدة من علماء اللغة .

خذوا مثلاً : « عدى بن زيد اللخمي » الذي أتقن الفارسية وترجم

(١) السيوطي : المزدحم ٢١٢ وما بعدها ط الحلي .

لكسرى وللعنمان . كان من الشعراء الذين ضرب عليهم علماء اللغة أشد الحصار . قال فيه الأصمعي ( فحولة الشعراء ) :

« عدى ، وأبو دؤاد الأيادى ، لا تروى العرب أشعارهما لأن ألفاظهما ليست بنجدية » .

ونقل المَرْزُبَانِي فِي ( المَوْشَح ) رواية عن المفضل الضبي أنه قال : « كانت الوفود تفد على الملوك بالحيرة فكان عدى بن زيد يسمع لغاتهم فيدخلها في شعره » . وقال ابن سلام في ( طبقات الشعراء ) : « وعدى بن زيد كان يسكن الحيرة ومركز الريف فلان لسانه وسهل منطقه » .

وقال ابن قتيبة في ( الشعر والشعراء ) : « وعلمائنا لا يرون شعره حجة ، والعرب لا تروى شعره لأن ألفاظه ليست بنجدية ، وكان نصرانياً من عباد الحيرة ، قد قرأ الكتب » .

ومع كل هذا ، تجد ديوان عدى قد جُمع ودُوِّنَ ، وكانت هناك نسخ منه في عصر أبي العلاء . إحداها في دار العلم ببغداد ، التمسها « أبو العلاء » في رحلته المشهورة إلى مدينة السلام ، قال في رسالة الغفران :

« وكنت بمدينة السلام فشاهدت بعض الوراقين يسأل عن قافية عدى ابن زيد التي أولها :

بكر العاذلات في غلس الصبح يعاتبه أما تستفيق  
ودعا بالصباح فجراً فجاءت قينة في يمينها إبريق

وزعم الوراق أن ابن حاجب النعمان سأل عن هذه القصيدة وطُلبت في نسخ من ديوان عدى فلم توجد . ثم سمعت بعد ذلك رجلاً من أهل أستراباذ يقرأ هذه القافية في ديوان العبادى ، ولم تكن في النسخة التي في دار العلم <sup>(١)</sup> .

( ١ ) رسالة الغفران - تحقيق عائشة عبد الرحمن ، ص ١٤٧ ، ط ٥ ذخائر .

و « أبو العلاء » قد احتفى بعدى بن زيد فى جنة الغفران ، وأنشد ثلاث قصائد من روائع شعره ، لا نجد لها كاملة فى سائر المراجع الأخرى . و « ابن سلام » نفسه قد ذكر فى طبقات الشعراء لعدى بن زيد أربع قصائد جواد قال : إنهن « لا يفوقهن شعر » .

وجمع أبو الفرج الأصفهاني قدراً ذا بال من شعر عدى بن زيد ، فى ترجمته له بكتاب الأغاني ، وقلموا يخلو كتاب من أمهات مراجعنا الأدبية ، من مختارات من قصائد عدى وأبياته . بعد أن قيل فيه : « والعرب لا تروى شعره ! » .

بل إن معاجم اللغة ، تأتى بالشواهد من شعره دون تجريح لها أو تهوين منها ، وكأن أصحاب هذه المعاجم لم يلتفتوا إلى ما قال « ابن قتيبة » فيه : « وعلمائنا لا يرون شعره حجة ! »

وكذلك رُويت قصائد أبى دؤاد ولقيط بن معمر الإياديين . وتعرفون مكانة « طرفة والأعشى والحارث بن حلزة » وقد كانوا من قبيلة بكر المبعدة عن الاستشهاد لمجاورتها للفرس . كما تعرفون مكانة « مهلهل وعمرو بن كلثوم » وقد كانا من تغلب ، ومنزلها بالجزيرة من مناطق المخالطة .

وأياً ما كان جهد اللغويين القدامى فى تحاشي الأخذ من تراث هذه القبيلة أو تلك ، ورفض اعتماد شعرها فى الشواهد اللغوية ، فالذى يعرفه التاريخ هو أن المخالطة اللغوية كانت واقعاً لا مفر منه ، وأن هذه القبائل المتجنبة ، كانت تخالط القبائل العربية فى المناطق المعتمدة حجةً فى الفصاحة ، مما اضطر اللغويين إلى الاعتراف بالأمر الواقع فى تداخل لغات العرب ، ومنهم من رأى أن هذه اللغات كلها حجة ! (١) .

\* \* \*

على أن هذه المخالطة ، على أبعد مدى يمكن تصوُّره . لا يجوز أن تُحمل

على الخلط الذى لا تتميز فيه لغة عن أخرى ، أو تُطمس معالم الشخصية اللغوية فى اللسان القومى لشعب أو آخر . كما تصور بعض الدارسين المحدثين<sup>(١)</sup> .

كل ما فى الأمر أن الاتصال التجارى والسياسى بين شعوب المنطقة ، كان معه اتصال فكرى ولغوى تحكمه مؤثرات حيوية أخذاً وإعطاء ، فى حدود ما تقضى به ضرورات الحوار والتعامل ، على أى وجه كان .

وتضبطه فى الوقت نفسه ، عن قصد أو غير قصد ، عواملٌ مضادة من حرص الشعوب على صيانة قومياتها ، ووعياها لما فى التفريط فى اللسان من مسخ للشخصية القومية وتفريط فى الذات .

\* \* \*

وسترون فيما نتابع من سير الحياة بلغتنا ، أن العربية اضطرت فى عصر الفتوح إلى أن تتصل بلغات الأقطار التى وصل إليها ممدُّ الفتح فى القرن الأول ، فاحتاجت إلى مترجمين ينقلون عنها وإليها ، فى المدونات والوثائق الرسمية ، وفى العقود والمعاملات التجارية ، وفى التفاهم الضرورى بين العرب وأهل الأقطار التى فتحوها وهاجروا إليها ، ريثما تمت حركة التعرب التى استغرقت جيلا أو أكثر بعد أن دخلت شعوب المنطقة فى الإسلام ، فكان المنطلق إلى الوحدة اللغوية فى اللسان المشترك لشعوب هذا الوطن الواحد ، مع ملامح مميزة تفرضها البيئة المحلية بخصائصها الجغرافية والاجتماعية ....

( ١ ) انظر مقدمة إبراهيم الايبارى لكتاب (المقتضب فيما وافق لغة أهل مصر من لغة

العرب) لابن أبى السرور الصديق - نشر وزارة الثقافة بمصر .

وكتاب إسرائيل ولفنسون ( تاريخ اللغات السامية ) ص ١٦٨ .

## الباب الأول

### العربية وقانون التطور

- ١- في بيئتها الأولى بالعصر الجاهلي
- ٢- مع حركة الفتوح الإسلامية خارج الجزيرة
- ٣- النصحي وطبقاتها الإقليمية في الأقطار المتعربة .
- ٤- مع النهضة العلمية في عصر الحضارة الإسلامية .
- ٥- مع حركة الإحياء في الغرب الأوربي .



## العربية في بيئتها الأولى

- إذا كان العامل الديني هو الذي يعطى التفسير التاريخي لانتشار العربية ، فإن هذا لا يعنى أنها لم تكن في ذاتها صالحة للبقاء .
- وإلا فقد كان حسبها أن تبقى لغة دينية .
- وترك اللغات الأصلية للشعوب المسلمة .
- مجال الحياة العامة .

من حيث كانت الجزيرة العربية هي مهد اللغة المشتركة التي اتخذتها شعوب أمتنا لساناً قومياً لها بعد أن أسلمت ،

يكون من المجدى أن نلتفت إلى الأصل المشترك فى لغة العرب قبل أن تخرج من بلادهم ، ثم بعد أن انتشرت مع الفتوح الإسلامية من المشرق الآسيوى إلى أقصى المغرب الإفريقى .

\* \* \*

وإذا كان العامل الدينى هو الذى يعطى التفسير التاريخى لانتشار العربية فإن هذا لا يعنى أنها لم تكن فى ذاتها صالحة للبقاء ، وإلا فقد كان من المتصور أن تبقى لغة دينية ، وتترك للغات الأصلية لشعوب المنطقة مجال الحياة العامة ، على نحو ما حدث للغة القبطية التى ظلت لغة الكنيسة المصرية لمن اختاروا البقاء على نصرانيتهم من أهل مصر ، دون أن تتجاوز هذا النطاق الدينى المحدود إلى المجال العام .

\* \* \*

وليس من الصحيح إطلاقاً ، أن اللغة العربية اعتمدت فى انتشارها على السلطة الحاكمة ، كما تصور بعض الدارسين فيما سموه « سلطان اللغة الغازية » ويعنون به القوة المستبدة من السلطان السياسى ، « فكلما كان للغازى سلطانه الذى لا يُردى ، كان للغته هى الأخرى سلطان لا يرد . والشعوب المغلوبة تسعى دائماً إلى التقرب من الشعوب الغالبة تجاهلها فى كل شئ وتحاكيها فى كل شئ » ، وليست ثمة وسيلة للتقرب خير من اللغة . من أجل ذلك كانت الشعوب المغلوبة أسرع إلى التحلل من لغتها والدخول فى لغة الغالب « (١) » .

لقد غزت المنطقة لغات\* أخرى قبل الإسلام ، مؤيدةً بالسلطان

---

(١) من مقدمة إبراهيم الايبارى لكتاب (القول المقتضب فيما وافق لغة أهل مصر من

لغة العرب ، لابن أبى السرور الشافعى) - وزارة الثقافة بمصر .

السياسي ، لكن الشعوب المغلوبة رفضتها متشبثة بتقديمها محافظة على تراثها .  
فانحصرت لغات الغزاة الغالبين في الدواوين والرسميات ، لم تتجاوزها من  
قريب أو بعيد إلى اللغة القومية .

وفي عصر الاستعمار الحديث ، نرى الدول الغازية كان لها سلطان مسيطر  
على أقطار الوطن العربي ، وقد حاولت جهدها أن تفرض عليها « سلطان  
اللغات الغازية » فلم تبادر شعوبنا المغلوبة إلى التقرب من الغزاة الغالبين  
ومجاملتهم ومحاكاتهم في كل شيء ، ولم تسع دائماً إلى التحلل من لغتها العربية .  
بل ناضلت عن وجودها الوطني ضد المسخ والسلخ ، وعن لسانها القومي  
ضد الغزو ، فانحصرت اللغات الغازية في الدواوين ودور التعليم الخاضعة  
للغالب . وبقيت شعوبنا بمعزل عنها ، ترفضها في عناد وإصرار<sup>(١)</sup> . فيما عدا  
قلة من المثقفين المتفرنجين . الذين استعاروا لغات الغزاة بالقهر والسلطة .  
أو عن طواعية تقليد ومحاكاة وتقرب إلى الحكام . وهذه القلة من المتفرنجين  
لا يمكن أن تمثل وجدان الشعب وضميره ، ولا يجوز أن نحكم بسلوكها على  
الملايين من جماهير الشعوب العربية التي ما نعرف أنها تخلت قط عن لغتها  
القومية ، ولا سعت إلى التقرب من الغزاة ومحاكاتهم فأسرعت إلى التحلل  
من لغتها ودخلت في لغة الغالب !

يصدق هذا على أقطار المشرق العربي . كما يصدق على أقطار المغرب  
التي امتنحت بأضرى غزو لغوي ، واجهته الشعوب بالرفض والسخط والإنكار ،  
وقاومت المسخ والسلخ فمخاضت معارك التحرير .

وهذه قضية نعرض لها فيما بعد ، بما يلفتكم إلى ما ينبغي لكم من حذر

(١) انظر مثلاً كتاب (الهلينية في مصر لهارولد بل) ص ١٨ من الترجمة العربية للدكتور

زكي على ط ١٩٥٩ .

واقراً معه كتاب الدكتور عبد المجيد عابدين (لمحات من تاريخ الحياة الفكرية في مصر ،

قبل الإسلام وبعده) ص ٣٢ ، ٩٥ - ط أول ١٩٦٤ .

فى التسليم المهين لكرامتكم العقلية ، بدعاوى راجت وذاعت حتى بدت  
من البديهيات الضرورية والحقائق المقررة ! . . .

\* \* \*

ونعود فنقول : لولا أن اللغة العربية فى ذاتها كانت صالحة للبقاء ،  
لأنحصرت فى النطاق الدينى للشعوب المسلمة ؛ أو فى المجال الرسمى خضوعاً  
للسلطة السياسية .

والعربية التى وصلت إلينا فى تراث الجاهلية المعروفة لنا ، ومداه قرنان  
قبل الإسلام ، قد مرت فى قديمها بمراحل تهذيب وصقل وتصفية وانتقاء ،  
حتى بلغت مستوى عالياً من دقة الدلالة وإحكام الصياغة والتعبير ، استطاع  
منه العلماء من عصر التدوين وما بعده ، أن يستخلصوا من تراث الفصحى ،  
قواعد الصرف والنحو والاشتقاق والوضع ، وضوابط العروض ، وأحكام البلاغة  
وأساليب البيان .

لقد وصلت إلينا من قديم جاهليتها ، بعد أن أهملت الحوشى والغريب  
والثقل ، وما تنافر فى حروف اللفظ أو كلمات الجملة ، وهذبت صيغها  
بالإعلال والإبدال والقلب والإدغام والحذف (١) .

واستقرت على ضوابط للتأنيث والتذكير ، وللأفراد والتثنية والجمع ،  
وميزت المعلوم من المجهول ، والمعرفة من النكرة ، وتصرفت فى المادة اللغوية  
بصيغ مطردة لكل منها دلالتها المحددة ، وتصرفت فى الفعل لضبط الزمن  
تحديداً للماضى المطلق والقريب والحاضر ، والمستقبل القريب والبعيد والمطلق ،  
واستخدمت الضمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة بدقة وإحكام ، للمتكلم  
والمخاطب والغائب ، مفرداً ومثنى وجمعاً .

(١) انظر : سر الفصاحة للخفاجى ، والمزهر للسيوطى (النوع التاسع) والعربية الفصحى

كما حكمت المعاني بصيغ المشتقات . ونسق الألفاظ وترتيبها في الجمل ،  
وسياق العبارة ، وعلامات الإعراب .

وتوسعت في الدلالات المجازية لكي تنمو وتلبى حاجات الحياة ، فنقلت  
الألفاظ من الاستعمال الحسي إلى الاستعمال المجازي والاصطلاحي .

وكذلك تطورت الأساليب العربية من قديم ، فخرجت عن أصل الوضع  
اللغوي إلى معان مجازية وأساليب بلاغية لملاحظ فنية جمالية ، كالذى تعرفون  
من خروج أساليب الخبر من دلالتها الأصلية إلى الدعاء والاسترحام والتفجع ،  
وأساليب الأمر والنهى والاستفهام عن معانيها اللغوية الأولى ، إلى الزجر والتقدير  
والإلزام أو الجحد والإنكار . والعدول في التعبير عن أصل استعماله اللغوي ،  
بالاستعارة والمجاز والكناية .

ووصل إلينا الشعر الجاهلي بعد أن مر بمراحل طفولته ونموه ، محكم  
الإيقاع متسق النغم مرهف الحس . تمضى القصيدة منه حتى تجاوز مائة بيت  
علماً ، دون خلل في نسق نظمه وضوابط إيقاعه وموسيقاه . . .

وكل هذا تعرفونه فيما صنف علماء السلف من علوم العربية ، وما أضاف  
المحدثون من دراسات لأسرار العربية في الدلالات والأصوات وموسيقا الشعر  
وفن القول .

وما يزال كثير من أسرارها محجوباً عنا ، وما يزال الميدان يتسع للجدد  
مما غاب عنا من هذه الأسرار . أقول هذا وأنا أشتغل منذ سنين بخدمة  
النص القرآني ، فألمح من أسرار دلالات الألفاظ وأساليب البيان ما ظل  
محجوباً عنا حتى اليوم . وأعتقد أن أجيالاً تأتي بعدنا ، تهتدي إلى ما لم نصل  
إليه نحن من حس العربية الدقيق المرهف ، وبيانها الذي وقفنا به عند قواعد  
علماء الصنعة .

وحددت العربية من قديم موقفها من الدخيل : لم ترفضه رفضاً باتاً في جمود وعناد ، ولم تطلقه دون قيد يغزوها ويمسح أصالتها .

فبقدر ما توسعت في الاشتقاق والمجاز ، ضيقت باب الأخذ من الدخيل ، صمناً للسانها ، فاستغنت إلى أقصى المدى ، بتطويع الألفاظ الفصحى لكي تؤدي المعاني الجديدة على وجه التجوز ، ولم تلجأ إلى استعارة الدخيل إلا عند الضرورة القصوى ، مع إخضاعه للصيغ العربية إما بالإلحاق ، أو بتغيير نطقه إشعاراً بتعريبه .

وقد استطاع علماء اللغة من عصر التدوين أن يستخلصوا قواعد لمعرفة العرب<sup>(١)</sup> ، تشهد بأن الأمر لم يترك لفوضى عشوائية ، بل خضع لقواعد كانت العربية تجري عليها فيما تأخذه من اللغات الأخرى<sup>(٢)</sup> .

من هنا جاز لبعض اللغويين أن يرفضوا القول بأن في القرآن ألفاظاً غير عربية . لا يعنون بذلك أن هذه الألفاظ لم تكن في أصولها من لغات رومية أو سريانية أو حبشية أو فارسية ، ولكنهم يعنون أن العرب عربتها بألسنتها وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها فصارت عربية ، ثم نزل القرآن الكريم وقد دخلت هذه الحروف في كلام العرب .

• • •

وكان عجباً حقاً أن يكون للغة بادية في العصر الجاهلي ، ومع العزلة النسبية<sup>(٣)</sup> ، مثل هذه الضوابط والقوانين التي تسامى بها أرقى اللغات

( ١ ) اقرأ باب ( معرفة العرب ) من مظهر السيوطي : ص ٢٦٨ وما بعدها .

( ٢ ) السيوطي : المظهر ٢٦٩ .

( ٣ ) سبق القول بأن اتصال العربية بلغات الأمم التي خالطتها ، لا يمنع القول بالعزلة النسبية التي صانت بها لسانها من الخلط . وهذه العزلة تشتد في المناطق البعيدة عن المخالطة . وكذلك القول في بداوة العربية لا يعني أن العرب كلهم كانوا بداءة ، ولكن يعني أن مناطق الفصحى التي آثرها علماء اللغة ، كانت في الغالب منازل البدو . فضلاً عن أن الجزيرة العربية في الجاهلية المعروفة لنا ، كانت تعيش =

الحديثة ، في دقة الدلالة وضوابط التعبير وقوانين التصرف والمجاز .  
والأخذ والنقل . . .

ومن اللغويين المحدثين ، من يفسر هذا بأنه « كان من حظ القبائل العربية القاطنة في أصقاع الجزيرة أنها احتفظت بلغتها السامية الأصلية احتفاظاً ظاهراً حتى لم يطرأ عليها شيء كبير من التغير والتبديل ، إذ كانت هذه الأقوام بعيدة عن الأمم الأخرى وفي مأمن من التأثير بحضارتها كما تأثرت بقية الأمم السامية التي سكنت في الجهات المعمورة . ومن أجل ذلك امتازت اللغة العربية ، لغة تلك القبائل ، عن اللغات السامية الأخرى بزيادة عدد غير قليل من الكلمات والصيغ القديمة »<sup>(١)</sup>.

فهل يتصور عقل أو يقبل منطق ، أن تصل العربية إلى هذا المستوى من الدقة والحيوية بمحافظتها على لغة بدائية أولى وكلمات وصيغ قديمة ؟

« إسرائيل ولفنسون » الذي يتصور مثل هذا ويقرره ، لا يلبث أن يذهب في الفقرة التالية مباشرة ، إلى أن المخالطة اللغوية بين العربية ، هذه المنعزلة ، وبين لغات أخرى قد وصلت إلى حد الامتزاج « فقد كانت العرب الراحلة تتصل بأمم سورية والعراق من أقدم الأزمنة التاريخية اتصالاً متنوع الأسباب ، فقد يكون للغزو وقد يكون للتجارة وتبادل الغلات والمرافق أو لطلب الكلاً والمرعى . ونجم عن ذلك تبادل أدبي وعلمي أيضاً . . . وقد امتزجت قبائل جمة آرامية وعبرية بالعرب في الجزيرة العربية أو تخومها وتركت فيها آثاراً ظاهرة ، إذ كانت من الوجهة الفكرية أرقى من عرب شمال الجزيرة »<sup>(٢)</sup>.

= عصر بداوة بصفة عامة ، ومظاهر التحضر في القرى العربية ، لم تخرج بها حينذاك عن عصر الناقة .  
انظر كتاب الدكتور ناصر الدين الأسد في (مصادر الشعر الجاهلي) وقابله على الفصل الموجز لعصر الحنساء ، في كتابي (الحنساء) ط المعارف سنة ١٩٥٧ .

(١) بنص عبارة « إسرائيل ولفنسون » في (تاريخ اللغات السامية) ص ١٦٢ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٢٩ ،

(٢) المرجع السابق .

ثم ما هذه السامية الأصلية التي يقول إن العربية احتفظت بها ولم يطرأ عليها شيء كبير من التغير والتبديل ؟

أليست هي التي قرر في أول تأريخه للغات السامية أن « من العسير أن نتخيل ما كانت عليه اللغة السامية الأصلية ومقدار كلماتها ، بل من العبث إطالة البحث في أمر غامض مجهول نشأ ونما في عصور سبقت العصور التاريخية ؟ »

ومع ذلك . فهذه المجهولة الغامضة . هي ما يزعم هنا أن العربية احتفظت بها ! دعونا إذن من تلك اللغة السامية الأصلية ، البدائية المجهولة النشأة في ضباب ما قبل التاريخ ، والتي لا يمكن أن نتصور أن العربية التي وصلت إلينا ، قد احتفظت بها من طفولتها الأولى .

فهل كانت العربية تدين بريقها إلى لغات قبائل جمة آرامية وعبرية ، امتزجت بالعرب في جزيرتهم أو على تخومها ، وكانت من الوجهة الفكرية أرقى من عرب شمال الجزيرة ؟

لا نسأل : فلماذا لم تنتصر الآرامية والعبرية وتفرضا سيادتهما حيث سادت العربية ؟ وإنما نتابع قول « ولثمنسون » في الفقرة التالية ، فرد به عليه :

« ولكن يجب ألا يبالغ الباحث في مسألة تأثير الآرامية والعبرية في العربية الشمالية ، إذ ينبغي أن يحترس من الخطأ في نسبة بعض الكلمات العربية إلى أخواتها السامية ظناً منه أنها منقولة منها ، فقد يوجد عدد كبير من الألفاظ له رنة آرامية أو عبرية وهو في الواقع كان يستعمل عند العرب قبل أن يحدث الاتصال بين هذه اللغات . ثم إذا علمنا أن شمال الجزيرة قد امتزج بعناصر كثيرة من الآراميين والعبريين فقد يحدث أن تتغلب الصيغة الجديدة في نطق كثير من الكلمات »<sup>(١)</sup>.

والأمر بعد ، ليس مجرد كلمات في هذه اللغة أو تلك ، وإنما القضية المعروضة للنظر ، هي قضية المستوى العالي الذي بلغته العربية في العصر



الجاهلي المعروف لنا ، من دقة الدلالة ورفاهة الحس ولطف الملحظ ،  
واطراد ضوابطها في التصرف والاشتقاق ، وإحكامها في الصياغة والأداء ،  
وملاحظها الفنية في الأساليب .

وما تزال القضية تنتظر رأياً مقنعاً ، يشق علينا أن نصل إليه ، لأن  
مراحل طفولة هذه العربية ونموها وتطورها قد غابت عنا . ويطمئن بعض  
علماء فقه اللغة من مستشرق الألمان ، إلى القول بأن العربية في هذا التطور  
كانت تعتمد على ما يسمونه التطور الداخلي ، يعنون به أنه يأتيها من ذاتها  
لا من خارج .

وأياً ما كان الأمر ، فهذه العربية التي تلقانا في أخريات الجاهلية ،  
على ما عرفتم من مستواها ، كانت في تلك المرحلة المعروفة لنا تاريخياً وتراثاً  
تمارس حركة تطور هامة تتجه إلى استصفاء لغة مشتركة شبه رسمية ،  
تلتقي عندها القبائل العربية فيما يجاوز نطاق القبيلة . تلك كانت لغة قريش ،  
لا نغني بها لسان أجدادهم ، وإنما نغني هذه اللغة المختارة التي اتصلت بلغات  
القبائل واستصفت منها ما رآته ملائماً .

ذلك أن قريشاً بحكم مركزها في العاصمة الدينية والتجارية الكبرى للعرب ،  
كانت تتلقى وفود القبائل في موسم الحج الذي كان في الوقت نفسه موسماً  
للتبادل التجاري واللغوي . فأتاح لها هذا المركز نفوذاً لغوياً ، أيده تفتحها لتقبل  
ما تستصفي من لغات سائر القبائل .

نقل « ابن فارس » في كتابه ( الصاحبي ، في فقه اللغة ) :

« أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم  
ومحالمهم ، أن قريشاً أفصح العرب السنة وأصفاهم لغة . .

« كانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يقدون إلى مكة للحج ويتحاضرون  
إلى قريش في دارهم ، وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها  
إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصنى

كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التي طُبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب » .

ونقل السيوطي في ( المزهري ) :

« وقال الفارابي في أول كتابه المسمى بالألفاظ والحروف : كانت قريش أجود العرب انتقاداً للأفصح من الألفاظ ، وأسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعاً ، وأبينها إبانة عما في النفس » .

وهذه الخطوة الهامة نحو اختيار لغة مشتركة ، كانت لها دعامة من اتصال وثيق بين لغات القبائل ، بدأ من قديم بهجرة القحطانية إلى الشمال وغلبة العدنانية ، ثم قواه تلاقى القبائل في المواسم الدينية والتجارية والرحلات ، وما يتبع ذلك كله من اتصال ومخالطة .

ولم تكن لغات قبائل الجنوب في اليمن وحضرموت ، أو القبائل الضاربة في تهامة وساحل البحر الأحمر وفي المنطقة الواقعة بين نجران والحواف اليمنى ، بمعزل عن الاتصال بلغة الحجاز ، بل كانت هناك علاقات متواصلة بينها لا يعوقها اختلاف اللهجات<sup>(١)</sup> .

• • •

هل وصل هذا الاتصال بين لغات القبائل على الزمن الطويل في الجاهلية إلى أن صارت قبل ظهور الإسلام لغة واحدة ، ابتلعت كل اللغات الأخرى أو جمعت بينها في لغة مختلطة هي مزيج من كل اللغات التي انهزمت وبادت ؟ هل كان كما تصور بعضهم : « أن الواحدة من اللهجات كانت تبتلع الأخرى أولاً ثم تتكون من الاثنتين لهجة جديدة لم تكن موجودة من قبل ، وهذه اللهجات الجديدة تمتزج بأخرى ، وهكذا ظل هذا التدرج ينتقل في أزمنة طويلة في أثناء الجاهلية حتى ظهر الإسلام » ؟

( ١ ) ريجيس بلاشير : تاريخ الأدب العربي - ص ٢٧ ، ٢٨ من الترجمة العربية للدكتور

كلا ، فالذي بين لغة قريش ، ولغات القبائل العربية الأخرى ، لم يكن ابتلاعاً ولا اندماج لغات في واحدة قد التهمت وتغذت بها ، وإنما كان على ما نقل « ابن فارس » من قول أئمة علماء اللغة ، نوعاً من الاصطفاء اختارت به اللغة العليا ما رضىته من لغات القبائل ، وتحاشت ما كرهته منها ، دون أن تفنيهم أو تقضى عليها ، بل اكتفت بالمجال العام المشترك وتركت لغات القبائل للمجال الحيوى الخاص بكل قبيلة :

ولا مفر من التسليم بأنه قد كانت هناك لغة عليا مشتركة ، ولغات محلية للحياة اليومية ، خضوعاً للطبيعة الاجتماعية للحياة اللغوية التى تقضى بوجود لغة للفن والثقافة والفكر ، غير اللغة المستعملة فى الحياة اليومية . وهذا ما فات أصحاب دعوى انتحال الشعر الجاهلى ، وقد رابهم من أمره أن جاء من قبائل متعددة بلغة واحدة لا تحمل أثراً لاختلاف اللهجات . وشعراء العربية اليوم يتكلمون باللهجات متعددة شتى ويعيشون بها فى ديارهم وأقطارهم ، لكنهم فى الشعر يستعملون الفصحى المشتركة ، ولسنا مع ذلك ننكر أشعارهم أو يربينا منها أنها لا تمثل لهجاتهم الإقليمية المختلفة .

والراجح أن القبائل العربية فى العصر الجاهلى ، لم تلتق على اللغة العليا فى الحياة الأدبية فقط ، بل كانت تستعملها أيضاً فى المجال الدينى حين تفد إلى مكة فى موسم الحج ، حيث بقى لنا من تليياتهم ما لا نكاد نلمح فيه أثر اختلاف لهجاتهم <sup>(١)</sup> ، وإن كنا لا ننسى أن من مظاهر الاختلاف فى اللهجات ، ما يبدو فى النطق لا فى الكتابة . وتراث الجاهلية قد وصل إلينا مخطوطاً من عصر التدوين ، غير مسجل على أجهزة صوتية لم تكن قد اخترعت بعد . ومع كل هذا ، بقيت آثار اختلاف اللهجات فى كثير من الشواهد النحوية واللغوية ، وفيما يلقانا فى معاجم العربية من اختلاف اللغات والصيغ ، وحشد المترادفات التى تتوارد على المعنى الواحد .

( ١ ) انظر الفصل الذى أملاه « أبو العلاء » عن تلييات العرب فى الجاهلية ، فى ( رسالة

ونزول القرآن الكريم كان الخطوة الجلية الحاسمة في الوحدة اللغوية ،  
ومع ذلك بقي أثر اختلاف اللهجات في الأحرف السبعة ، وفي القراءات ،  
إلى جانب بقاء اللهجات في نطاق التعامل والحياة اليومية للقبائل ، ثم في  
اختلاف لهجات الشعوب التي تعربت ، وتأثرت بلهجات القبائل العربية التي  
خالطتها ، على ما سوف نعرض له في متابعة سير الحياة بهذه اللغة التي خرجت  
من جزيرتها قوية حية ، تواجه أكبر حركة تحول لغوي عرفها تاريخ المنطقة ،  
مستجيبة بكل مرونة وحيوية لمطالب الحياة الجديدة، وواعية لدورها الجليل  
في تلبية حاجات الحياة اللغوية لأمة قوية منتصرة . وشعوب ذات عراقية في  
الحضارة والفكر والثقافة .

# العربية في أقطارها الجديدة مع الفتوح الإسلامية

من حيث وقف التاريخ مبهوراً يرصد  
حركة التحول اللغوي بعد الفتوح الإسلامي ،  
ويرقب نفوذ العربية إلى المناطق التي عصيت  
من قبل على الغزو اللغوي ،

وقف أصحاب العربية يشفقون عليها  
من هذه المخالطة المباشرة ، ويرهفون سمعهم  
لالتقاط ما لم يكن منه بد ، من شوائب  
العجمة وعثرات اللحن .

نزل القرآن الكريم كتاباً عربياً مبيناً . معجزة رسولٍ بشرٍ يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، ففرض إعجازه على العرب في عصر عز الفصحى وأصالتها ونقائها .

وأخذ مكانه من عصر المبعث : كتاب الإسلام الخالد ، وكتاب العربية الأكبر ، في ذروة أصالتها وباهر بيانها .

وقد تقبلت العربية من عصر المبعث زاداً سخياً من أساليب البيان القرآني المعجز ، ومن الدلالات الإسلامية التي وضعها القرآن لألفاظ من العربية ، كالإيمان والكفر والإسلام والهدى والضلال والنفاق ، والصلاة والزكاة ، والساعة والمبعث والقيامة والجنة والنار والصراط .. (١).

وتهيأت العربية لتطويع ألفاظها للدلالة على ما استحدثت الحياة الإسلامية من جديد المعاني وما واجهت من آفاق ..

لكنها في الوقت نفسه واجهت مشكلات صعبة مع العرب أنفسهم في حياتهم الجديدة ، ثم مع الشعوب التي تعربت بعد أن أسلمت .

\*\*\*

خرجت العربية من الجزيرة مع كتائب المسلمين الفاتحين الذين حملوا القرآن معهم لواء عقيدة ، وكتاب لغةٍ عليا وبيانٍ معجز ، لكنهم حملوا معهم كذلك لهجاتهم ، واتصلوا بشعوب تنطق بغير لسانهم ، واستقروا بعد الفتح في أقطار يختلف مناخها المادى والمعنوى ، ومسلكها اللغوى ، عن مناخ الجزيرة العربية .

وظهرت بوادر التأثر على العرب الخلص أنفسهم قبل سواهم من أبناء الأقطار التي فتحها الإسلام ، فكانت في تقدير أصحاب العربية أزمة لا بد

---

(١) انظر الألفاظ الإسلامية في (المزهر للسيوطي) ص ٢٩٤ و (الصاحبي في فقه اللغة)

لابن فارس : ص ٤٤ وما بعدها .

أن تحسم ، حفاظاً على لغة الدين والدولة ، ولسان قوميتهم التي لا يحل التهاون فيه .

\* \* \*

من عصر الفتوح ، كان أخطر ما بدا من بوادر الأزمة ، ما يتصل منها بلغة القرآن الكريم ، لواء الكتائب الفاتحة ، وكتاب الإسلام الذي يقدم أصول الدين وشريعته وهداه .

والعرب الذين خرجوا مع الإسلام إلى الأقطار المفتوحة ، كانوا من مختلف القبائل القحطانية والعدنانية ، قرشية وغير قرشية . وقد جاءوا بلهجاتهم من منازلهم في شتى بقاع الجزيرة العربية ، وما كان لأحد أن يحجر على حريتهم في التعامل بها لولا أن الأمر اتصل بكتاب الإسلام نفسه ، من حيث كان من العرب من يقرءون القرآن بلغاتهم ، وهم يروون حديثاً عن الرسول صلى الله عليه وسلم أن القرآن نزل على سبعة أحرف ، وقد أذن لهم في القراءة بها . قصداً إلى التيسير .

والمشهور في هذه الأحرف السبعة أنها لغات العرب الفصحاء التي جرت ألسنتهم عليها ، وبينها خلاف في الألفاظ كالعهن والصوف ، وعَجَل وأَسْرِع وهلم وتعال .. وفي وجوه الإعراب كالذي في خبر (ما) التيمية والحجازية ... وليس من الضروري أن كل كلمة كانت تقرأ على سبعة أحرف ، بل السبعة مفرقة فيه ، بعض الألفاظ بلغة هذيل ، وبعضها بلغة هوازن وأخرى بلغة تميم أو خزاعة<sup>(١)</sup> .

ومن عصر المبعث إلى خلافة عمر بن الخطاب ، كان المسلمون العرب يقرءون القرآن على ما تيسر لهم من الأحرف ، فلا يبدو الأمر مشكلاً ، فهي معان متفق مفهومها مختلف مسموعها ، ولا وجه يخالف آخر ، خلافاً ينفيه أو يضاده . كأن يقرأ بعضهم آية البقرة :

(١) اقرأ باب (الأحرف السبعة) في كتاب (الإتقان في علوم القرآن) للسيوطي .

« يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه » ، وقرأ غيرهم :  
« كلما أضاء لهم سعوا فيه » .

أو أن يقرأ بعضهم آية الحديد :

« يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم »  
ويقرأ آخرون : أنظرونا ، أو : أمهلونا .

حتى استقروا في البلاد التي فتحت للإسلام ، فكان اختلاف المسلمين  
في قراءة كتابهم الديني ، مظنة أن يُحمَل من غيرهم على محمل مريب ، فيتصور  
من يتصور أن المسلمين يدلون في كلمات الله ، مما اقتضى الموقف الحاسم  
من الخليفة « عثمان بن عفان » : جمع المصحف على حرف واحد هو المصحف  
العثماني أو المصحف الإمام . ونسخت منه نسخ معتمدة وزُعت على الأمصار ،  
وأمر المسلمون بالاختصار عليها ، وإحراق ما عداها من مصاحف كتبت على  
أحرف أخرى .

وبقيت آثار اللهجات بعد ذلك ، فيما يحتمله اللفظ الواحد في المصحف  
الإمام ، من وجوه القراءات المتعددة في المد أو القصر ، والهمز أو التخفيف  
والإدغام أو الفسك ؛ وفي الروم والإشمام والإمالة ، والترقيق أو التفتيح ...  
واستقر الأمر على سبع قراءات اختيرت لسبعة من أئمة القراء ، وتجدون الحديث  
عنها وعنهم مفصلاً في كتاب : ( غاية النهاية في طبقات القراء ) لشمس الدين محمد  
ابن محمد الجزري . ت ٨٣٣ هـ (١) .

\* \* \*

هذا من ناحية القرآن الكريم ، كتاب الإسلام وقمة الفصحى .  
فماذا عن الفصحى ، اللغة العليا المشتركة ، على السنة العرب الأصلاء  
الذين خرجوا من منازلهم في الجزيرة ، فكانت لغة الشعراء منهم والخطباء والكتاب  
الرسميين وغير الرسميين ؟

(١) طبع السعادة بالقاهرة ، بعناية المشرق بربشتراسر .



عصرَ الفتوح ، وقبل تعرب الشعوب الداخلة في الإسلام ، كان خروج العربية من بيئتها الأصلية وبعدها عن مهدها الأول ، مَدرَجة إلى شيء من الخروج على بعض سننها في القول . فظهر اللحن على ألسنة بعض العرب الخُلُص قبل منتصف القرن الأول للهجرة .

والمعروف في تاريخ النحو ، أن اللحن ظهر على ألسنة الجليل الأول من المولدين ، أبناء الفصحاء ، ففي الخبر أن أمير المؤمنين « علي بن أبي طالب » قال : إني تأملت كلام العرب فوجدته قد فسد بمخالطة الأعاجم . وقال « زياد بن أبيه » لأبي الأسود الدؤلي : إن هذه الحمراء - يعني الأعاجم - قد كثرت وأفسدت ألسن العرب .

ثم فشا اللحن من بعد ذلك بحيث اضطرب أمراء البيت الأموي إلى إرسال بنينهم إلى البادية أو استقدام مؤدبين لهم من البداءة ، يقومون ألسنتهم ويأخذونهم بالنطق الصحيح .

وكان من اللافت أن الشعراء الكبار ، وهم من أمراء فن القول ، لم يسلموا من اللحن : فالفرزدق ، كبير الشعراء الإسلاميين ، وهو من بيت عربي صميم ، يخطئ في اللغة ثم يضيق بمن يؤخذونه على الخطأ . يروون في تاريخه أنه حين أنشد بيته :

وعَصَ زمان يا ابنَ مروانَ لم يَدْعُ من المالِ إلا مُسْحَتاً أو مُجْلَفَ  
سأله أبو عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي : على أي شيء رفعت مجلفاً؟ قال : على ما يسوؤك !

وسمع ابن أبي إسحاق ، قول الفرزدق في مبدح يزيد بن عبد الملك :

مستقبلين شمالَ الشامِ تضرِبهم بحاصِبِ كنديفِ القطنِ منشورِ  
على عمائمنا تُلقي وأرحلنا على زواحفَ تزجى ، مُخْطِها ريرِ

فقال ابن أبي إسحاق : أسأت ، إنما هو : ريرُ .

ولما ضاق الفرزدق بتتبع عبد الله ابن أبي إسحاق الحضرمي لعثرات  
لسانه ، هجاه فقال :

فلو كان عبدُ الله مولى هجوتَه ولكنَّ عبدَ الله مولى مواليا

إذ كان عبد الله مولى آل الحضرمي ، حلفاء بني شمس بن عبد مناف. وقد  
ضايق بقول الفرزدق : « مولى مواليا » أكثر مما ضايق بهجوه إياه !<sup>(١)</sup> :

وحين نقرأ في تاريخنا الأدبي أن اللغويين كانوا يكبرون فصاحة بشار  
فيقول مفتخراً : من أين يأتيني اللحن وقد نشأت في فصحاء بني عقيل ،  
ورُبيت في حجور نساءهن وهن أفصح من الرجال ؟ ونقرأ نفع ذلك أن  
« الأخفش »<sup>(٢)</sup> طعن على بشار في قوله :

والآن أقصر عن سُمِّية باطلٍ وأشار بالوجلِّى على مشيرٍ

وفي قوله :

على الغزلى منى السلام فربما لهوت بها في ظل مُخَضَّرَةٍ زُهرٍ

وقال : لم يُسمع من العرب الوجلى والغزلى . قاسهما « بشار » من الغزل  
والوجل : فيما يُقتصر فيه على السماع دون القياس .

وطعن عليه كذلك في قوله يصف السفينة :

تلاعب نينانَ البحور وربما رأيت نفوس القوم من جزيها تجرى

وقال : لم يُسمع من العرب نينان ، جُمع نون :

فبلغ ذلك بشاراً فقال متوعداً : « ويلي على القصار ابن القصارين !  
متى كانت اللغة والفصاحة في بيوت القصارين ؟ دعوني وإياه ! » فبلغ ذلك

( ١ ) الموشح للمرزبانى فى مأخذ العلماء على الشعراء : ٩٩ وما بعدها ط السلفية ١٣٤٣ .

( ٢ ) ذكر المرزبانى فى الموشح (ص ٢٤٦) أن الخصومة اللغوية كانت بين بشار والأخفش .

ونقل أبو العلاء أنها كانت بين بشار وسيبويه : ( رسالة الفران ) ص ٤٢٩ ، ط ٥ ذخائر .

الأخفش فبكى ، وذهب أصحابه إلى بشار فكذبوا عنه وسألوه ألا يهجوهم فقال :  
وهبته للؤم عرضه . فكان الأخفش بعد ذلك يحتج بشعر بشار ، ليلغنه  
ذلك فيكف عنه .

وبلغ بشاراً عن « سيويه » شىء من ذلك فهجاه وأفحش في هجائه ،  
فيقال إن سيويه تحاشى بعد ذلك إغضابه ، واحتج بشواهد من شعره<sup>(١)</sup> .

حين نقرأ هذا ومثله ، مما جمع « المرزباني » جملة منه في كتابه ( الموشح  
في مآخذ العلماء على الشعراء ) ندرك مدى ما طرأ على ألسنة الجيل العربي  
الذى ولد وعاش بعيداً عن مهد العربية الفصحى .

• • •

وإذا كانت عشرات الألسنة العربية بحيث يتبعها اللغويون ، فإن المشكلة  
بدت أشد تعقيداً ، على ألسنة الشعوب التي تعربت بعد الإسلام .

فقد استقر الإسلام في الأقطار التي فتحها ، انتصرت العربية على اللغات  
الأجنبية المفروضة على شعوب المنطقة ، ثم بدأت تواجه اللغات الوطنية  
لهذه الشعوب .

ولم تجد العربية أدنى مشقة ، في اكتساح اللغات الأجنبية الدخيلة التي  
فُرضت على المجال الرسمي ، وظلت بمعزل عن الشعوب المحتلة ، سواء في  
المشرق أو في المغرب ، ويكاد المؤرخون الغربيون أنفسهم يجمعون على أن هذه  
اللغات صُنفت من المنطقة ، في القرون الأولى للإسلام :

« إن خمسة قرون من الاحتلال الروماني — لأقطار المغرب — لم تستطع  
أن تترك ما يصمد أمام العقيدة الإسلامية واللغة العربية »<sup>(٢)</sup> .

وفي مصر حيث استغرقت عهود السيطرة الأجنبية أكثر من ألف ومائة

( ١ ) رسالة الففران : ص ٤٢٩ ذخائر . وقابله على ما في الموشح ص ٢٤٦ .

( ٢ ) إبراهيم حركات : ( المغرب عبر التاريخ ) ص ٧٥ ط السلمي بالدار البيضاء .

عام قبل الفتح العربى ، لم تُجندِ الجهود التى بذلها الغزاة على ذلك المدى الطويل لفرض لغاتهم وثقافتهم عليها ، ولم تصمد اليونانية التى كان استأثرت بالمجال الثقافى والرسمى ثلاثة قرون قبل الميلاد ( ٣٣٣ : ٣٠ ق م ) وثلاثة أخرى بعده ( ٢٨٤ : ٦١٦ م ) أمام اللغة العربية<sup>(١)</sup> .

ولم يبد أن العربية واجهت فى أى قطر من المنطقة ، مقاومة من هذه اللغات الأجنبية المرفوضة ، وإنما كانت المواجهة مع اللغات الوطنية للشعوب التى دخلت فى الإسلام .

وحركة التعريب لم تبدأ مع الفتح الإسلامى وإنما انتظرت ريثما اطمأنت شعوب المنطقة إلى الدين الجديد ، ثم اتجهت إلى التعريب لكى تتعلم لغة القرآن ، كتاب دينها .

وكان من المتصور أن تجمع هذه الشعوب بين العربية لغة دين ، وبين لغاتها القومية التى صانها طويلا ضد الغزو ، لغة حياة . ولكن لم يمض جيل أو جيلان حتى كانت العربية اللسان المشترك لشعوب أمة واحدة ، هجرت إليها ألسنتها القومية دون أن يجبرها أحد على ذلك ، كما لم يكرهها مكره على أن تتخلى عن عقائدها وأديانها لتعتنق الإسلام ، بل تركت لغة العرب تخوض معركتها مع لغات الشعوب الداخلة فى الإسلام .

والعربية هى لغة الدين والدولة .

وكذلك كانت الرومانية واليونانية والفارسية والبيزنطية .

ولكن الحواجز التى صمدت قروناً ضد تلك اللغات الغازية ، ما لبثت أن تهاوت أمام اللغة العربية .

وغير مقبول ما تصوره بعض الدارسين من أن العربية انتصرت بمجرد

(١) هارولد بيل : الهيلينية فى مصر - ص ٥٥ ، ترجمة د . زكى على ( ١٩٥٩ ) .

كونها لغة الغالب ، وإنما كانت مع ما يؤيدها من جلال القرآن وسلطة الدولة ، قادرة على أن تنصرف على اللغات القومية التي ضعفت لطول ما تعرضت له من حملات الغزو ، وطول ما عزلت عن المجال الحيوي للثقافة والتعليم والدواوين . وإذا كانت قد احتفظت بمكانها الشعبي ، فإن المثقفين الوطنيين انحاز بعضهم إلى الثقافة الدخيلة ، وانعزل أكثرهم ، وهم قادة الشعب الروحانيون ، في نطاق الفكر الديني بعيداً عن أى مجال ثقافى آخر<sup>(١)</sup> .

ولم يكن موقف الشعوب من لغة العرب أن فرطت في ألسنتها فجأة ، أو أكرهت على التخلي عنها بحمد السيف كما ذهب المؤرخ « فيليب حتى » في تاريخه الكبير ، ولا صدرت به قوانين ملزمة من الدولة ؛ وإنما مر الصراع اللغوى في مراحل الطبيعية التي تحكمها سنن الاجتماع ، فبدأ بمرحلة عزلة تفاوتت بين قطر وآخر باختلاف طبيعة الإقليم قرباً وبعداً ، وميراثه الفكرى والحضارى ومسلكه الصوتى واللغوى ؛ وفى تلك المرحلة كانت العربية تتعامل مع أهل الأقطار المفتوحة عن طريق الترجمة ، وكُتِبَ التاريخ الإسلامى تذكر أشخاصاً منهم بأسمائهم كانوا يؤدون وظيفة المترجمين من العربية وإليها ، فى الدواوين والمعاملات ومجالس القضاء . وبعض هؤلاء المترجمين كانوا من العرب الذين يعرفون اللغات الأخرى ، وأكثرهم كانوا من أهل هذه الأقطار الجديدة ممن تفصحوا بالعربية .

ولم تطل مرحلة العزلة اللغوية ، والقرآن الكريم هناك يفتح للعربية قلوب من أسلموا ، وتعريب الدواوين يجذب المثقفين الذين يبادرون عادة إلى تعلم اللغة الرسمية التماساً لوظائفها ، وانتقال القبائل العربية إلى الأقطار المفتوحة يأخذ شكل هجرات جماعية استقرت فى مواطنها الجديدة . وألحق العرب الوافدون

(١) د . عبد المجيد عابدين : (لحاح من تاريخ الحياة الفكرية فى مصر قبل الإسلام وبعده)

في ( الديوان ) بأهل الإقليم ، وخالطوا أبناءه وعاشوا بينهم وأصهروا إليهم ، حتى اندمجوا فيهم فما عادوا يتميزون عنهم<sup>(١)</sup> .

ويكفي لأخذ فكرة عن حجم هذه الهجرات الجماعية أن نقرأ في تاريخ مصر الإسلامية مثلاً : كتاب المقرئ ( البيان والإعراب عن بمصر من الأعراب ) ، و ( خططه ) التي حدد فيها منازل القبائل العربية بمصر .

وكتاب ( فتوح البلدان ) ، لابن عبد الحكم ( والنجوم الزاهرة ) لابن تغرى بردى ، و ( حسن المحاضرة ) للسيوطي .

وفي دراسة جامعية حديثة ، استخلص الدكتور « عبد الله خورشيد البري » من هذه الكتب وغيرها من المصادر التاريخية ، القبائل العربية التي استقرت بمصر بعد الفتح ، وقد أحصى منها ستين قبيلة من القبائل العدنانية وبطونها ، ومائة واثنين وسبعين قبيلة من القبائل القحطانية وبطونها<sup>(٢)</sup> .

ومع هذه القبائل الوافدة ، نفذت العربية إلى مواطنها الجديدة متغلغلة في الحضر والبادي ، في السواحل والريف والجبال .

وفي هذه المرحلة ، كانت العربية تتعامل مع اللغات الوطنية مباشرة دون مترجم أو وسيط ، على أوسع نطاق غير محدود بالمجال الرسمي أو الديني . تسطوع حيناً وتتساهل لكي تلتقي مع لغة الجماهير ، وتجذبهم أحياناً بقوتها وحيويتها فيأخذون منها قدر طاقتهم . ثم ما لبثت العربية أن اجتازت مرحلة التبادل أخذاً وعطاء . تأثراً وتأثيراً ، لتنتصر على اللغات الوطنية التي تركت المجال لهذه اللغة القوية المنتصرة المستجيبة لحاجات حياتهم اللغوية في يسر وسخاء ، الواعية لدورها الجليل في تعريب السنة شعوب عريقة في الحضارة والتاريخ . .

\* \* \*

( ١ ) المقرئ : البيان والإعراب : ص ١٨ .

( ٢ ) القبائل العربية في مصر ، في القرون الثلاثة الأولى للهجرة : ص ٥٩ . ط دار

## هل تأخرت حركة التعريب ؟

في مصر مثلاً ، يرى « يوهان فك » أن الفصحى رجحت كفتها في مجال الرسميات والتعبيد ، وأن لهجات القبائل رجحت في التعامل اليومي ، في نهاية القرن الثالث ، وأخذت اللغة الوطنية تتراجع إلى سهول الريف والمناطق البعيدة حتى تلاشت تماماً في القرن السادس للهجرة<sup>(١)</sup> .

ولكن هذا التحديد موضع نظر :

فتأخر رجحان العربية إلى القرن الثالث ، وانتصارها إلى القرن السادس لا يكاد يثبت أمام ما يعرفه تاريخ مصر في أوائل عصر الولاة .

فتحن نقرأ في تاريخ مصر ، في أول العصر الأموي أن « معاوية بن أبي سفيان » أحدث في مصر وظيفة ( القاصّ الرسمي ) لمواجهة الفتنة بها ، إذ كان لخصوم الأموية قصاص يجمعون الناس حولهم في المساجد أو الطرق يعظونهم ويسلونهم بالقصص والحكايات وأخبار الأمم الماضية ، ويثبثون في ثناياها آراءهم السياسية والمذهبية بطريقة مباشرة أو غير مباشرة .

والقصص لا يكون لها تأثير على الوجدان العام ، إلا إذا كانت حركة التعريب قطعت شوطاً ذا بال .

والقاص الرسمي في دولة غربية إسلامية ، لا يمكن أن يتحدث بغير العربية . فهل كان الذين يحضرون مجلسه ويستمعون إليه من مهاجرة العرب دون المصريين ؟ أو كان هناك من يترجم تلك القصص إلى المصريين ؟

والخطب الدينية المنبرية في المساجد التي انتشرت من بداية عصر الفتح ، والخطب السياسية للولاة ، كانت بلا شك تلقى بالعربية في مصر وسائر الأقطار الإسلامية ، فماذا عن جمهور المستمعين لها من غير مهاجرة العرب ؟

ونقرأ في تاريخ إفريقية والمغرب ، أن جيش طارق بن زياد كان فيه

(١) العربية . ص ٢٢ - ترجمة د . عبد الحليم النجار ، ط ١٩٥١ .

عشرة آلاف من قومه البربر ، معهم ألفان من العرب ومتعربة المشرق .  
وقد خطب فيهم زياد بالعربية ، فهل كانت خطبه موجهة إلى العرب دون  
قومه البربر وهم الكثرة في جيشه ، أو أنه كان يلقي الخطبة مرتين : إحداهما  
بالعربية والأخرى بالبربرية ؟

كل هذه الأسئلة تجعلنا نتردد فيما قيل عن طول المرحلة التي استغرقتها  
تعرب الشعوب التي دخلت في الإسلام .

وإذ نمضي في التماس الجواب عنها نجد أن تاريخ علوم العربية والإسلام  
عرف أعلاماً من المتعربين من عصر مبكر : فعلم النحو يدين « لسيبويه »  
وهو فارسي الأب ، ب ( الكتاب ) الإمام ، ومدرسة أبي حنيفة في الفقه نهض  
بها رجال من العراق في الطبقة الأولى من أصحاب المذهب . وجديد مذهب  
الإمام الشافعي ، حمله رجال مدرسته والطبقة الأولى منهم مصريون ، هجرة  
أو تعرباً . وفقه الإمام مالك ، دوّنه « سحنون » حامل المذهب إلى  
المغرب . .

والقراء السبعة الذين انتهت إليهم الأمة في قراءة القرآن ، ورجال  
الطبقة الأولى من القراء الذين تسلسل فيهم السند إلى الأئمة السبعة ، أكثرهم  
من الموالي ، لا من العرب الخالص . والموالي في المصطلح التاريخي ليسوا العبيد  
الأرقاء وإنما هم من أبناء الشعوب المفتوحة الذين فرضت عليهم الدولة الأموية  
أن يلتحقوا بالقبائل العربية ولاء<sup>(١)</sup> .

وكل رجال الطبقة الأولى بعد الأئمة السبعة<sup>(٢)</sup> ، الذين نجد فيهم إلى  
جانب العربي الصميم ، المصري والمغربي والحوارزمي والكوفي والفارسي ، من  
أعلام القرن الثاني للهجرة ، مما يشهد بأن العربية التي أخذت مكانتها من عصر  
الفتح لغة دين ودولة ، استقرت في أقطارها الجديدة من الأجيال التالية  
للفتح الإسلامي مباشرة ، لغة ثقافة وأدب رسمي وشعبي ، مبتدئة من جيل

( ١ ، ٢ ) الجزري : غاية النهاية في طبقات القراء .



الذين ولدوا في هذه الأقطار ، من العرب أو من نسب مشترك ، أو من أصول غير عربية .

وأياً ما كان الأمر ، فإن القرون التالية لهذا الاستقرار ما لبثت أن تلقت علماء من أبناء الشعوب المتعربة ، كانوا من أعلام المؤلفين والمصنفين ، لافى العلوم الجديدة على العربية فحسب كالمنطق والطبيعات والرياضيات ، ولكن فى علوم اللغة والبلاغة كذلك ، وفى علوم الإسلام : الحديث والرواية والفقه والمغازى والسير والقراءة والتفسير والتصوف . فنقرأ من طبقات النحاة واللغويين بعد سيبويه والكسائى أسماء : السجستاني ، والسيرافى ، وابن دستوريه . وأبى على الفارسي . والأصفهاني ، والسرخسي ، والكرمانى والأنبارى ، والرازي . وابن خالويه . . .

ونقرأ فى طبقات المفسرين إلى القرن الخامس الهجرى ، أسماء : النيسابورى والبلخى والمصرى والإدفعوى ...

وفهم أئمة حملوا ألقاب : حبر الأمة ، وإمام العصر ، وشيخ المذهب ، وحامى السنة ، وتاج العلماء . .

والتاريخ الذى قدّم كل هؤلاء الأعلام ، هو الذى صممت فى عصور ما قبل الإسلام ، لم يقدم إلينا عالماً مغربياً أو أديباً مصرياً بالرومانية ، أو فقيهاً شامياً بالفارسية أو الرومية .

\* \* \*

والسؤال الذى يواجهنا هنا : هل يمكن أن تظل العربية على حالها الأولى بعد أن اتسع مجالها فصارت لسان الشعوب الإسلامية من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ؟

لقد مر بنا ما كان من أثر المخالطة والحوار فى العصر الجاهلى الصميم ، ثم ما كان من تأثير العرب الخالص فى عصر الفتوح بالبيئات الجديدة التى

هاجروا إليها من منازل قبائلهم في الجزيرة . ولا بد أن تكون المخالطة أعمق أثراً وأعم شمولاً . على ألسنة الشعوب المتعربة من وراء النهر إلى ساحل المحيط الأطلسي . . . .

لو أن العربية كانت لغة الدين والدولة فحسب ، لما كان هناك مجال لأن تختلف في مشرق عن مغرب ، أو تتفاوت في الحواضر عن البوادي والريف والجبال . لكنها كانت كذلك لغة الثقافة والعلم والأدب والتأليف في الأقاليم المختلفة ، وكانت لغة الحياة لجماهير الشعوب التي لا يصلها باللغة العليا غير القرآن الكريم .

ومرة أخرى ، تواجهنا هنا عقدة الإقليمية التي أشرنا إليها في المدخل التاريخي ، بما شابها من خطأ الفهم وضلال المقاييس منذ اتخذ منها الاستعمار ذريعة تفرقة وأداة تمزيق لوحدتنا الجامعة . وقد ألفت العقدة ظلها على الدراسات العلمية التي تبحث في الملامح المميزة للشخصية العربية في كل قطر من أقطارها ، وترصد التيارات المؤثرة في المناخ الروحي أو الفكري واللغوي والأدبي ، لمناطق وطننا العربي الكبير . وصار من اليسير أن يتهم أصحاب هذه الدراسات بالإقليمية ، في مفهومها الخاطئ الشائع .

ويبدو غريباً أن الدراسة الفقهية تحررت من هذه العقدة ، وشغلت بلمح الخصائص الإقليمية المميزة لبيئات المذاهب وشخصيات الأئمة ، فلا نجد عميد كلية الشريعة بجامعة الأزهر ، أدنى جرح في أن يتحدث عن « جغرافية المذاهب الفقهية » ويؤيد « دراسة الفقه الإقليمي » ويعني بها « تأثير الأقاليم الإسلامية في هذه المذاهب التي استوطنتها وعاشت فيها » ثم يمضي في الشرح قائلاً :

« والواقع الذي لا مرية فيه : أن الفقه المذهبي قد تحلل في كثير من

الأحيان من تلك القيود النظرية التي كانت للفقهاء الأول ، إلى مناهج قد تأثرت بالأقاليم التي انتشرت فيها المذاهب ، والمناطق التي استقر بها العمل فيها ، حتى اتخذ طابعاً إقليمياً خاصاً في تلك البلدان والأمصار ، شأنه فيه ككل كائن حتى يخضع لعوامل الزمان والمكان . ومن أمثلة ذلك : القديم والحديث من مذهب الإمام الشافعي ، فالمشهور أن القديم هو ما قاله بالعراق إفتاء وتصنيفاً ، والحديث ما قاله بمصر .

« ومثل ذلك يقال عن المذهب المالكي ، فهناك طريقة للعراقيين وطريقة للمغاربة ، وأخرى للقرطبيين بالأندلس ، وطريقة رابعة لإقليم مصر ممزوجة من الأقاليم الأخرى .

« وفي العصور المتأخرة ، يختلف الفقه الشافعي في مصر وجزيرة العرب عنه في الملايو وإندونيسيا ، اختلافاً بينا ، تبعاً للعادات والبيئات التي يعيش فيها المذهب . . . . .

« وإنه لمن الأوفق وثوقاً والأوثق توفيقاً ، التفكير في تصنيف الفقه إلى مناطق تمثل كل منطقة منها وحدة جغرافية اجتماعية ، تقوم على أساس أن لكل منطقة مميزاتها في نطاقها الاجتماعي والثقافي ، تبعاً للعادات والملابس النفسية والاقتصادية والسياسية ، وأحوالها الطبيعية والجغرافية »<sup>(١)</sup>

وأضيف : إن تاريخ الفقه يعرف هذه الفروق الإقليمية ، في مذاهب الفقهاء الأئمة الأولين ، لا في المناطق التي انتقلت إليها فحسب . فذهب الإمام أبي حنيفة اتجه إلى الرأي والقياس متأثراً بالبيئة ، وأخذ الإمام مالك بالآثر لوجوده في المدينة التي عاش فيها الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة بعد الهجرة . والإمام الشافعي قرأ ( موطأ الإمام مالك )

( ١ ) انظر مقدمة الدكتور على حسن عبد القادر ، لكتاب أحمد تيمور ( نظرة تاريخية

في حدوث المذاهب الفقهية الأربعة ) ط لجنة نشر المؤلفات التيمورية ١٩٦٥ .

في المدينة ، ثم تلقى مذهب أهل الرأي في العراق ، على محمد بن الحسن الشيباني تلميذ أبي حنيفة ، ثم أقام بمصر ، فعدل عن الرأي إلى الحديث ، مع ميل إلى التحليل وحرية النظر ورد فروع المسائل إلى أصول ، وحصر الجزئيات في كلية<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

أما الدراسة الأدبية واللغوية فما تزال تحمل أثراً من هذه العقدة التي تحررت منها الدراسة الفقهية ، برغم سبق القدامى من المؤرخين والنقاد ، إلى تقديم دراسات متخصصة في أدب الأقاليم بالمشرق أو المغرب ، مثل « يتيمة الدهر » للثعالبي ، و « خريدة العصر » للعماد الأصفهاني ، و « الذخيرة » لابن بسام ، و « نفح الطيب » للمقرئ التلمساني .

وكان للمحاولة الجلية التي قدمها أستاذنا « أمين الخولي »<sup>(٢)</sup> في تحرير نظرية الإقليمية في فهم الأدب وتاريخه من الظلال التي شابها ، أثرها الهام في توجيه هذا الجيل من الجامعيين إلى الدراسات المتخصصة في آداب الأقاليم العربية ومناطق كل قطر منها .

فلا حرج علينا إذ نحن مضينا في لمح العوامل الإقليمية التي أثرت في لغتنا من قديمها المعروف لنا إلى عصرنا الحاضر .

\* \* \*

ليس من السهل أن يتبع الراصد سير العربية في أقطارها الجديدة . فالحياة اللغوية تخضع لمؤثرات شتى قديمة وطارئة ، مناخية ومزاجية وبيولوجية ، متشابكة في نسيج معقد .

ويمكن مع هذا أن نجمل القول في سير الحياة بلغتنا ، فراها كانت

(١) انظر الجزء الأول من كتاب (مالك بن أنس: ترجمة محرة) للأستاذ أمين الخولي .

ط الحلبي بالقاهرة . وكتاب (الإمام الشافعي) ، للشيخ مصطفى عبد الرازق .

(٢) في كتابه : في الأدب المصري : ط المعارف بالقاهرة .

محكومة بتيارين متقابلين : أحدهما يشدها إلى أصيلها القديم ويرى في أي خروج عليه ظاهرة فساد ونذير خطر ، بل يعد الزمن نفسه عدواً لها !

ويشدها تيار آخر إلى مجرى الحياة الدائب المتدفق ، منطلقاً بها مع الزمن لا تتوقف .

والتياران . على بُعد ما بينهما ، يحددان نوعاً من الاتزان بين قديم يحمي الأصالة . وجديد يمدّها بالحياة ويساير بها الزمن ، ويقاوم الجمود ، عدو الحياة . .

• • •

ومن حيث وقف التاريخ يرصد حركة هذا التحول اللغوي الخطير ، ويرقب نفوذ العربية إلى المناطق التي عصيت من قبل على أي غزو لغوي خارجي . وقف أصحاب العربية يشفتون عليها من هذه المخالطة المباشرة .

ومن حيث أرهف الزمن سمعه ليصغي إلى العربية يسطّقُ بها في ريف مصر والعراق والمغرب ، وعلى سفوح لبنان وقاسيون والأطلس وأوراس . والبداءة في الصحارى المنعزلة بعيداً عن السواحل والوديان . أرهف حُماة العربية سمعهم لالتقاط أي لحن أو شائبة من عجمة تشوب هذا اللسان الشريف الذي نزل به القرآن الكريم . كتاب الإسلام ومعجزة نبيد عليه الصلاة والسلام .

واللغة العربية ماضية في حركتها تتسع وتنمو وتتلقى جديد الروافد في مرونة سخية . وحراسها ساهرون عليها لحماية أصالتها .

وأخذت الحياة اللغوية مجراها في جانبيين :

الفصحى العالية المشتركة . لسان العربية ديناً ودولة وثقافة وعلماً وأدباً . ولهجاتها الإقليمية على ألسنة الشعوب المتعربة .

أما الفصحى . فكانت الحركة المضادة لاختلاط الألسن وتيارات الغزو

الشعوبى . هي حركة الجمع والتدوين التي ازدهرت في القرن الثاني الهجرى وأخذت وضعاً دينياً وقومياً بالغ الخطر . وقد استطاعت حركة الجمع أن تأتى بقدر كبير من تراث الجاهلية ، حيث العربية في وطنها لم تختلط بالألسن ولم تشبها شائبة عجمة . وشد الرواة رحالهم إلى البادية والمناطق البعيدة نسبياً عن التيارات الوافدة . ليأخذوا من أفواه الأعراب ما وعت ذاكرتهم من تراث الآباء والأجداد . ولم يفت أولئك الرواة ما لحق بالشعر من آفات الوضع والانتحال . غير أن الحركة كان لها من الحرمة ما يصونها إلى حد كبير من عبث الأهواء وتزييف المرتزة من الرواة ، ويخضعها لرقابة دقيقة صارمة كشفت عن أكثر الزائف والمنحول ، وميزت رواة عُرِفوا بالضبط والثقة والأمانة ، وجرحت آخرين بالتهاون أو الكذب والوضع . ذلك لأن حركة الجمع والتدوين قُصد بها أول ما قصد ، إلى حماية لسان الأمة وخدمة كتاب الإسلام وفهم ألفاظه وتوجيه إعرابه ولح أسرارهِ في التعبير والبيان ، وقامت في القرنين الثاني والثالث للهجرة على أيدي رواة أئمة ، من الخبراء ذوى البصر بالشعر « يعرفون صحيحه من زائفه كما يعرف الجوهري والصيرفي صنوف الدرهم والدينار » بنص عبارة ابن سلام في مقدمة (طبقات الشعراء) .

والذى فات أولئك الخبراء كشفه من المنحول ، كان من مهارة التقليد بحيث يحمل خصائص الأصل<sup>(١)</sup> .

واستطاعت هذه الحركة التاريخية أن تستخلص للفصحى معجم ألفاظها وقواعد نحوها واشتقاقها وخصائص أساليبها وضوابط شعرها . والقرآن الكريم في قمته العليا ، يجلو العربية في ذروة نقائها ومعجز بيانها .

ومعروف أن علماء اللغة حاولوا أن يقفوا فيما يعتمدون من شواهد

(١) ابن سلام : طبقات الشعراء ، الفصل الأول .

<sup>١</sup> وقرأ معه الفصل الأول من (تراثنا بين ماض وحاضر) مطبوعات المعهد ١٩٦٨ .

لغوية ، عند تراث العصر الجاهلي وصدر الإسلام ، وتحاشوا الأخذ عن المولدين ولو كانوا في مثل فصاحة بشار . لكن العربية لم تجمد عندما أرادها لها اللغويون ، بل تابعت نموها وتوسعها لتتقن بحاجات الحياة اللغوية للدولة الإسلامية الكبرى ، وفرضت على المعجميين أنفسهم ألا يقفوا عند رصيدها الذي جاءت به حركة الجمع .

• • •

والفصحى كانت اللغة العليا المشتركة ، لشعوب تباعدت أصولها واختلفت أقاليمها وتفاوتت أمزجتها وميراثها الفكري والثقافي والحضاري .  
فهل كانت في المجال الثقافي والأدبي ، محصنة بمناعة تحميها من التأثير بالعوامل الإقليمية ؟

أشرنا في المدخل التاريخي إلى أن الشعوب المتعربة حملت معها تراثها الثقافي والحضاري .

كما كان للمزاج المحلي والتراث الروحي أثره في الفرق الإسلامية والاتجاهات الروحية ، فتأثر مناخ العراق مثلاً بتراثه القديم وبالتيارات الوافدة من الشرق الآسيوي ، واستقر به المذهب الشيعي بما دخل عليه .

وظهرت الصوفية في مصر متأثرة بمزاجها الديني الصافي ، ووجدانياتها المتوهجة .

وفي المجال اللغوي تميزت مدارس معروفة في النحو والبلاغة ، في الكوفة والبصرة وبغداد ومصر . واضطلع المغرب بدور جليل في الدراسات الإسلامية لموقعه الهام على تخوم دول مسيحية .

واتسعت العربية لهذه الآفاق المترامية ، فكانت لغة العلم والثقافة والأدب لشعوب الدولة الكبرى .

وسبقت الإشارة إلى أن العربية في آفاقها الجديدة كانت محكومة بتيارين من المحافظة والتجديد ، يكفلان لها نوعاً من الاتزان ، على بعد ما بينهما .

وقانون حفظ الذات ، يرفض التخلي عن أصيل العربية كما عرفته في عصر نقائها .

وقانون الحرص على البقاء يستجيب لكل دواعي النمو والتطور ، ولو كان ذلك على حساب ما هو أصيل وعريق .

ولقد استطاعت العربية بمرونة فائقة ، أن تتحاشى أزمة موقفها بين القديم الأصيل والمحدث الطارئ ، بتطويع دلالات الألفاظ والتوسع في المجاز ، لكي تؤدي المعاني الجديدة التي لم يكن للعرب عهد بها من قبل . وكانت تجربتها التي أثرت بها بالمصطلحات والألفاظ الإسلامية من عصر المبعث إلى عصر الفتوح ، قد نجحت تماماً في هذا التطويع للغة الجاهليين الوثنيين ، دون أن تجد مشقة أو عسراً لتكون لغة الأمة الإسلامية<sup>(١)</sup> .

والقرآن الكريم قد تكفل بالقدر الأكبر من تطويع ألفاظ العربية للدلالات الإسلامية ، فسار المسلمون في العهد الأول على الهدى القرآني ، فوضعوا مصطلحات علوم السنة والحديث والفقه والأصول والمذاهب والنظم الإسلامية . كما طوعوا ألفاظ الفصحى الجاهلية للدلالات الاصطلاحية التي احتاجت إليها علوم النحو واللغة والعروض والبلاغة وسائر علوم العربية .

وكان الاتجاه السائد في تلك المرحلة ، الاستغناء بالمجاز والتوليد والاشتقاق عن الدخيل إلا عند الضرورة . وكانت العربية كلما احتاجت إلى الدخيل ، سارت على نهجها في تعريب ما تأخذ منه ، بتغيير اللفظ أو الصيغة ، وإلحاقه بآخر عربي ، كي تضع على المعرب طابعها وتتصرف فيه بالإعراب ، واشتقاق الأفعال والمصادر وسائر المشتقات ، وإجراء الصيغ العربية عليه في التثنية والجمع والتذكير والتأنيث والتصغير والنسب . . .

وبلغ من دقة ضوابط التعريب ، أن استطاع اللغويون استخلاص القوانين التي كانت العربية تجري عليها في تعريب الدخيل وإلحاقه

(١) السيوطي : المزهري في علوم اللغة - ص ٢٩٤ وما بعدها .



والتصرف فيه . كما استطاعوا من العصور الإسلامية الأولى ، استنباط قواعد لمعرفة المغرب والدخيل ، والقيام بمحاولات إحصائية لحصر ألفاظهما وردها إلى أصولها من اللغات الأخرى<sup>(١)</sup> مما يشهد بأن حركة الأخذ والتعريب في مراحلها المتقدمة كانت محدودة المجال والنطاق ، لا سيما في اللغة الفصحى المشتركة المعترف بها على مستوى الدولة ، في الأدب والعلم والتأليف .

\* \* \*

لكن اتساع الدولة الإسلامية وتدفق الدماء الجديدة في شرايينها ، جعل من الصعب أن يظل الأمر على ما كان من حصر الدخيل أو المغرب في النطاق الضيق . فالأمم التي أسلمت وتعربت ، كان لها ميراث فكري وعلمي احتاجت إليه الدولة ، وفرضه تطور النظم الإدارية والسياسية في الحكم ، مع سيادة العربية واستقرارها لسانا للشعوب التي هجرت ألسنتها الأولى إلى لغة القرآن .

وبدا من الضروري أن تتوسع العربية فيما ضيقت من باب الدخيل والمغرب . وتقدم أبناء الأقطار الإسلامية ممن تعلموا العربية ، ينقلون إليها ذخائر التراث القديم للأمم العريقة في العلم والحضارة ، في علوم جديدة تماماً على العربية ، لم تكن قد مارسها أو إتصلت بها قبل الفتح .

وحركة النقل بدأت مبكرة في العصر الأموي برعاية أمير مستنير مثقف من الأسرة الحاكمة ، هو « خالد بن يزيد بن معاوية » ثم نشطت الحركة في العصر العباسي الأول تحت رعاية الدولة ولحسابها ، وتحمل بيت المال النفقات الباهظة لحركة الترجمة التي أخذت وضعاً رسمياً بالغ التنظيم والدقة ، واستكملت أجهزتها من الخبراء والمترجمين والمراجعين والخطاطين والنساخين . ولم تدخر الدولة وسعاً في التماس كنوز المعرفة القديمة من مظانها . فنقرأ

---

(١) تجد هذا كله بتفصيل ، في كتب : المغرب للجواليقي ، وشفاء الغليل للخفاجي ، والباب التاسع عشر من ( المزهري ) للسيوطي .

في تاريخ عصر الرشيد أنه ألف هيئة علمية بإشراف « ابن ماسويه » مهمتها تقدير التعويضات التي تدفعها الدول المهزومة من ذخائر كتبها . ونظم « المأمون » محمداً علمياً للترجمة ، فيه أعلام المترجمين والخبراء في الفلسفة والرياضة والطبيعة والفلك والطب وسائر العلوم التي عرفها القدماء <sup>(١)</sup> .

وسايرت العربية هذه الحركة التاريخية ذات الأثر البعيد في الحياة الفكرية واللغوية والحضارية ، فاستوعبت تراث الأمم القديمة لم تكد تدع منه شيئاً ذا بال .

ولا أطيل الوقوف عند الجدل الذي أثير حول ملكية هذا التراث العلمي والفكري . وقيل فيه إن التاريخ لم يعرف للعرب قديماً في الحضارة والعلم <sup>(٢)</sup> ، بل يكفي أن ألقت إلى الحقيقة التاريخية التي تجعل من تراث الشعوب المتعربة تراثاً للأمة العربية المكونة من هذه الشعوب : وأن ماضيها الحضاري هو ماضي الأمة الإسلامية من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب . ثم إن تراث اليونان نفسه . مدين لتراث الشرق القديم حيث قامت حضارات عريقة رائدة ، هي في الواقع التاريخي ميراثنا جميعاً ، نحن الذين عرّفنا التاريخ أمة واحدة من القرن الأول للهجرة .

الذي يعنينا هنا ، هو أن العربية استوعبت ذلك التراث العلمي كله ، وتمثلته ، وأدته إلى الإنسانية في لسانه العربي وروحه الإسلامية : كما أضافت إليه رصيد علماء الدولة الإسلامية الذين تتابعوا على الميدان بعقلية متحررة من الخصومة العتيقة بين العلم والدين . فقدموا جديداً من العلوم الطبيعية والرياضية : ودخلوا التاريخ العلمي رواداً لآفاق لم يستشرف لها من قبلهم . وتلقت المكتبة العربية أوليات الكتب العلمية التي ألفها الرواد فاستطاعت

(١) يمكن أن يعد « الفهرست لابن النديم » مرجعاً قريباً لثمار حركة الترجمة الكبرى .

(٢) عرض الدكتور توفيق الطويل لهذه القضية في الباب الأول من كتابه (العرب والعلم)

أن تؤدي كل مصطلحات العلوم الرياضية في الحساب والجبر والفلك والملاحة . وأن تستوعب المصطلحات العلمية في الطب والطبيعة والكيمياء والجغرافيا والصيدلة والنبات ، في مثل مؤلفات جابر بن حيان وابن يونس والبيروني والحوارزمي والحسن بن الهيثم وابن البيطار والشريف الإدريسي ، وأبي بكر الرازي وابن سينا والزهرأوى والقرغاني والبتاني ونصير الدين الطوسي والإدريسي وأحمد بن ماجد ، ومن لا أحصى من علماء عصر النهضة الإسلامية التي أخذت الدور القيادي للحضارة الإنسانية في العصر الوسيط .

وفي كتاب « كشف الظنون » لحاجي خليفة - ط استانبول ١٩٤٢ - ما يعطيكم فكرة وافية عن مدى الطاقة التي مكنت للعربية من أن تترك مثل ذلك الرصيد الضخم من المؤلفات في شتى فروع العلم والمعرفة والأدب ، مع تقدير أن هذا الذي في الكتاب ، هو ما بقي لنا إلى منتصف القرن الحادي عشر الهجري من ذخائر تراثنا ، بعد أن لقي أكثره مصيره الفاجع في حروب الصليبيين وغزو التتار ، وفي الصراع السياسي والديني والمذهبي الذي ألقى بكنوز المكتبة العربية والإسلامية وقوداً لنار الحقد والتعصب والجهل . . .

\* \* \*

ومن الخطأ الفاحش ، أن يُردَّ علماء الأقطار الإسلامية إلى أصولهم البعيدة التي كانت شعوبهم تنتمي إليها قبل الإسلام ، أو إلى سلالاتهم الأولى من عهد سام وحام ويافث ! وهي دعوى خاطئة تسللت إلى فكرنا المعاصر من الغرب المستعمر ، كما تسللت إليه قبلها فكرة السامية التي ألقى اليهود بذرتها في العصور الوسطى . فنذ حط الغربيون أعينهم على بلادنا راحت مطابع الاستعمار من القرن الماضي تخرج مؤلفات لسلخ علماء الدولة الإسلامية من قوميتهم العربية الجامعة ، وردهم إلى أصول قديمة فارسية أو يونانية أو هندية أو مغربية ، وهي الأصول التي قرر التاريخ أن عناصرها ذابت جميعاً في شخصية واحدة وقومية مشتركة للأمة الإسلامية .

وفي أقصى الطرف المقابل ، وقف آخرون يخلعون عن الحضارة الإسلامية صفتها الحقيقية ويردونها إلى العربية<sup>(١)</sup>.

والحق التاريخي أن هذه الحضارة العلمية كانت إسلامية شاركت فيها كل شعوب الدولة ، واستطاعت اللغة العربية أن تستوعبها وتؤديها باقتدار .

والمسألة هنا لا تقف عند الثراء اللغوي ، بل تمتد أبعادها إلى الفكر والثقافة والحضارة ، وقد اتسعت العربية لهذه الآفاق المترامية ، وتلقت من الأقطار الإسلامية ثماراً خصبة شارك فيها العلماء من مشرق ومغرب .

وما كان يمكن أن تنهض بكل هذا لولا مرونة طبيعية فيها استجابت بها للحياة ، وحيوية سخية حمتها من الجحود وأعانتها على القيام بدورها الجليل ، فلم تتحرج من إضافة معربات جديدة واقتباس أساليب محدثة وتحقيق الوجود اللغوي لشعوب أقطارها وتفاوتت بيئاتها وتناعت أصولها البعيدة .

وعلى المدى الطويل ، ما بين العصر الجاهلي والعصر الوسيط ، جدد على العربية ما جد من مقتضيات التطور وسير الزمان ، وهُجرت ألفاظ وصيغ من صميم الفصحى لم تقبلها الحياة ، واستُحدثت دلالات جديدة لألفاظ من الفصحى دخلت من الباب الواسع للمجاز . وتأثرت الأساليب في التعبير والبيان بالمناخ المعنوي والمادى ، على اختلاف الزمان والمكان ، واستُحدث الأسلوب العلمي والفلسفي إلى جانب الأسلوب الفقهي والأدبي .

\* \* \*

وعلى ذلك المدى الطويل أيضاً ، كان علماء اللغة ساهرين على حراستها يشدون في رقابتهم على الأقلام والألسن . وإذا كان العصر الأموي قد شهد نوعاً من هذه الرقابة على الشعراء المولدين من العرب ، فإن الحرق اتسع

(١) د . توفيق الطويل : « العرب والعلم » ص ٢٠ : ٢٥ .

على الراقع بعد أن قويت المخالطة اللغوية وصارت العربيةُ اللسانَ القوي للأقطار المتعربة ، دولة وشعباً . ولم يسلم خاصة اللغويين أنفسهم ، من أعلام الطبقات الأولى ، من عثرة لسان أو زلة قلم<sup>(١)</sup> .

ولم يدعُ هذا إلى اليأس من الرقابة أو التخفيف منها ، بل لعلها زادت حدة وصرامة مع تدفق مجرى الحياة اللغوية . حتى صار الأمر إلى خصومة حادة بين حراس الفصحى وبين المؤلفين والأدباء .

ومن عصر التدوين بدأت المكتبة العربية تتلقى مؤلفات في مآخذ علماء اللغة ، على أقلام الخاصة والسنتهم .

وكتاب « الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء » للمرزباني ، يتبع هذه المآخذ على ألسنة الشعراء وهم من خاصة أصحاب فن القول ، لا يقف عند المولدين منهم ، وقد سبقت الإشارة إليهم ، بل يمضي مع الشعراء المحدثين من بشار بن برد إلى ابن الرومي .

والمرزباني توفي في النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة ( ٣٨٤ هـ ) والعربية ما تزال في أوج نهضتها ، والدولة الإسلامية لم تدخل بعد في عصر الضعف والهبوط .

وفي تراثنا ، من كتب الرقابة على الخاصة من المؤلفين ، رواة ومحدثين وأدباء :

« تهذيب اللغة » لأبي منصور الأزهري .

« تهذيب الأسماء واللغات » ليحيى النوى .

« إصلاح المنطق » لأبي يوسف يعقوب بن السكيت .

« إصلاح غلط المحدثين » لأبي سليمان الخطابي .

« تصحيح المحدثين » و« شرح ما يقع فيه التصحيف والتجريف »

لأبي أحمد العسكري .

« تصحيح التصحيف وتحرير التحريف » لصالح الدين الصفدي .

( ١ ) اقرأ مثلاً من ذلك ، ترجمة الكسائي في ( طبقات المفسرين للسيوطي ) ومشهد المحاكة

اللغوية لأبي علي الفارسي في المحشر ، برسالة الففران - ص ٢٥٤ - ط ٥ ذخائر العرب .

« التنبيه على حدوث التصحيف » حمزة بن الحسن الأصفهاني .

« التنبيهات على أغاليط الرواة » لعلي بن حمزة البصري .

« التنبيه على أوهام أبي علي القالي في أماليه » لأبي عبيد البكري .

« درة الغواص في أوهام الخواص » للقاسم بن علي الحريري .

« تثقيف اللسان » لابن مكى الصقلی - من لغويي القرن الخامس للهجرة ،

ت ٥٠١ هـ - ومن أبوابه : "باب ما خالفت فيه الخاصة العامة وجميعهم على غلط" وأبواب في لحن الخاصة ، منها : "باب غلط قراءة القرآن ، وأهل الحديث والفقهاء ، وأهل الوثائق ، والطب ، والسماع" (١) .

والأمر مع ذلك ، يفوت الاستقصاء : فقاموس الفيروزابادي عليه حاشية للشيخ نصر الموريني ، تصحيحاً واستداركاً .

وابن سيده في ( المحكم ) لا يكاد يدع مادة تمضي دون تتبع أغلاط اللغويين فيها وقد فهم بالجهل والغفلة . وكتب الشروح والخواشي النحوية مليئة بالطعن والتجريح . وكتب المفسرين اللغويين والبلاغيين - كالبحر المحيط لأبي حيان ، والتفسير الكبير للفخر الرازي - تحمل آثار الخلاف الحاد بينهم ، يخطئ بعضهم بعضاً ويرد بعضهم على بعض .

وكتب المدارس النحوية والبلاغية ، تكاد تقوم على الجدل بينهم في أوجه الخلاف ؛ وكتب النقد الأدبي ، تضع في ميزان الترجيح بين الكتاب والشعراء ما أخذ عليهم من سقطات لغوية ، وخروج على سنن الفصحاء في الأساليب !

ويكفي لبيان صرامة هذه الرقابة اللغوية ، من حراس الفصحى في تتبع عثرات الألسنة وسقطات الأقلام ؛ أن نجد من اللغويين أنفسهم من

(١) من باب ٣٥ : ٤٠ في طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٩٥٦ تحقيق

تصدوا للرد عليهم ، وألفوا كتباً في تصحيح ما عدوه خطأ ، أو التماس وجه للضواب فيه .

فكتاب الحريري ( درة الغواص في أوهام الخواص ) رد عليه ابن الحشاش وابن برى ، وألف « الشهاب الخفاجي » - وهو من معاصري الحريري ، ت ٥١٦ هـ - كتاب ( شرح درة الغواص ) <sup>(١)</sup> لبيان أوهام الحريري في أوهام الخواص !

ثم جاء العلامة « الألويسي » ، فأخذ في كتابه ( كشف الطرة عن الدرة ) موقفاً وسطاً بين الحريري والشهاب الخفاجي : أقر من درة الغواص بعض أوهام الخواص ، وسلم ببعض ما رده الخفاجي منها في شرح الدرة ..

وما ذكره « ابن مكى الصقلي » في ( تثقيف اللسان ) من أغلاط الخواص ، رد عليه « ابن هشام اللخمي » ، - وهو قريب من عصره ، ت ٥٧٧ هـ - في كتابه ( المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان ) <sup>(٢)</sup> .

ونوشك أن نقول إن مدار أكثر الخلاف بينهم ، كان على القواعد التي وضعها النحاة أكثر مما كان على سنن الفصحى ذاتها ، كما يبدو بوضوح في كتاب ( الإنصاف في مسائل الخلاف ) لابن الأنباري و ( الرد على النحاة ) لابن مضاء القرطبي .

\* \* \*

وما من شك في أن تشدد اللغويين في رقابتهم ، كان ضرورياً لكبح التهاون في الفصحى أو الخروج على سننها ، وقد كانوا يمثلون التيار المحافظ الذي لم يكن منه بُدٌّ لكي يحمي أصالة العربية .

في الوقت الذي مضت اللغة فيه تسابير الزمن وتستجيب لتجدد الحياة واتساع آفاقها ، كي تبقى ولا تموت .

(١) ط الجوائب ، سنة ١٢٩٩ هـ .

(٢) مخطوط بمكتبة الإسكوريال ، ومنه بمصر نسختان مصورتان بعنوان ( الرد على كتاب

لحن العامة للزيدي ، وتثقيف اللسان ) .

وما كان يبدو من صدام بين التيارين ، هو الذى حفظ التوازن لهذه العربية الفصحى التى حققت وجودها اللغوى متصلة بأصيلها النقى العريق ، ومتجددة مع الحياة التى لا تسمح بالبقاء لما لا يصلح للبقاء .

\* \* \*

ومن ناحية أخرى . أخذت لغة الحياة والتعامل حريتها فى الحركة والتوسع ، فتخلت عن كثير من قيود الإعراب مستغنية عنها بنسق التركيب ودلالة السياق . وطوعت الصيغ لمواجهة عوامل صوتية جبرية فرضتها طبيعة الأجهزة الصوتية لشعوب تفاوتت مسالكها اللغوية وميراثها فى الأداء . مع اتصالها فى الوقت نفسه بالفصحى العليا لغة القرآن الكريم . ومن ثم أتيح للعربية هذا الانتشار الواسع وطاعت بها ألسنة الشعوب المتعربة مستغنية عن الدرس والتلقين .

فلنُلْقِ على العربية ولهجاتها الإقليمية نظرة متأنية تزيد القضية وضوحاً وبياناً .



## العربية ولهجاتها الإقليمية

أخذت الشعوب المتعربة لسان عربيتها عن  
القبائل العربية المختلفة التي خالطتها ، وكان للعوامل  
الإقليمية الخاصة أثرها في كل اللهجات الشعبية  
المحلية .

لكنها ظلت مع ذلك تتصل بالفصحى  
العليا في القرآن الكريم الذي حفظ لحماهير  
الشعب سليقتها اللغوية ، وأرهف ذوقها ببيانه  
المعجز .

من أين أخذت الشعوب المتعربة لغتها الجديدة ، في البوادي والحضر والريف والجبال ؟

الطبقات المتعلمة ، هي التي التقت في الفصحى لغة دراسة وتأليف ، أما عامة الشعوب المتعربة فأخذت اللغة عن القبائل العربية التي نزحت إلى الأقطار المفتوحة في هجرات جماعية ، واستقرت فيها وخالطت أهلها وامتزجت بهم . ولم يكن استقرار الهجرات العربية في مواطنها الجديدة يمضي في عشوائية مرتجلة ، بل كان يخضع لنظام دقيق يحدد لكل جماعة خططها حيث تنزل وتقيم ، كما كان يحدد للكتائب المراقبة منازل ارتباعها داخل البلاد .

والتوزيع والتخطيط ، قاما أساساً على نظام القبيلة ، وهو المبدأ الذي استقر عليه الوضع من بداية الفتح . في مصر مثلاً نقرأ في ( النجوم الزاهرة )<sup>(١)</sup> أن عمرو بن العاص لما بنى القسطنطينية تجمع أبناء القبائل - كل قبيلة على حدة - وراحت تتنافس على اختيار مواضعها في المدينة الجديدة : فبادر « عمرو » وعين أربعة من كبار الصحابة ، من قبائل مختلفة ، مشرفين على عملية توزيع القبائل على منازلها « فكانوا هم الذين أنزلوا الناس وفصلوا بين القبائل » .

وكذلك في مرتبة الجنود المراقبة ، كان الجنود من كل قبيلة يخرجون في الربيع إلى منازل معينة جددت لهم ، على ما ذكر « ابن عبد الحكم » في ( فتوح مصر )<sup>(٢)</sup> . ثم إن القبائل كانت تتنافس على بناء مساجد لها ، إلى جانب المسجد الجامع . وفي ( خطط المقرئ ) أن عمر بن الخطاب لما افتتح البلدان كتب إلى ولاية البصرة والكوفة ومصر ، يأمر كلا منهم « أن يتخذ مسجداً للجماعة ، وتتخذ القبائل مساجداً ، فإذا كان يوم الجمعة انضموا إلى مسجد الجماعة » . وكان لكل قبيلة عريفها ، يشرف على أمورها العامة . ونقرأ في كتاب ( القضاة

(١) لأبي المحاسن ، ابن تفرى برزى : ٦٥/١ ط دار الكتب المصرية .

(٢) ذكر مرتبة الجنود - ص ١٣٩ .

والولة، للكندى ) أن القاضي عبد الرحمن بن معاوية بن خديج - ت ٨٦هـ - جعل أموال اليتامى على أيدي عرفاء القبائل ، وجعلهم مسئولين عنها .  
وليس ههنا مجال الحديث المفصل عن هذا الوضع وآثاره السياسية والاجتماعية (١) ، وإنما الذى يعنينا هو أن ندرك أثر هذا الوضع على حركة التعرب ، من حيث أخذت الشعوب المتعربة لسان عربيّتها من مئات القبائل الموزعة على الأقطار الإسلامية . والقبائل قد هاجرت بلغاتها إلى منازلها الجديدة فكان أن اختلفت اللهجات المحلية للمتعرّبين باختلاف لغات القبائل التى نزلت بينهم وأصهرت إليهم وامتزجت بهم .

وأكثر ما بين لهجات العربية من اختلاف ، يرجع أصلاً إلى اختلاف لهجات القبائل ، ثم كانت هناك عوامل إقليمية لا يمكن تجاهلها ، تركت آثارها فى لهجات الشعوب المتعربة . على النطاق الواسع من قلب الشرق الآسيوى إلى أقصى المغرب الإفريقى والأندلس ، فأخذت حريتها فى التعبير بلسانها العربى على سجيّتها دون أن تلتزم قيود الفصحى فى الإعراب والاشتقاق والتصريف . وكل هذه اللهجات تطور مستحدثت تعربت فيه ألسنة العامة بقدر ما واثتها طبيعتها وأسعفتها حناجرها ، وتطلبت حياتها .

غير أنه لا ينبغي أن يغيب عن بالنا ، أنه بقدر ما كانت هناك عوامل إقليمية تختلف بها لهجات الشعوب العربية ، كان هناك عامل موحد مع كل هاتيك المؤثرات المحلية ، يحقق نوعاً من الاتصال بين الفصحى ولهجاتها من ناحية ، وبين اللهجات المختلفة ، بعضها ببعض ، من ناحية أخرى :

كان هناك القرآن الكريم كتاب المسلمين جميعاً ، على اختلاف لهجاتهم وأقاليصهم وتفاوت بيئاتهم المادية والمعنوية ، يتلونه فى صلواتهم ، ويسمعونه يتلى عليهم فى المساجد والبيوت ، فى الحواضر والنجوع البوادية وقرى الريف والجبال ، فيلتقون فيه على الفصحى فى أنقى أصالتها وأعلى بيانها .

( ١ ) تقرأ هذا بتفصيل فى كتاب (القبائل العربية فى مصر) للدكتور عبد الله خورشيد البرى .

وما من أثر إقليمي استطاع أن يعطل نفوذ هذا الكتاب الجامع الموحد ،  
أو يحول دون اتصال لهجة محلية ، مهما تكن عزلتها . بكتاب العربية الأكبر .

لا يقتصر الأمر في هذا الاتصال على الألفاظ الدينية التي دخلت  
في كل اللهجات الشعبية : وإنما يمتد إلى إلف المتعربين للغة القرآن لطول  
ما يتلونه أو يتلى عليهم ، بحيث صار في استطاعة أي متعرب : من العراق  
إلى المغرب : أن يسمع اللغة الفصحى في المحافل والمنابر والمواسم الدينية .  
فلا يحس غربة عنها أو جفوة لها .

والأمر هنا أيضاً لا يقتصر على المتعلمين ممن تفصحوا بالعربية ، بل  
يتجاوزهم إلى عامة الأمة ، في جماهير الأميين الذي لم تنقطع صلتهم قط بالفصحى  
العليا . القرآن الكريم : قمة الفصحى ومعجزة البيان .

وإذا كان اللغويون قد حاولوا تتبع ما في عاميات العربية من لحن ، كما فعل  
الكسائي : وأبو بكر الزبيدي في ( لحن العامة ) ، وابن مكى الصقل في بعض  
أبواب من كتابه ( تثقيف اللسان ) : فالمحاولة في ذاتها تشهد بأن عاميات  
العربية كانت مرجوة لديهم لأن تخضع للرقابة فلا تخرج على سنن الفصحى<sup>(١)</sup> .

والذي سبقت الإشارة إليه من مآخذ علماء اللغة على الخواص ، يجب  
أن يوضع في التقدير حين تلقانا كتب القدامى في لحن العامة .

ولم يخل الميدان كذلك من محاولات للرد على اللغويين فيما عدوه من  
أغلاط العامة وأوهامهم ، كالذي في كتاب ابن هشام اللخمي ( الرد على  
الزبيدي في لحن العوام ) وكتاب ( المدخل إلى تقويم اللسان ) في الرد على  
ابن مكى الصقل . وابن مكى نفسه : قد ساق في كتابه أبواباً في لحن العامة  
والخاصة ، كما عقد أبواباً أخرى لافتة إلى :

” ما تنكره الخاصة على العامة ، وليس بمنكر “ .

( ١ ) نشر الأستاذ المحقق حسن حسني عبد الوهاب ، عام ١٩٥٣ رسالة لمؤلف تونسي مجهول

من القرن التاسع الهجري ، عنوانها : ( الجمانة في إزالة الرطانة ) المعهد الفرنسي بالقاهرة .

” ما خالفت فيه العامةُ الخاصةَ ، وجميعهم على غلطٍ “ .

” ما جاء فيه لغتان استعمل العامة أفصحهما “ .

” ما العامة فيه على الصواب ، والخاصة على الخطأ “ .

كما ظهرت محاولات لرد العاميات إلى أصولٍ من اللهجات العربية ، أذكر منها في لغة مصر مثلاً :

( رفع الإصر عن كلام أهل مصر ) ليوسف المغربي . وقد اختصره

ابن أبي السرور الصديق الشافعي - ت ١٠٨٧ هـ - في كتابه :

( القول المقتضب فيما وافق لغة أهل مصر من لغات العرب )<sup>(١)</sup> .

وتابع المحاولةَ ، في الألفاظ والبلاغة والأمثال : الأستاذ سليمان محمد

سليمان في كتابه ( العامية في ثياب الفصحى )<sup>(٢)</sup> الذي يقدم أدلة من الشواهد

والنصوص ، على أن كثيراً مما يبدو لنا من أخطاء العامية المصرية ، يرجع

في الغالب إلى اختلاف فصحي قريش عن لغات القبائل العربية التي أخذ

منها المصريون في مرحلة التعرب ، لسان عريبتهم .

كما نجد فيما قدمه « ابن مكى الصقلي » مما يخطئ فيه الخاصةُ ، والعاميةُ على

صواب ، شاهداً على أن جماهير العامة سَلِمَتْ لهم إلى حد ما ، سليقتهم اللغوية

بفضل اتصالهم بالقرآن الكريم ، وإن لم يأخذوا العربية تلقيناً وصنعة ،

ويبدو من دراسة اللهجات المحلية للعربية ، أنها فيما مارست من حرية

التطويع والتصرف ، لم تُترك لقوضى عشوائية . بل كانت هذه اللهجات

من حيث تدري أو لا تدري ، حريصة بقدر الإمكان على ألا تخرج عن

العربية الأم ، وقد وجدت فرصتها في اختلاف لهجات القبائل العربية الوافدة

إليها ، فمارست نوعاً من الاختيار التلقائي لما يناسبها من تلك اللهجات .

\*\*\*

( ١ ) نشرته وزارة الثقافة المصرية في سلسلة ( تراثنا ) تحقيق السيد إبراهيم سالم .

( ٢ ) مطبعة الفكرة بالقاهرة ، ١٩٣٩ .

خلاصة ما ألفت إليه في هذه المحاضرة عن العربية في أقطارها الجديدة .  
هو أن الشعوب المتعربة أخذت لسان عربيّتها من لغات القبائل المختلفة  
التي خالطتها ، وكان للعوامل الإقليمية الخاصة أثرها في كل لهجة من  
اللهجات المحلية ، لكن القرآن الكريم كان يجمع هذا الشتات المتفرق عند  
لغته العليا التي مكنت للفصحى من أسماع هؤلاء المتعربين وألسنتهم ، وأعظمهم  
العربية سليقة لغوية مرهفة الحس .

ولم تحل اللهجات الشعبية دون فهم العامة لما يسمعون من نصوص الفصحى  
فالجماهير التي تصلى الجمعة في المساجد الإسلامية على الساحة الكبرى ، كانت  
تفهم خطب الأئمة والوعاظ دون شرح ، وقادة الجيوش في المعارك الإسلامية  
كانوا يخطبون في جنودهم باللغة الفصحى : وشعراء الحروب الصليبية وخطباؤها ،  
ألهبوا وجدان الجماهير بقصائدهم وخطبهم بالفصحى ؛ ودعاة المذاهب والفرق  
كانوا يتصلون مباشرة بالعامة : ويؤثرون فيهم بالكلمة ، وما كانوا يتكلمون إلا  
باللغة العربية المبسطة .

• • •

ومهما تختلف اللهجات المحلية ، فقد بقيت العربية الفصحى اللغة العالية  
المشتركة . وقد كانت هناك رقابة شديدة صارمة لحمايتها : لكنها لم تتوقف  
لحظة عن الحركة والنمو في عصور نهضتها ، ولم تجمد عند قديمها معاندة  
للتطور ، بل استجابت لدواعي الحياة فكانت لسان الأمة في الدولة الإسلامية  
الكبرى من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب . ولغة فكرها الحى الناضج  
وكتاب علومها الأصيلة والمستحدثة ، وأداة اتصالها بقديم التراث الإنساني .  
كما كانت أداة اتصال الغرب بالحضارة الإسلامية التي استوعبت ثمار العلوم  
والمعارف من أقدم العصور إلى فجر عصر النهضة والإحياء . ولو صح ما يقال  
عن جمودها ، لاضمحلت وماتت بحكم قوانين الحياة وسنن الاجتماع اللغوي .

## الباب الثاني

### لغتنا ومشكلاتها في العصر الحاضر

- العامية والفصحى
- الغزو اللغوي ومعركة التعريب
- العربية وعلوم العصر
- تعليم العربية ورأى في أزمنا اللغوية

## العامية والفصحى

وجود لغة عليا للفكر والأدب . مع  
لهجات محلية للتعامل ، ظاهرة طبيعية عرفها  
العربية من قديمها الجاهلى ، وتعرفها الدنيا  
فى سائر اللغات الحية .

لكن الاستعمار استغل هذه الظاهرة الطبيعية  
ليحارب الفصحى بلهجاتها الشعبية تمزيقاً  
لوحدة اللغة والفكرية والمزاجية ، فراجت  
دعاوى تنهم الفصحى بالعقم والبداوة وتلقى  
عليها مسئولية تخلفنا ، وتدعو للعامية فترغم لها  
القدرة على الوفاء بحاجات وجودنا اللغوى الحديث ،  
وترى فيها المفتاح السحري لتقدمنا العلمى  
والحضارى ! والوسيلة الميسرة لتثقيف الجماهير  
وتعليم الأميين !



أطلت عليكم في متابعة سير الزمن بلغتنا العربية من قديمها الجاهلي إلى عصر الحضارة الإسلامية ، وآن لنا أن ننظر في حياتنا اللغوية اليوم وما تواجه من أزمات ومشكلات .

وعصرنا وريث عصور مظلمة من التخلف ، تدهورت فيها حياتنا العامة حضارياً وسياسياً واجتماعياً وفكرياً ، فأسلمت الأمة ، إلى محنة الاستعمار . وغشها ليل طويل ريثما استجمعت قوتها وخاضت معركتها لتحطيم الأغلال . وما كان يمكن أن تنجو لغتنا مما أصاب الحياة العامة من تخلف وانحطاط .

ثم لما استردت شعوب الوطن العربي استقلالها في النصف الثاني من هذا القرن العشرين ، بدأت تواجه مشكلات وجودها اللغوي فيما تواجه من مخلفات ليل المحنة .

• • •

منها ، مشكلة الفصحى والعامية التي ارتبطت بالوجود الاستعماري في وطننا العربي ، مع أنها في أصلها ظاهرة طبيعية ، تعرفها الحياة في وجود لغة عليا للفكر والأدب والثقافة ، ولهجات محليات التعامل .

وقد عرفت العربية هذه الظاهرة ، من قديمها البعيد حين كانت في مهدها بالجزيرة لم تخرج منه . وظلت اللهجات المحلية تعيش إلى جانب الفصحى العالية المشتركة في العصر الإسلامي الأول قبل تعرب الشعوب الإسلامية . ومهما يكن من اقتدار العربية الرسمية على تطويع ألسنة هذه الشعوب ، فإن اللهجات المحلية اتصلت بلغات القبائل التي خالطتها ، وخضعت لمؤثرات صوتية وعوامل إقليمية وميراث لغوي ، يختلف في قطر عن قطر ، وفي بيئة عن أخرى من القطر الواحد ، وعاشت هذه اللهجات على الزمن الطويل لغة تعامل شعبي وتفاهم محلي ، لم تسجُرْ على الفصحى التي بقيت لغة الأمة ديناً ودولة ، ومناطق وحدتها الذوقية والوجدانية ، واللغة العليا للتعليم والتأليف والثقافة والحضارة.

ومهما يكن من تفاوت اللهجات المحلية وحريتها في الخروج على قيود الفصحى وقواعد اللغويين والنحاة ، فإنها لم تتعد أن تكون لهجات شعبية للعربية ، وليس من المتصور أن تُحمل أى لهجة منها على لغة لها قديمة قبل العربية . وكل هذه اللهجات تطور مستحدث تعربت فيه ألسنة العامة بقدر ما أسعفتها حناجرها وتطلبت حياتها وحكمت ظروفها . وقد تناءت بهذا التعرب عن لغاتها القديمة المهجورة . فحين نقول العامية المصرية ، أو الشامية والعراقية ، أو السودانية أو المغربية ، فليست إلا العربية على ألسنة أهل هذه الأقطار .

ومهما يكن من بقايا المصرية القديمة في عربية أهل مصر<sup>(١)</sup> ، أو بقايا البربرية في لهجة المغاربة<sup>(٢)</sup> ، فإن هذه البقايا لا تنفى انتماء اللهجتين إلى العربية ، إلا عند من يتصورون إمكان فهم الشعب المصرى أو المغربى ، للغات أسلافه قبل الفتح والتعرب !

وسبق القول بأن اللهجات العامية لم تتحل دون فهم عامة الجماهير لفصحى العربية ، لا فى كتابهم الدينى فحسب ، ولكن فيما يسمعون كذلك من قصائد وخطب ومواعظ وأناشيد .

وقد يُظن أن أجهزة الإعلام الحديثة هى التى وصلت جماهير العامية بالعربية الفصحى ؛ ولكن خطأ هذا التصور يبدو بوضوح إذا ذكرنا أن الفصحى كانت جِدَّ قريبة إلى الجماهير من الأميين ، قبل اختراع أجهزة الإذاعة ووسائل الإعلام المحدثه . فحتى القرن الماضى كانت منشورات المهدي مثلا بلغتها الفصحى ، تلهب حماس الجماهير فى الشعب السودانى ، ويتفاعل بها أبناء البلد وسكان البوادي على السواء . ولم يكن المذيع قد اخترع ، حين كان خطباء الثورة العربية يقودون الشعب للنضال عن حريته ، وكانت الجماهير تحتشد لسماع خطاب مصطفى كامل وتتجاوب بها من شمال

(١) راجع كتاب « قواعد اللغة المصرية » للدكتور صبحى .

(٢) اقرأ مثلاً ، كتاب : « ألفاظ مغربية ورحلة إلى المغرب » للشيخ محمد رضا الشيبى .

الدلتا إلى أعلى الصعيد . وسعد زغلول - خطيب عصره - لم يكن جمهوره من المثقفين وحدهم ، بل كان أكثرهم من الأميين . وكذلك الأمر في خطب جمعية علماء الإسلام بالجزائر وأناشيد شعرائها ، كانت تجد صداها المثير لحماسة الشعب الجزائري الباسل ، في الريف والبادي والجبال .

لأن عامياتنا لا تعدو أن تكون لهجات عربية ، تتفاوت وتختلف ، وتظل أبداً متصلة بالفصحى العليا في القرآن الكريم الذي حفظ سليقتها اللغوية ، وفي الخطب المنبرية والسياسية ، وبالمحافل الدينية والأعياد الإسلامية . وفيما يشدو به أئمة الطرق من أناشيد صوفية ، وفي حماسيات للخطباء والشعراء قادت حشود كتابنا في المعارك التي عرفها تاريخنا الطويل .

• • •

لم تكن ظاهرة الثنائية اللغوية إذن طارئة محدثة ، بل هي ظاهرة طبيعية في حياتنا اللغوية منذ كانت . فقيم إذن ارتبطت الظاهرة بالوجود الاستعماري في المنطقة ؟

ارتبطت به على وجه يجعل من العاميات سلاحاً ضد الفصحى ، ويقف بهما في موقف الخصومة والعداء .

لقد استغل الاستعمار هذه الظاهرة الطبيعية ليحارب الفصحى يلهجتها المتعددة . ووجد في اختلاف اللهجات الإقليمية ذريعة للقضاء على اللغة الواحدة المشتركة التي تربط المشرق والمغرب بأواصر التفاهم والتجاوب ، وتجعل من أقطار وطننا الكبير وحدة فكرية ومزاجية ، ينتقل بها الكتاب العربي من ساحل الخليج ووادي الرافدين إلى ساحل الأطلسي . ومن أعلى الفرات في قلب آسيا إلى بوادي دارفور وكردفان في قلب إفريقية ، رسول فكر وثقافة وأدب ، وآصرة قربي ووحدة ، في الفكر والمزاج .

• • •

وسارت خطة العداء للفصحى في اتجاهين :

بدأت حملات مسعورة ، تكشف من ناحية عن جمود الفصحى وتعقدها  
وبداوتها وتخلفها عن حاجة العصر ، وتلقى عليها مسئولية ما كان من تخلفنا  
وانحطاطنا .

وتدعو من ناحية أخرى للعامية ، وتضيف إليها مزايا من الفصاحة  
والسهولة والمرونة ، والقدرة على التعبير عن مطالب الحياة العصرية ! وترى  
فيها الوسيلة لتثقيف جماهير الشعب وتعليم الأميين !

\* \* \*

بدأت الحملة على العربية إثر ثلاثة قرون من الحكم التركي ، تدهورت  
فيها الحياة العامة وانحدرت اللغة إلى غاية السقم والضعف ، مجهدة بصراعها  
مع التركية التي فرضها العثمانيون لغة رسمية للدواوين والتعليم ، فلم يبق لهذه  
العربية المستضعفة سوى « الأزهر » في مصر ، و « الزيتونة » في تونس ،  
أما في المغرب الأقصى الذي لم يخضع للحكم العثماني ، فكانت « جامعة القرويين »  
المنار لعلوم العربية والإسلام .

وفيما كان الغرب يتربص بالرجل المريض الموت ليتقاسم تركته ،  
بدأت بذور القضاء على اللغة العربية تلقى في أرضنا ، مسخاً للشخصية القومية  
وعزلاً للأمة عن ماضي تاريخها وتراثها ، وتمزيقاً لوحدتنا اللسانية التي  
تربطنا على تنائي الديار واختلاف الأقطار .

وكان الاتجاه الاستعماري ، إلى إحلال لغاته محل العربية ، فإن تعذر  
هذا فلتكن اللهجات العامية هي السلاح الذي يقضي على عريبتنا الواحدة .

ويبدو أن الجزائر ، بحكم سبق الاستعمار إليها ، كانت حقل التجربة  
للغزو اللغوي في قلب المغرب ، وأن مصر ، في قلب المشرق ، كانت ميداناً  
لتجربة تمزيق الوحدة اللغوية ، بإحلال العامية مكان الفصحى المشتركة .

ونرجى الآن الحديث عن التجربة الاستعمارية لفرنسة اللسان الجزائري  
وننظر في قضية العامية والفصحى بمصر ، من حيث يمكن أن تتكرر  
فصولها بصورة أو بأخرى في غيرها من أقطار المشرق .

بدأت الدعوة إلى نبذ الفصحى تتسلل إلى أفق مصر في عهد أزمته بالتدخل الأجنبي في عصر إسماعيل .

ففي عام ١٨٨٠ على التحديد ، وصندوقُ الدَّيْنِ يدفع بمصر إلى براثن الاحتلال العسكري السافر ، نشر « الدكتور ولهم سبيتا » مدير دار الكتب المصرية « كتاباً باللغة الألمانية في ( قواعد العربية العامية في مصر ) وقد تنبأ بمصير العربية الفصحى إلى الموت ، كما ماتت اللاتينية . ولعل « سبيتا » لم يتجه إلى خدمة الاستعمار مباشرة ، بل إن من الصعب أن نتصور أن هذا المستشرق الألماني كان يعمل لحساب الاحتلال الإنجليزي الذي مالبت أن جثم على مصر . كل ما في الأمر أن مشكلة الثنائية اللغوية شغلت هذا المستشرق ، وقد اتصل بالفصحى في نصوصها الرسمية والأدبية الهابطة المسفة ، واتصل بالعامية لغة الحياة والأدب الشعبي ، وقارن هذا الوضع بما كان من أمر اللاتينية التي أماتها اللغات الفرعية التي كانت تشبه لهجات محلية لها ، فتصور أن العربية صائرة حتماً إلى مثل هذا المصير ، ووقف إلى جانب العامية التي توقع لها أن تخلف الفصحى ، وفي ظنه أن هذا الوضع المتوقع ، يجدى كثيراً في محاربة الأمية والفقر الثقافي ، وما ينشأ عنهما من انحطاط سياسي وتخلف اجتماعي . وإذ كانت العامية لغةً منطوقة غير مكتوبة ، شغل نفسه بدراسة قواعد العامية كي تأخذ مجالها الحيوى للتعليم والثقافة والأدب ، على أن تُكتب بحروف لاتينية ! وكان عذر « سبيتا » فيما ذهب إليه من إلقاء تبعة انتشار الأمية والتخلف الفكرى والسياسى ، على العربية الفصحى ، وتصوره أن العامية تصلح لأن تكون لغة كتابة تروج بها الثقافة ، أن المرحلة كانت تعرف مؤلفات ومجلات بهذه العامية تلقى رواجاً في جماهير الشعب ، وكُتَّابها لم يكونوا غير مقتدرين على الفصحى ، لكنهم آثروا العامية ليصلوا إلى الجماهير .

من هذه المدونات ، ما كان للفكاهة والإضحاك ، مثل ( هز القحوف في شرح قصيدة أبى شادوف ) للشيخ يوسف الشربيني ، وأزجال الشيخ حسن الآلاتي . ولكن منها كذلك ، ما كان للتوعية والتثقيف ، وقد كان

دخول « عبد الله النديم » هذا الميدان ، لافتاً ومثيراً ، فالنديم من قادة الفكر والرأى وأعلام الكتاب والخطباء ، واستخدامه للعامة في مقالاته السياسية — وهو من رُوّاد اليقظة — شاهد على مدى الحاجة إلى العامة في إيقاظ الوعي الشعبي ، وشاهد في الوقت نفسه على كونها تصلح للكتابة . وقد أصدر النديم مجلته (أبوناظرة) عام ١٨٧٨ ثم (التنكيث والتبكيث) عام ١٨٨١ فلم يهتم أحد بالعداء للنصحي أو العجز عنها ، ولقيت المجلتان رواجاً منقطع النظير ، وغزت مقالات النديم الإصلاحية ، قرى الريف ونجوع الصعيد ، وآزر قادة اليقظة القومية هذا الاتجاه ، وقدروا جدواه على وعى الشعب وثقيف الجماهير . وتعبئة الوجدان الشعبي وإرهاق الضمير العام ، وذلك ما نعرض له بمزيد تفصيل بعد أن نفرغ من نبوءة « سبيتا » وصداها .

\* \* \*

وفي مثل هذا الوضع الذى بدت فيه الحاجة إلى العامة ضرورة قومية لتثقيف العامة ، لا تبدو لى محاولة « سبيتا » — كما بدت للزميلة الدكتور نفوسة زكريا — داخلة في إطار المخطط الاستعماري للقضاء على اللغة القومية<sup>(١)</sup> . وقد كان نشر المحاولة باللغة الألمانية ، يبعدها عن مجال التأثير في المجال الفكرى لمصر .

لكن الاحتلال الإنجليزي لمصر ، وجد في مثل هذه الدعوة بذرة صالحة يمكن أن يتعهدا حتى تثمر ثمرتها المشثومة . وقد كانت الحجج التى ساقها « سبيتا » لتأييد فكرته ، تعطى من يريدون استغلالها ، ذرائع مقنعة لهجر النصحي التى حُمّلت أوزاراً ما صارت إليه الأمة من ضعف وتحلف وانحطاط .

لقد مضت دعوة « سبيتا » دون أن تجد لها صدى في المناخ الشعبى البعيد عن الفكر الأجنبى ، وظل قادة اليقظة على موقفهم من تأييد استخدام

(١) تاريخ الدعوة إلى العامة وآثارها في مصر : الباب الأول ، ط الإسكندرية ١٩٦٩ .

العامة في الصحافة الشعبية لتوعية الجماهير وتثقيفهم ، وظل « عبد الله النديم » يثير الوجدان الشعبي والضمير القومي بمتمالاته الثورية في ( التنكيت والتبكيث ) حتى إذا تمت التعبئة الثورية وجندت قيادة الثورة العربية « عبد الله النديم » ليكون الناطق الصحافي بلسانها ، اقتضى الموقف أن يعدل عن العامة إلى الفصحى ، وصدر قرار رسمي من « أحمد عرابي » بأن تحمل جريدة ( الطائف ) الناطقة بلسان الأمة محل ( جريدة التنكيت والتبكيث ) اعتباراً من عددها التاسع عشر : ١٨٨١/١٠/٢٣ .

في الشهر التالي مباشرة : نوفمبر ١٨٨١ : ظهرت مجلة المقتطف بدعوة إلى كتابة العلوم بالعامة ، لغة الحديث :

والتوقيت لافت ، يربط الدعوة بهذا التحول في لغة الصحافة الرسمية للقيادة الثورية الشعبية ، أكثر مما يربطها — كما رأت الدكتور نفوسة زكريا — بدعوة « سبيتا »<sup>(١)</sup> التي كان قد مضى عليها نحو عامين ، في المكتبة الألمانية .

وبظهور الدعوة في الأفق العربي ، بدأ صراع بين دعاة العامة ، وحماة الشخصية القومية ، لم يلبث أن احتدم في أعقاب الثورة العرابية التي تأمر عليها القصر والاستعمار ، وسيطر الإنجليز على المراكز الحيوية للثقافة والتعليم ، فعزلوها عن اللغة القومية .

وفيما كانت محاولة الغزو اللغوي تأخذ مجراها للتمكين للغة الإنجليزية من اجتياح اللغة العربية ، بدأت الدعوة إلى العامة تأخذ مجراها ، في حياتنا الثقافية ومناخنا الفكري .

لقد صدر القرار الوزاري ، عام ١٨٨٩ ، يقضي بأن تكون لغة التعليم في المدارس المصرية هي اللغة الإنجليزية ، ووجهت كل البعثات التعليمية إلى إنجلترا ، وأغلقت مدرسة الألسن . وفي عام ١٨٩٣ قام المهندس الإنجليزي للري المصري « ويلكوكس » يحاضر في نادي الأزبكية داعياً إلى

( ١ ) عبد الله النديم ، بين العامة والفصحى : ١٣٣ ط الدار القومية ١٩٦٦ .

إحلال العامية محل الفصحى فى الكتابة والتأليف . كان موضوع محاضرتة هذا السؤال المثار : « لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين إلى الآن ؟ » ، وكان جوابه أن العربية الفصحى ، ولا شىء غيرها ، هى التى أماتت قوة الاختراع فىنا ، ولا أمل فى إحيائها إلا إذا اتخذنا العامية لغة كتابة وتأليف .

ومستمعوا المحاضرة عادة : قلة من المثقفين ، وقد تمضى الدعوة مع الريح بعد انصرافهم من نادى الأزبكية ، ومن ثم حرص « ويلكوكس » على أن يسجلها فى العدد الأول من ( مجلة الأزهر ) التى آلت إليه بعد أن تخلى عنها محرراها « إبراهيم مصطفى وحسن رفقى » . وكانا قد تابعا إصدارها لنشر المقالات الأدبية والعلمية ، إلى ديسمبر ١٨٩٢ . فأخذها ويلكوكس ليجعل منها منبراً للدعوة إلى العامية وإماتة الفصحى .

وأعلن أنه يفسح صدر المجلة للعلماء ، على أن يكتبوا بحوثهم باللغة العامية الحية التى يعرفها الشعب ، لا بالفصحى الميتة التى لا يعرفها إلا قلة من المتخصصين . وكان عجباً حقاً ، أن يراد للعامية أن تترك مجالها الحيوى فى الأدب الشعبى وثقافة الجماهير ، إلى بحوث علماء الهندسة والفلك والرياضيات !

وهو منطق لم يسغ العلماء المصريون شذوذه . فوقفوا من ( مجلة الأزهر ) موقفاً أرغمها على الصمت والاحتجاب بعد صدور عشرة أعداد منها فحسب !

لقد أصدر نفر منهم مجلة علمية مضادة للأزهر ، هى ( مجلة المهندس ) لنشر البحوث العلمية والرياضية باللغة الفصحى التى زعم ويلكوكس أنها لا تصلح لغة للعلوم . ونرجى الحديث عن ( المهندس ) إلى مكانه من قضية " الفصحى والعلوم الحديثة " ونتابع الحديث عن مقاومة العلماء المصريين لمجلة الأزهر حيث لى عدد كبير منهم دعوة « ويلكوكس » فأرسلوا بحوثهم لتشر فى مجلة الأزهر ، لكنهم أصروا على كتابتها بالفصحى : تحدياً وإنكاراً لشذوذ إقحام العامية على المجال العلمى . ولم يجد ويلكوكس مفرّاً من الإقرار بالهزيمة فكتب فى العدد العاشر من المجلة ( أكتوبر ١٨٩٣ ) يعلن احتجاجها . بعبارات تنضح بالغيط والسخط :



« ولقد افتتحتُ ”الأزهر“ وأردت أن أشحنه بالمسائل الرياضية المفيدة بعدما وقفت على شدة عوز المصريين لهذه الفنون ، وأن السبب الوحيد في تأخر العلوم إنما هو تأخر لغة التأليف وعدم إقدام المؤلفين على تصنيف كتبهم باللغة الحية المستعملة التي يعلمها و يتكلم بها كل مصرى ، ضناً منهم على أبناء جلدتهم بالمعلومات النافعة . فأخذوا يضعونها في لغة غير مشهورة لا يعلمها إلا القليل ، ولذلك أضحت دائرة هذه العلوم ضيقة وأصبحت شمسها لا تسطع إلا على أفراد يُعدون على الأصابع ، والباقون في ظلمات الجهالة يعمهون .

« فحملني حب نشر العلوم وميلى لتنوير المصريين : أن أسير في هذه المجلة سيراً وطيداً عاماً ، ولذلك افتتحتها بمقالة حرّضت فيها المصريين وخصوصاً المهندسين على وضع أفكارهم في اللغة الحية المستعملة ، رغبة في فائدة العموم وحباً في نشر العلوم ، فأبوا إلا أن يترجموا عن أفكارهم بلغة غير مشهورة ، وأخذوا يرسلون بها الرسائل العديدة بغية رصدها بالجريدة ، فما كان يسعني في ذلك الوقت إلا قبولها والتشكر لهم مؤملاً أنهم ربما يخلعون نعل الخوف ويلبسون رداء الحرية والإقدام ، فيعبرون عن معلوماتهم باللغة الحية . وحيث إنهم استمروا على الطريقة الأولى ولم يهتدوا إلى الطريقة المفيدة العامة ، فلا حاجة للاستمرار في إصدار الجريدة إذ أن الفائدة قاصرة على القليلين الذين يعلمون هذه اللغة التي استولى عليها المؤلفين . . .

« والأزهر سيحجب عن الظهور بعد هذا العدد - أكتوبر ١٨٩٣ - لأن فكرى ، ولا يشترط صحته لدى الآخرين ، أوعز إلى أن هذه العلوم لا يمكن ظهورها وانتشارها إلا إذا عُرضت في اللغة المستعملة ، وهناك يجنى عموم المصريين الفوائد العظيمة ، ولكن أبى الله إلا الاستمرار على ما كان متبعاً قبلاً ، مما له فائدة قليلة قاصرة لا تسوغ لمثل أن يستمر في التحرير ، وأن يداوم على إصدار الجريدة . »

وفي الطرف المقابل ، تصدى « عبد الله النديم » للنضال عن لسان الأمة ، في صحيفة ( الأستاذ ) التي أصدرها في عام ١٨٩٢ ليجاهد بها في المجال القومى بعد

أن وثدت الثورة عسكرياً وسياسياً. كتب في (الأستاذ) يرد على وليم ويلكوكس :  
« إننا نعلم علم اليقين أنه لو ظهر ألفُ داع بل مئات ألوف من دعاة  
أوروبا لاستعمال لغة تميت لغة القرآن ، ما وجدوا آذاناً سامعة » .

وبعد أن تساءل عما عسانا نصنع بكتبنا وتراثنا إذا كتبنا بالعامية ،  
أنحرقها أم نترجمها إلى العامية ؟ وماذا عسانا نصنع بالقرآن ؟ هل نقرأه باللغة  
العامية ، والمسلمون يعتقدون أن تغيير حرف منه كفر ؟ أشار إلى محاولة مجلة  
ويلكوكس فقال :

« أظن أن الأزهر-المجلة - قصد أن يختبر المسلمين ، فاخترع لهم هذا الباب  
ليرى رسوخ قدمهم في حب لغتهم وتنبيههم لأصولهم الدينية ، حتى إذا رأى  
منهم ميلاً لأفكاره واستحساناً لاختراعه ، ذمهم وبكتهم وشنع عليهم في  
مجامع أوروبا ، وقال إنهم قوم لا يعرفون قدر جنسيتهم ولا حق وطنهم ولا فضل  
لغتهم ولا شرف دينهم ، فهم عمل لا لغة لهم ولا دين » .  
واستطرد يقول في سخرية لاذعة وتحذير قاس :

« أما ذمُّه المصريين بعدم قدرتهم على الاختراع وعدم إقدامهم وعدم  
قوتهم الحق ، فأمر تعودنا سماعه من الأوربيين ، ولكن يعز علينا أن نسمع  
مثله من رجل من رجال دولة تريد أن تهذب المصريين وترقيهم إلى المدنية  
وتحب لهم الخير في كل عمل تقدمه لهم أو تدعوهم إليه ! فإن صدور مثل هذا  
الشم منه ربما دلنا على أن ما نسمعه من النصيح والوعظ وهُم ، فنتهم غيره  
بما نهمه به . . . » ثم رجاه « أن يرجع عما يملأ قلوب المصريين بغضاً ،  
فإنه يمثل هذه الأهاجي القبيحة يضيع أتعاب رجاله عشر سنين ، فإنهم  
بدلوا جهدهم في جذب المصريين إليهم ، وصانعوا الفلاح والصانع وداخلوا  
الأعيان والأمراء والوجهاء استجلاباً لقلوبهم ودفعاً للنفور الذي يحدثه سلبُ  
الغير للحقوق ، والتعدي بما لا منفعة فيه . ولم نذكره بذلك تعرضاً منا لأموال  
سياسية ليست من شأن جريدتنا ، وإنما نادينا بلسان جريدة علمية تناظر  
جريدة علمية أخرى » .

والواقع أن العربية كانت في ذلك الحين ، تواجه من خطر الغزو اللغوي من الإنجليزية في المجالين العلمي والتعليمي ، أكثر مما كانت تواجهه من الدعوة إلى العامية التي أقيمت على الميدان العلمي في معركة خاسرة .

لكن عقدة الموقف في الصراع بين دعاة العامية وحماة الفصحى . أن هؤلاء المناضلين عن لسان الأمة ، كانوا يقدرّون الحاجة إلى هذه العامية لتوعية الشعب وحماية وجدانه من الغفلة والتخدير . وتمثل هذه العقدة الباهظة في حيرة « عبد الله النديم » نفسه ، وتردده بين استعمال العامية التي يجارب بها الاستعمار لسان الأمة ، وبين التزامه الفصحى التي ينبغي أن يُحمى لها مجالها الحيوي : لغة ثقافة وتعليم ، ولساناً مشتركاً للأمة العربية على تتابع الأجيال وتعدد الأقطار .

بدأ فخصص باباً للعامية في صحيفة الأستاذ من عددها الأول ( ٢٣ / ٨ / ١٨٩٢ ) شارحاً ضرورة الملجئة إليها ، ومحدداً لها مجالها الذي لا يحل أن تتجاوزه . ثم لما أحس خطر الحملة على الفصحى ، كتب في العدد العاشر من الأستاذ ( ٢٥ / ١٠ / ١٨٩٢ ) محاورة بين عدد من الأميين ، أنطقهم فيها بما تطوع به ألسنتهم من فصيح سهلة ، بعد أن ارتقت مداركهم وراجت فيهم صحف يومية تكتب بفصحى مبسرة . وكانت هذه المحاولة إيذاناً بإغلاق باب العامية في ( الأستاذ ) ، لكن الرأي العام الشعبي عارض هذا الموقف وألح في المطالبة بحق عامة الجماهير في بابهم من صحيفتهم الوطنية ، وشارك الخاصة من الوطنيين في مطالبة النديم بإرجاع باب العامية ، وأيدوا موقفهم بحجج لم يملك النديم إلا أن يعلنها في العدد الحادي عشر ( ١٠ / ١١ / ١٨٩٢ ) ويعلن معها نزوله على رغبة الرأي العام ، وخلاصة ما قالوه :

” أن إغلاق باب العامية سيحرم كثيراً من قراء الأستاذ، من الاستفادة من آرائه الإصلاحية القيمة ، والتي كان لها من النفوذ الشعبي أن العامي كان يشتري الصحيفة ، وهو لا يعرف القراءة ، ويلتمس من يقرأها له “ .

— أن العامية وُجدت بجانب الفصحى من القرن الأول الهجرى ، دون أن تضار الفصحى بوجود العامية .

— أن اختلاف عبارة العلماء والكتاب عن عبارة العامة ، أمر جارٍ مألوف فى كل أمة لها لغة مستقلة .

— أن معلمى العربية أنفسهم : يحتاجون أحياناً إلى شرح دروسهم بعبارة عامة لتقريبها إلى أذهان التلاميذ ، كما أن الفنون الشعبية : كالموايا والزجل والقوما ، تكتب وتقرأ بعربية ملحونة أو بألفاظ عامية ، وقد طال العهد عليها وهى مستعملة متداولة ، ولم تضار بها اللغة الصحيحة . بل إن من العلماء من كتبوا فى الفقه والنحو والتفسير بالزجل ، تسهيلاً للعامة ، ولم يؤثر ذلك فى الفصحى ، لحرمان التعليم والتأليف والكتابة الرسمية على اللغة الصحيحة .

— أن الضرر الذى يُخشى على الفصحى لا يتأتى إلا من طريق نقل العلوم والتعليم فى المدارس ومجامع العلماء ، إلى اللغة العامية . وهذه نقطة لا نصل إليها إلا إذا عاد الكون إلى الهمجية ، وعودته كذلك محالة . فاستعمال العامية فى التعلم والكتب العلمية محال “ .

ولكن الذى بدا له محالاً ، دعا إليه ويلكوكس فى مجلة الأزهر ، فى مطلع عام ١٨٩٣ ، فتصدى له النديم بالرد ، ثم صمم على إغلاق باب العامية فى صحيفة الأستاذ ، وكتب فى العدد الثامن والعشرين ( ٢٨ / ٢ سنة ١٨٩٣ ) ” محاورة بين حنى ونديم “ أصر فيها على إنطاق حنى الأمى ، بالفصحى السهلة . وظل « النديم » على موقفه إلى أن أغلقت ( صحيفة الأستاذ ) بأمر السلطة ، بعد عددها الثانى والأربعين : ١٨٩٣/٦/٣ (١) .

وبعد أربعة أشهر ، أغلق ويلكوكس مجلة الأزهر ، لا بأمر السلطة ، ولكن تحت ضغط المقاومة التى تحدته وأكرهته على الصمت أعواماً جاوزت

( ١ ) للزميلة « الدكتورة نفوسة زكريا » دراسة مفصلة لموقف « عبد الله النديم بين الفصحى

والعامية » تستوعب ما يضيق المجال هنا عن استيعابه .

ربع قرن ، ترك فيها المحاولة للقاضي الإنجليزي « سيلدون ويلمور » الذى نشر فى عام ١٩٠١ كتابه ( العربية المحكية فى مصر ) .

\* \* \*

ويتوارى الأجانب زمناً من ميدان الصراع بين دعاة العامية وحماة الفصحى ، موجهين اهتمامهم إلى التمكين للغة الإنجليزية من مناطق النفوذ والسيطرة على المجال العلمى والتعليمى ، إلى أن عاد « وليم ويلكوكس » إلى ميدان الصراع الأول ، بعد أن غاب عنه نحو ثلاثين عاماً ، فترجم الإنجيل إلى العامية سنة ١٩٢٥ ، ونشر فى عام ١٩٢٦ رسالة بالإنجليزية ادعى فيها أن « سورية ومصر وشمال أفريقية وماطقة ، تتكلم البونية لا العربية ! » ثم ألف كتاباً بالعامية عنوانه ( الأكل والإيمان ) ظهرت منه ثلاث طبعات إلى سنة ١٩٢٩ .

ولست أدري ما إذا كانت عودته إلى محاربة الفصحى بالعامية عن يأس من قهر الإنجليزية للغة العربية التى ظلت لغة الثقافة والصحافة والتأليف والأدب على رغم عزلها عن التعليم والعلوم العصرية ؟ أم كانت تلك العودة إصراراً على موقفه القديم وعجزاً عن التخلي عنه ؟

وأياً ما كان الأمر ، فإن فكرته وجدت دعاء من الكتاب المصريين أنفسهم فترك الأمر لهم ، عن يقين بأنهم يستطيعون أن ينجحوا حيث فشل هو ورفاقه الأجانب فى المعركة اللغوية ، إذ يكفى أن تصدر الدعوة إلى نبذ الفصحى من أجنبي ، ليأخذ الشعب منها موقف الحذر والشك والرفض . . .

\* \* \*

ولعل الفصحى لم تجد من يخاصمها فى الربع الثانى من القرن العشرين ، مثل « الأستاذ سلامة موسى » الذى جند قلمه الطبع وأسلوبه اللين ومنطقه السهل ، للدعوة إلى نبذ الفصحى التى ورثناها من بدو الجاهلية فى عصر الناقة ، ويراد لنا أن نتعامل بها فى عصر الطائرة !

والأستاذ سلامة موسى كاتب مشهور له قراؤه ، وله مدرسته ومريدوه

وتلاميذه ، وليس أجنبيًا غريبًا مثل المهندس ويلكوكس والقاضي ولور ،  
وليس مجهولًا من عامة المثقفين مثل الدكتور سبيتا . وقد ربط دعوته  
إلى هجر الفصحى بدعوته العامة إلى إصلاح المجتمع وتقديم الأمة ، ومن  
هنا كانت مظنة أن تنال من الفصحى ما لم تنله كل الحملات السابقة  
لدعاة العامة .

\* \* \*

١ في مقدمة كتابه ( البلاغة العصرية واللغة العربية ) قرر أن سلوكنا في  
البيت والشارع والحقل والمصنع هو قبل كل شيء سلوك لغوي ، لأن كلمات  
اللغة تقرر لنا الأفكار والانفعالات وتعين لنا السلوك كما لو كانت أوامر .  
« بل نستطيع أن نقول إن سيادة البريطانيين على الهند ، أو المتمدنين على  
المتوحشين ، هي إلى حد ما سيادة لغوية : أي مجموعة خصبة وافية من كلمات  
المعارف والأخلاق تحدث براعة في الفن وتوجيها في السلوك يؤديان إلى السيادة  
وأحياناً إلى العدوان .

« وحين تحرم لغتنا من كلمات الثقافة العصرية تحرم أيضاً الأمة المعيشة  
العصرية . فتحن مازلنا نعيش بكلمات الزراعة ولا نعرف كلمات الصناعة .  
ولذلك فإن عقليتنا عقلية قديمة جامدة متبلدة تنظر إلى الماضي ، حتى إننا  
نؤلف في ترجمة " معاوية بن أبي سفيان " في الوقت الذي يجب أن نؤلف  
في ترجمة عن " هنري فورد " عبرة الصناعة في عصرنا ، أو عن الذرة وعبرتها  
للمستقبل . . .

« وإني أعتقد أن ٩٠ بل ربما ٩٩ في المائة من كتابنا سلفيون . وهذه  
السلفية هي نتيجة لحرمان الأمة من الرقي الصناعي وقصرها على الزراعة  
وعرقلة ، بل عرقلة كل تقدم صناعي حاولته الأمة في السنين الستين الأخيرة ،  
لأن المجتمع الصناعي كان جديراً بأن يحدث مجتمعا مستقبليا ، يكتب مؤلفوه  
بلغه الشعب ، وتتقل اهتماماتهم الذهنية من التأليف عن قدماء العرب إلى  
التأليف عن مشكلاتنا العصرية . . وإني بالطبع لا أغفل هنا عن ارتباط

اللغة بالتقاليد والعقائد ، وأن هذا الارتباط من أسباب الكراهة للتطور اللغوى .  
أعنى أن العقلية الكلاسيكية فى اللغة ، عقلية التقاليد التليدة ، قد أحدثت لنا  
مزاجاً أدبياً اجتماعياً هو النظر إلى الماضى ومحاولة استرداد الأمس ، والتبلد  
والتجمد ، فى الوقت الذى نحتاج فيه إلى أن نشق طريقنا إلى المستقبل .

وصرح بأنه أراد بتأليف الكتاب ، أن يساعد على الرقى بتجديد اللغة ،  
وأن حسبه من هذه المساعدة أن يشخص الداء ويؤمى إلى الدواء وينبه الغافلين  
وينصح للمعاكسين .

وأعظم هؤلاء المعاكسين فى رأيه :

« هم الذين تخصصوا فى درس اللغة العربية مثل خريجي دار العلوم .  
فإن تخصصهم حال بينهم وبين دراسات بشرية عديدة فضاعت آفاقهم وصاروا  
ينظرون إلى لغتنا كما لو كانت إحدى اللغات المتحجرة فى المعابد لا ينبغى  
تغيير كلمة ، أو حتى أسلوب التعبير فيها ، أو خطها .

« زد على هذا أنهم قد أصبحوا طبقة لهم وضع اقتصادى ووجدان طبقى  
ينهضان على استبقاء العربية فى جمودها الحاضر . ولذلك يخشون التغيير ويرون  
فيه هجوماً على مصالحهم الاقتصادية . ولكن يجب أن نذكر أن مصلحة  
الأمة يجب أن تلو على مصالح أية طبقة فيها .

\* \* \*

وهكذا أدخلت الطبقة الاقتصادية فى المعركة ، سلاحاً ضد اللغة  
الفصحى ، ووُضعت تقاليدنا الدينية وميراثنا التاريخى ، مع عوائق التطور  
والتقدم والتحضر !

ولا نسأل الداعية المصلح ، لماذا لم تضار السيادة اللغوية التى أتاحت  
للإنجليز العدوان على المتوحشين ، بعلماء لغتهم الذين يعكفون على فقه أسرارها  
وأصولها القديمة ، ويكونون طبقة من المتخصصين متميزة عن العامة ؟ ولماذا

لم يحل دون السيادة السياسية المرتبطة بالسيادة اللغوية ، وجود خاصة من العلماء الإنجليز في الفلسفة والاجتماع والتاريخ والطبيعات والرياضيات ، عليمهم غير مبذول لجماهير الشعب ولا هو مما يعرفه عامة المثقفين ؟ وفي الإنجليز متخصصون في اللغة الكلاسيكية ، وفي برامجهم التعليمية دراسة نصوص قديمة وأدباء من العصور الحالية ، وبين مؤرخيهم من يؤلفون في أسلافهم ، بل فيهم كذلك مستشرقون تخصصوا في دراسة لغتنا وتاريخنا ، وألفوا في شعراء الجاهلية ، وفي معاوية بن أبي سفيان وغيره من أعلام الشرق والعرب والإسلام ! !

لا نسأل الداعية المصلح عن هذا ومثله ، بل نتابع عرضه لمشكلاتنا اللغوية ، فراه في فصل عن " اللغة والتطور البشرى " يبدأ بتقرير أن من أسباب تطور الإنسان وسيادته على الحيوان « أن ضخامة دماغه قد أعدته للتفكير السديد » (١) .

[ وأظنكم تعلمون أن من الحيوان ، كالفيل والخنزير والتمسك والبغل والحمار ، ما هو أضخم دماغاً من سيده الإنسان ] (٢) .

ولكن الكاتب لا يرى هذا ، ويمضى في الحديث عن الحيوان اللغوى — الإنسان ذى الدماغ الضخم — لينتهى إلى « أن كثيراً من التفكير الحسن بل أحياناً من العبقريّة ، يعود إلى أن اللغة التي نستعمل كلماتها قد بلغت من الرقي درجة عالية ، لأن الكلمات في هذه اللغة تحمل المعاني الأنيفة الدقيقة التي لا توجد في كلمات لغة أخرى متخلفة . ويتضح هذا عندما نقارن بين اللغة الألمانية وبين لغة متخلفة من لغات أفريقيا السوداء ، فلو أن "جيتة" وُلد في قبيلة أفريقية لما استطاع أن ينتج الثمرات الزكية التي نقطفها من مؤلفاته ، لأن اللغة القبلية لم تكن عندئذ لتسعه بالكلمات التي تؤدي معانيه ،

( ١ ) الرقم هنا وفيما يلي من فقرات منقولة بنصها من كلام الأستاذ سلامة موسى ، يشير إلى موضع الفقرة من كتابه ( البلاغة العصرية واللغة العربية ) الطبعة الثانية — المطبعة العصرية بالقاهرة .

( ٢ ) القوسان المربعان [ ] يميزان ما أعلق به على ما أنقل من كلام المؤلف .



بل كانت تبقى هذه المعانى أجنة تؤلمه بالمخاض ولا تجد المخرج من ذهنه ،  
أو تخرج جهيضة » - ٦

[ ولا أدري من أين بلحيته ، لو كان قد ولد في أفريقية السوداء ، هذه المعانى  
والأفكار التى يريد أن يعبر عنها فلا تسعفه اللغة الإفريقية بالأفكار ] بعد أن قرر  
الأستاذ سلامة موسى نفسه ، فى الفقرة السابقة مباشرة على عبقرية جيته واللغة  
الإفريقية :

« إننا نفكر بالكلمات . وصحيح أننا نستطيع التفكير الساذج البدائى  
بلا كلمات كما يحدث فى الأحلام ، ولكن التفكير الذى تتداخل فيه العوامل  
وتنشط ساحته يحتاج إلى كلمات . ويكاد يكون من المستحيل أن نفكر  
بدكاء أو منطق فى أى موضوع بلا كلمات . وليس بعيداً أن يكون التفكير  
فى صميمه كلمات غير منطوقة كما يقول واطسون »

ثم يقرر فى فصل تال « أننا نفكر بالكلمات . . . والكلمات هى التى  
تكسبنا اتجاهات أخلاقياً أو تكون لنا مزاجاً فنيا » - ١٧

ويتحدث الأستاذ بعد ذلك عن " الأنثروبولوجية واللغة العربية " وأعذره فيما غاب عنه من أسرار العربية وهو يخوض فى دقائق من الاشتقاق  
والترادف وتطور الدلالات . وقد أرى أن ما أعوزه من فقه ذلك كله ، هو الذى  
أسلمه إلى القول فى بدائية لغتنا :

« إن اللغة هى بمثابة المصنع الذى يعيش فى عصرنا ، ومع ذلك يجمع  
فى مستودعاته فأساً من الحجر كانت تستعمل قبل ثمانية آلاف سنة ، وإبرة  
من الشوك كان أسلافنا يستعملونها قبل مائة ألف سنة ، وسيفاً من البرونز  
كان يستعمل قبل أربعة آلاف سنة ، وبين مصنوعات آخر مثل الرديفون  
والمصباح الكهربائى والسولفانيلاميد . ومن هنا هذا الارتباك الذهنى الذى  
يؤدى إلى قلة الفهم أو اختلاطه . ذلك لأننا نستعمل أدوات قديمة كى تؤدي  
لنا خدمات جديدة » - ١٤

ومن الأمثلة التي ساقها على بدائية لغتنا ، وارتباك ذهننا من استعمال لفظ قديم للدلالة جديدة ، أننا نستعمل الفعل « أحصى » بمعنى عد ، فإنه مشتق من الحصى أى صغار الحجر . وذلك لأن الإنسان البدائي كان ' يجهل العد بالأرقام فكان إذا شاء مثلاً أن يعرف ما عنده من خراف ، وضع في جعبته عن كل خروف حصاة » ١٣

[ حين يذكر في الوقت نفسه ، أن الأمر لا يختلف عن هذا في الفعل الإنجليزي ( Calculate ) بمعنى حسب ، وهو مأخوذ من اللفظ الروماني القديم ( Culculus ) بمعنى الحصاة أو الحجر ، وقد كان الرومان يستعملون الحصى في العد والحساب منذ آلاف السنين .

وكنا نؤثر له أن يذكر أيضاً أن اللغة الإنجليزية لا تزال تستعمل في عصرنا ألفاظ الفأس والإبرة ، مع الرديفون والجرامفون ! ]

وحشد الأستاذ سلامة موسى منطقته وقلمه : ليدخل في صميم المعركة بين العامية والفصحى ، إذ « يجب ألا يكون للمجتمع لغتان ، إحداهما كلامية أى عامية ، والأخرى مكتوبة أى فصحية ، كما هي حالنا في مصر وسائر الأقطار العربية . لأن نتيجة هذه الحال أن اللغة المكتوبة تنفصل من المجتمع فتصبح كأنها لغة الكهان التي لا تتلى إلا في المعابد ، وينقطع الاتصال الفسيولوجي بينها وبين المجتمع فلا تتطور . . .

« واللغة الحية هي الجهاز العصبي للمجتمع أو الشبكة التليفونية التي يتخاطب ويتفاهم بها أفرادها . فإذا عجزت عن تأدية هذا التخاطب والتفاهم فهي خرساء ، أى بمثابة الشبكة التليفونية المقطوعة أو التالفة ، ويجب السرعة في ترميمها .

« وقد عرفنا هذا الحرس في كثير من شئوننا الثقافية : فإن المسرح مثلاً لم يرتق ، لأننا لم نستطع تأليف الحوار باللغة الفصحى بين أشخاص الدراما . لأن الكلمة الفصحى ليست جَوِّية ، أى أنها لا تنقل إلينا جو الحديث ، لأننا ألفنا أن يكون الحديث باللغة العامية ، فترجمته إلى اللغة

الفصحى يصدمننا ويشعرنا بأن هذه الكلمة ليست في مكانها أى ليست في جوها الاجتماعي .

« ولغتنا خرساء - والحرس هنا أوضح وأخطر - من حيث إننا جعلناها مثل لغة الكهان جامدة لا تتغير .

« فالتفاعل القائم الآن بين لغتنا ومجتمعنا ليس تفاعلا صحيحاً . فإن هناك انفصالا يحول دون إيجاد الدورة اللغوية كاملة به ، ولذلك حدث المرض من هذا الانفصال ، وهو الجهل لنحو مائة علم وفن لا يمكن أن نعرفها إلا إذا تركنا لغتنا ونطقنا بلغة أخرى » - ٢٣

ونظر الداعية المصلح إلى مظاهر التخلف في مجتمعنا ، فردّها كلها إلى عقم لغتنا الخرساء . ودخلت قضية الديمقراطية في الموضوع ، فإذا لغتنا هي المسئولة عما يعوزنا من العدالة الاجتماعية ، لأننا ورثناها من مجتمع كان أتوقراطيا أرستقراطيا ( ص ٢٤ ) كما دخلت قضية المرأة في المعركة فإذا اللغة مسئولة كذلك عن رواسب تخلفها واستعبادها « فقد ألغى المجتمع العربي القديم المرأة من الحياة الاجتماعية إلغاء يكاد يكون تاما ، أما نحن فقد رددنا الاعتبار للمرأة المصرية ، ولكن مازلنا نستعمل الكلمات القديمة فنقول : أم فلان أو حرم فلان ؛ ولا نذكر الاسم مع أن الاسم جزء من الشخصية وإهماله هو سبة المرأة . وإهمالنا لاسم المرأة هو تراث لغوي قديم يحمل إلينا عقيدة اجتماعية يجب أن نكافحها »

[ وعجيب هذا حقا ، فإن المرأة الإنجليزية ، وكل نساء الغرب الحديث الراقى ، يتزوجن فلا يعرفن بغير حرم فلان ! ونحن هنا نحفظ بأسمائنا بعد الزواج ، ونتعامل في الحياة بأسمائنا وذواتنا ، فأبسط معلمة في مدرسة ابتدائية تعرف باسمها لا باسم زوجها ، على حين تُعرف العالمة الغربية الكبرى باسم « مدام كورى » ! وتعرف جرم رئيس الولايات المتحدة ورئيس الجمهورية الفرنسية ، ورئيس الدولة الألمانية ، ورئيس وزراء إنجلترا ، بأسماء أزواجهن ، فهن : « مسز نيكسون . ومام ديجول ، وفراو لوبكه ، ومسز نيلسون » !

لغتنا والحياة

ولا يمكن أن تكون هذه المجتمعات الراقية ، قد ورثت عنا هذه السُّبَّةَ ،  
لأن المجتمع الإسلامي القديم أبرأ المرأة من إسقاط اسمها الذي هو — أى  
الإسقاط — سبة ، تستوى في ذلك سيدات بيت النبوة : يعرفن بأسمائهن ،  
فيقال : خديجة بنت خويلد ، وعائشة بنت أبى بكر ، وفاطمة الزهراء ،  
وسكينة بنت الحسين . .

وأصغر معلمة في مدرسة ابتدائية أو ممرضة في وحدة صحية بإحدى  
قرى الريف أو نجوع الصعيد ] .

\* \* \*

وماذا عن " الأحافير اللغوية " التى يراها الأستاذ أغللا معوقة لرقينا ،  
« لأننا نستعملها فنحمل المجتمع عبئاً باهظاً ، على حين تعرف معاجم اللغات  
الأخرى أحافير من الكلمات لا تجرى على لسان أو قلم ، وإنما تحتفظ بها  
للدراة كما تحتفظ المتاحف بأحافير الدينصور وغيره » ؟

« أطفالنا ينشئون وهم يستمعون إلى كلمات العفاريات والجن والنجوم ،  
فتنغرس فيهم عقائد يعجزون عن التخلص منها حتى وهم فى الخمسين أو الستين  
من أعمارهم » — ٢٥ .

[ فهل تخلو قصص الطفولة فى المجتمعات الغربية ، من مثل هذه الألفاظ؟  
وهل انتهى عهدهم بمثل ذات الرداء الأحمر وسند رلا ، وعبارة الأميرة النائمة ؟  
بل هل تخلص الأدب الإنجليزى من مثل ساحرات ماكبث وغابة « جيمس  
بارى » فى : عزيزى بروتس ؟ ] .

« ونحن نقول : علا نجمه أو أفل نجمه » ( ٢٦ )

[ فهل تخلى المجتمع الغربى الراقى ولغاته ذات السيادة ، عن مثل عبارة  
« نجوم المجتمع » و « كواكب السيما » ؟ ]

ومن أسوأ أحافيرنا اللغوية الكبيرة الضرر على مجتمعتنا ، « كلمتا شرق

وغرب ، توحيان إلينا أننا ننتمى إلى آسيا وأفريقيا ، وكأننا على عدااء مع أوروبا وأمريكا » (٢٦) .

[ فهل حذفت اللغات الأوروبية كلمتى شرق وغرب ، بمثل دلالتها فى لغتنا العربية ؟ وإن كانت قد حذفتها دون أن ندرى ، فماذا صنعت بالواقع الجغرافى والقاموس الدولى ؟ ]

ومن أحافيرنا اللغوية : كلمات الدم والثأر والعرض ، تؤدى إلى قتل نحو ثلثمائة امرأة ورجل فى بعض مديريات الصعيد كل عام ، وسكان الوجه البحرى لا يقتلون مثل هذا العدد من الرجال والنساء لأجل العرض والثأر لأنهم لا يستعملون هاتين الكلمتين فى حديثهم (٢٧)

[ فهل صحيح أن سكان الوجه البحرى لا يستعملون هاتين الكلمتين من الأحافير اللغوية ؟ بل هل أخرجت كلمات الدم والثأر والعرض من الاستعمال اللغوى فى المجتمعات الغربية الراقية ؟ ]

أسئلة لم يشغل الكاتب المصلح باله بها ، وكل ما عناه هو أن يصل من هذا العرض لأحافيرنا اللغوية ، إلى نتيجة وهدف :

« اللغة التى تلابس مجتمعا هى لغة السوق والبورصة والمصنع والنادى والبيت والكتاب والجريدة والمجلة والمنبر والمدرسة ، أما إذا انفصلت واقتضرت على الكتاب وهجرت المجتمع فصار لنا لغتان ، فإن لغة المجتمع ستبقى حية ، ولكن لا تجد العناية التى يستحقها الحى فهى تعيش فى وكس وضعف ، وتبقى اللغة الأخرى كأنها أحافير تحفظ وتصان كما تصان لغة الكهنة فى المعابد عند المتوحشين » ٢٧ .

[ وهنا أيضاً ، لم يشغل الكاتب باله بالسؤال عما إذا كان مفكرو الغرب وفلاسفته وعلمائهم وأعلام أدبائهم . يكتبون حقاً بلغة السوق والبورصة والمصنع والنادى والبيت ؟ ]

بل مضى يتابع البحث فى " ضرر اللغة " علينا ، فإذا عقدة بلاغتنا

العربية أنها تخاطب العواطف دون العقل » وإذا جعلنا المنطق أساس البلاغة العصرية فإننا عندئذ نجعل قواعد المنطق ونظريات إقليدس مما يدرس للتفكير الحسن ، وهو الغاية الأولى للبلاغة . ونبين قيمة الأرقام في التفكير الحسن » ٣٠ .

[ ولما اتصل ببعض ما يدرس من البلاغة في الآداب الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية ، ولا أعلم أنهم أسقطوا العواطف من مجال البلاغة ، أو استبدلوا بأسرار فن الجمال وفن الكلمة ، نظريات إقليدس وحساب الأرقام ، أو ألغوا الوجدان لتتجرد بلاغتهم لمخاطبة العقل وحده ! !

وإنما الذى أعلمه أن فنية البلاغة قيمة جمالية لا علمية رقمية ، وأن الأسلوب الأدبى لا يختلط عندهم بالتقارير الإحصائية ونظريات أينشتاين وإقليدس ، وأن التأثير فى العواطف والنفاذ إلى الوجدان ، ما يزالان غاية منوطة بفن الكلمة واثرائها الفنون الجميلة ! ]

على أن هذا الذى ذكره الكاتب المصلح من ضرر لغتنا ، يهون بالقياس إلى ما نلقاه بعد ذلك من تحميل اللغة العربية مسئولية الجنون والإجرام ! وهذا جديد لم يسبق إليه الأستاذ سلامة موسى ، فيما أعلم !

فجرائم الدفاع عن العرض التى تذكر لنا صحفنا كل يوم جريمة أو اثنتين منها « هى جرائم لغوية لا أكثر . . . وحرادث الجنون تتكرر فى مصر بسبب اللغة .. والشاهد على ذلك أن السيدة الأنيقة تجد توعكاً أو توتراً فى سن الثامنة أو التاسعة والأربعين . فتستشير الطبيب فيقول لها إن حالتها تعد طبيعية فى سن اليأس .. والواقع أن جميع نساينا يضطربن لهذه الكلمة وقد يزيد الاضطراب بسبب الضرة أو الحماة أو الخوف من الطلاق فيصير جنوناً أو على الأقل شذوذاً يلفت النظر ويحتاج إلى العلاج » ٣٦ ، ٣٧ .

[ وأرى الكاتب نسى هنا بلاغة الأرقام فلم يحاول أن يقدم لنا إحصائية عن عدد المجنونات من نساء مصر ، لمجرد سماعهن كلمة سن اليأس ؟ كما نسى أن الجمهرة الغالبة من نساء الشعب المصرى ، يمضين عمرهن كله دون أن يسمعن كلمة سن اليأس من طبيب معالج ، أو يفقهن دلالتها !

بل نسي كذلك أن يحدثنا عن نجاة الغربيات من هزة هذه الفترة من العمر ، لأن لغاتهن أعفهن من كلمة سن اليأس التي هي عندنا ذريعة الجنون والحبال والشذوذ ، فخلت منهن عيادات الأطباء ومصحات الأمراض النفسية !

بل نسي كذلك أن كل لغات الدنيا ، فيها كلمات الفضائل والردائل وفيها كلمات المنطق والحبال ، وليست العربية بدعاً بين اللغات ، لتستجيب إلى دعوة الأستاذ سلامة موسى ، فتلغى من معجمها كلمات الردائل والجريمة والحبال ، ولا تبقى فيه إلا كلمات الفضيلة والمنطق ، هذا لتكون شرفاً مهذبى السلوك [ قال :

« على قدر كلمات الفضائل في لغتنا نكون فضلاء

وعلى قدر كلمات الردائل في لغتنا نكون أردالا

وعلى قدر المنطق في كلماتنا نكون منطقيين في سلوكنا .

وعلى قدر الحبال في لغتنا نكون مخبولين في سلوكنا » ٣٨ .

[ ولو صح ما ذهب إليه من أن إسقاط هذه الكلمات من معجم لغتنا ، يخلص مجتمعنا من أمراض الجنون والإجرام ، لكان المجتمع الأمريكى أحوج منا إلى هذا الإجراء اللغوى ، لينجو مما يشكوه من انتشار الجرائم والأمراض العقلية والنفسية .

ولو صح ما قرره من أن « الأمم ارتقت بكلمات ذاتية مثل مروءة وشرف وشهامة وحياء وأنفة ، كما انحطت بكلمات ذاتية أخرى مثل شماتة وكفر ونجاسة — ٤٢ » ، لكان للأمة العربية أن تتحدى برقيها كل دول الغرب ، لكثرة ما فى معجمنا وأساليبنا من كلمات المروءة والشهامة والأنفة ، التى رآها الأستاذ سلامة موسى نفسه ، مسئولة عن كل جرائم العرض والتأثر [ .

• • •

ونمضى مع الداعية المصلح ، لنسمع مقترحاته فى بلاغتنا العصرية ، وأغلاها اللغوية .

إنه يقترح أن نقول مثلاً : يبلغ ذكاء هذا الصبي ١١٥ درجة ، بدلاً من أن نقول : هذا الصبي ذكي !

وأن نقول : بلغت الدرجة المثوية للحرارة أمس ٣٩ درجة ، بدلاً من أن نقول : كان يوم أمس حاراً مرهقاً .

[ فهل هكذا يقول الإنجليز في لغتهم اليومية فضلاً عن أساليبهم البلاغية ؟ وهل يمثل هذا يقيسون بلاغة شعرائهم وكتابهم ، وعبقريّة حكمائهم وفلاسفتهم ومفكرينهم ، من شوسر وشكسبير وملتن ، إلى ديكنز وشلي وبرونتي وبرناردشو وإليوت ، وولز وراسل وتوينبي ؟ . . . ]

ويهر الأستاذ سلامة موسى من الإنجليز « أنهم يفرقون بين نوعين من الحب باستعمالهم love أو like ، على حين لا نجد في لغتنا غير كلمة "أحب" نطلقها على الحب البيولوجي ، وحب الملوخية ، والعلاقة بين الأم وأطفالها ، وحب الإنسان لله . . . نطلقها عليها جميعاً لأننا كالمتموحش حين يسمى ما زاد على العشرة : كثير » - ص ٤٤

[ ووددت لو أنني أرحت الكاتب الكبير من "عقدة المتموحش" هذه ، فقلت له إن لغتنا العربية تتميز بين معاني الحب بحس مرهف ، ونحن الموصومين عند الأستاذ بالتحجر والتبلد ، ندرك فروق الدلالة لكلمات : الحب ، والعشق ، والاشتهاء ، والرغبة ، والتعلق ، والمودة ، والحنان ، والبر والإيمان والوجد . . . وهذه الفروق في الدلالة اللغوية ، هي ما التبتت عند الكاتب المصلح بالمتراذفات فحسبها « أثرية صبيانية يضيع بها الوقت ، واللغة الحسنة تتوق المتراذفات » ص ٢ ] .

ويسخر المؤلف بمصحح شيخ ، عرفه في إحدى الجرائد كان يشرف على اللغة ويمنع تسرب الأخطاء ، فكان يعارض في كلمة "ماهية" الموظف ويضرب عليها ويضع بدلاً منها مرتباً أو أجراً ، فكان المخبر الذي كتب الخبر يرى عقب طبع الجريدة أن وكيل الوزارة أو رئيس القلم قد زيد أجره ، فيهرول إلى الشيخ ويصرخ ويهيج ، ولكن الشيخ يصبر على أن كلمة ماهية لم ترد



قط في المعاجم بمعنى أجر ، ولاعبرة باصطلاح الحكومة على المعنى الحديد لها ( ص ٤٧ ) .

[ وأقول لداعية الاشتراكية والعصرية ، إن كلمه « ماهية » التي أعجبته بديلا من الأجر ، ليست إلا من رواسب ( تراب الميرى ) ولوائحه المهينة التي كانت لاتعرف ماهية الإنسان العامل إلا بأجره . فهل تقبل كرامتنا العصرية هذه الدلالة المهينة على ماهية الإنسان العامل منا ، بالأجر الذي يتقاضاه نظير عمله ؟ !

لقد كان المصحح الشيخ أهدي حيسا ، حين أصر على أن وكيل الوزارة أو رئيس القلم إنما يتقاضيان أجراً عن عمل ، وهذا هو مفهوم الاشتراكية التي دعا إليها الأستاذ سلامة موسى ، ثم تعثر هنا في أول كلماتها ، فجعل ماهية الإنسان فيما يقبض من مال ، واختار وكيل الوزارة ورئيس القلم لبيان بشاعة استعمال الأجر معهما ، والأمر معهما لا يختلف عما يتقاضاه سائق سيارة الوكيل وحاجب رئيس القلم . من أجر العمل !

وإذ يرى الكاتب أن « الكلاسية داء الأدب العربي ، وأن داء اللغة العربية في جميع الأقطار العربية هو داء الكلاسية الرجعية التليدة » يقدم لنا مثلا أعجبه من قول شكسبير في رواية هاملت : « فما تحرك فأر » ويرى أن إنجلترا التي ألف فيها شكسبير ولم يأنف من ذكر الفأر في درامة عالية مثل هاملت ، لم تكن رجعية ، بل كانت قد استقرت فيها الحرية والبرلمانية بعد قطع رأس تشالس الأول . . .

[ وفي مثل هذا أعذر له ، فإنه بحيث لا يدري أن القرآن الكريم ، الذي يجلو العربية في أعلى بيانها وأتقن أصالتها ، لم يأنف من استعمال كلمات الذباب والبعوضة والنمل والعنكبوت والحمير والبغال ! ونحن نتلو آياتها في كتابنا الأكبر فتراها من البيان المعجز :

« يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله

لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذبابُ شيئاً لا يستنقذوه منه ،  
ضعف الطالب والمطلوب » - الحج ٧٣

« إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضةٌ فما فوقها .. » - البقرة ٢٦  
« مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً  
وإن أوهن البيوت لبیت العنكبوت لو كانوا يعلمون » - العنكبوت ٤١  
« واقصد في مشيك واغضض من صوتك ، إن أنكر الأصوات  
لصوت الحمير » - لقمان ١٩ .

« مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً » -  
الجمعة ٥ ]

ويتابع الكاتب اختيار دروس لنا من الإنجليزية ، فيذكر من تطورها  
« أن الملك جيمس حين زار كنيسة سان بول الكاتدرائية عقب انتهاء المهندس  
من بنائها ، عبر عن إعجابه بهذه الكلمات : Amusing, awful, Artificial  
فسر المهندس غاية السرور . ولكن هذه الكلمات قد انتقلت في عصرنا  
من معنى الاستحسان إلى معنى الاستهجان والاستهزاء . وهذا هو التطور ،  
وهذا هو الرقي » ٤٦ .

[ ولا أضرب له مثلاً من تطور « طول اليد » من الدلالة على الكرم ، إلى  
السرقه ، و « الصعلوك » من الفتوة إلى ( البلطجة ) والقرية من الحاضرة  
نقيض البادية ، إلى أصغر بلدة في التقسيم الإداري ، وحرية المرأة من تصونها  
في البيت إلى خروجها من البيت . . بل أقول إنى لو مضيت أعرض  
بالموضوع تطور الدلالات لألفاظ العربية ، لما اتسعت له محاضرات الموسم كله ! ]

ويتصور الأستاذ بكل بساطة ، في الفصل الذي كتبه عن " كلمات نبي  
الأخلاق " أن « لو كانت لغتنا تحوى خمسين من هذه الكلمات أو التحف الغالية .  
مثل المروعة والبر والشهامة والفتوة والمجد ، لكان في مقدورنا أن نبنى بها  
أخلاق الأمة ونعين لها النفسية التي تعيش بها في سعادة ورفاهية » - ٦٦

[ ولا أجادله في تصوره ، لكنني أعتقد أن أى أمي عربي ، يستطيع أن يسرد من معجمه اللغوي مئات من مثل هذه التحف الغالية التي تبني الأخلاق ! والمجتمع الأمريكي يئن من ضراوة الجرائم الخلقية ، وما أظنه يعتمد في مكافحة الجريمة على شحنة من الكلمات الطيبة فحسب !

ومجتمع الصعيد عندنا ، تروج فيه كلمات الشهامة والشرف والفتوة والمرءوة ، وقد عدها الكاتب مسئولة عن جرائم العرض والشرف !

ثم لا أدري كيف يستقيم هذا الفصل كله ، مع ما أنكره المؤلف من « رفض قصيدة لأبي نواس ، وهو المجدد العظيم ، في إحدى المباريات الأدبية » ٥٣ أو لعله لم يقرأ ديوان أبي نواس ، المجدد العظيم ، وهو مشحون بصور قصائد ماجنة من الشذوذ الجنسي والانحراف الخلقي ، وتفنن السكاري المحبولين ! ]

\* \* \*

ويُقدم الأستاذ تفسيره الاقتصادي للغة العربية وأدبها ، فيرى « أن المجتمع العربي الذي ورثنا منه أدبنا ولغتنا الكتابية ، كان مجتمعاً زراعياً . وكان مجتمعاً دينياً ، رئيس الدولة يحمي الدين ، ويحمي الكلاسيكية أى التليدية في اللغة » ٩٣

أو كما قالها الأستاذ بعبارة أوضح ، في فصل سابق :

« فاللغة عند الحكومة المصرية ليست لغة الديمقراطية والأتومبيل والتلفزيون بل هي لغة القرآن وتقاليد العرب » - ٥٥

وعلى هذا النحو يَمْضِي الكاتب في بيان ما سماه « شذوذ لغتنا » ومرضها بداء التليدية ، لكي نعرف « لماذا نكره إلغاء الإعراب وتبسيط التعبير بقار شكسبير واصطناع اللغة العامية كي تعبر الهوة التي تفصل بين الأدب والشعب واتخاذ الخط اللاتيني ، وأيضاً حرية المرأة » - ٥٥

ليصل بنا أخيراً إلى وجوب « أن تكون ثقافتنا كوكبية ، ولغتنا علمية ،

وكتابتنا لاتينية » - ١٠٤

وذلك ما نعرض له في موضعه من المحاضرة التالية عن لغتنا وعلوم العصر ...

• • •

وأراني أطلت عليكم في عرض آراء الأستاذ سلامة موسى ومناقشتها . وكان في الإمكان إرجاء هذا الحيار معه إلى القسم الأخير الذي ذيلت به هذه المحاضرات . لولا أني آثرت أن يأخذ مكانه في سياق العرض التاريخي لمشكلة الفصحى والعامية . لأن الأستاذ سلامة موسى يمثل وجهة النظر المعادية للفصحى في المرحلة التي تلت تحرك الأجانب إلى ميدان الصراع .

وترون أنه أضاف إلى ما قالوه في عقم الفصحى ومسئوليتها عن تخلفنا العلمي وفاقنا الثقافية وفشو الأمية فينا ، مسئوليتها عن الحرمة والحنون واستعباد المرأة . كما عقد الأزمة بنقلها إلى دواحة المعترك السياسي والصراع المذهبي ، فاستحدث صلة حتمية بين الطبقة الاقتصادية والإقطاع والاستبداد والاستعمار . وبين هذه اللغة المعوقة للحرية والتقدم وللتحول الاشتراكي الذي لا يمكن أن يتحقق مادام فينا علماء متخصصون في اللغة العربية ، والأصل عنده أن تكون كل العلوم شعبية لا تحتكرها فئة من الكهنة العلماء ! وقد تخاشى الكاتب جهده . الاصطدام بالقرآن الكريم والأزهر ، كيلا تحمّل آرائه الإصلاحية على محمل التعصب الديني فيقيم بينها وبين الشعب سدوداً عازلة . . .

أما الأزهر فاستطاع الأستاذ أن يتقن الاصطدام به ، بتوجيه حملته على سادة الفصحى ، إلى دار العلوم ، في مقدمة كتابه وفي فصل "الكلاسيكية داء الأدب العربي" وفي "الخط اللاتيني" وواضح أن دار العلوم ليست أدنى إلى التليدية من الأزهر ، وليس لها مثل تاريخه الطويل في العكوف على اللغة العربية وآثار السلف .

وأما القرآن الكريم ، فحاول الكاتب أن يتوقاه بتوجيه الحملة إلى ميراثنا اللغوي من عصور بداوة يفصلنا عنها أكثر من ألف عام . غير أن القرآن

يفرض نفسه حتماً على كل موضوع يتصل بالعربية الفصحى ، ومن ثم لم يملك الكاتب في تشخيصه ( للكلاسية داء الأدب العربي ) إلا أن يقول :  
« وإني بالطبع لا أغفل هنا ارتباط اللغة بالتقاليد والعقائد وأن هذا الارتباط من أسباب الكراهة للتطور اللغوي » المقدمة .

« اللغة عند الحكومة المصرية ليست لغة ديمقراطية والأوتيمبيل والتليفزيون ، بل هي لغة القرآن وتقاليد العرب » - ٥٥

« وبلاغتنا يجب أن تكون بلاغة المنطق والمعرفة ، بدلا من بلاغة الانفعال والعقيدة » - ٦٥ .

ثم يقرر في ( تفسيره الاقتصادي للغة والأدب الغربيين ) أن « المجتمع العربي الذي ورثنا منه أدبنا ولغتنا الكتابية ، كان مجتمعا إقطاعياً زراعياً . . ومن شأن الزراعة الجحود ، فنحن نزرع القمح الآن كما كان يزرع قبل ألف أو ألفي سنة . فلم يكن هناك ما يدعو إلى تغيير العقائد أو الأخلاق أو الكلمات الزراعية . . .

وكان أيضاً مجتمعاً دينياً ، رئيس الدولة فيه يحمي الدين ويحمي التليدية في اللغة - ٩٣

\* \* \*

والشعب الذي كان الأستاذ سلامة موسى يخوض المعركة ضد العربية لحسابه ، لم يكن مستعداً لسماع كلمة واحدة تمس عقيدته وكتابه الديني ، بل إنه عن حدس الدفاع عن الذات ضد ذرائع التدوين والتغريب ، لم يكن يحسن الظن بدعاة الانسلاخ عن شريقتنا وعربيتنا ونبذ تراثنا .

وحين لم يفهم الشعب ، على أي وجه ارتبط الأتمبيل والموطر بالبلاغة العصرية ، ولا من أي سبيل اختلطت هذه البلاغة بلغة الأرقام والمصنع والسوق والبورصة ، ربط الدعوة إلى نبذ العربية وتراثها ، بالملكيدة الاستعمارية

ضد العربية ، لسان قومية الأمة ولغة كتابها الديني الذي يحمي وجودها وعقيدتها ، ويرهف وعيها<sup>(١)</sup> .

ومن هنا لم تجد دعوة الكاتب المصلح سبيلا إلى التأثير على الوجدان الشعبي والنفاذ إلى الضمير القومي . غير أن آراءه عاشت مع تلاميذ مدرسته الذين حملوا دعوته إلى نبذ الفصحى وميراثها ، وبشروا بأرض جديدة غربية ، وأهروا بالمعاول على كل ما في أرضنا من جذور ، لم يستثنوا قيَمنا الدينية التي رأى بعضهم في التمسك بها « عملية انتحارية »<sup>(٢)</sup>

وقد كان في كل مقالوه عن جمود الفصحى وعقمها وحيوية العاميات ، مغالطات مكشوفة :

فالزعم بأن الفصحى عاجزة عن مسايرة الزمن وتلبية حاجات حياتنا اللغوية ، مردود بما أثبتت على مسار الزمن من طواعية للنمو وصلاحية للبقاء .

واتهامها بالمسئولية عن تخلفنا وانحطاطنا ، يرده الواقع التاريخي الذي شهدا لغة الدولة الإسلامية في عصر قيادتها للحضارة الإنسانية .

والزعم بأنها المسؤولة عن الجريمة والجنون ؛ مردود بأن المجتمع الأمريكي مثلا ، لم ينج بلغته الإنجليزية من ضرواة الجريمة ومآسى الجنون .

وما يقال عن حيوية العامية ، مردود بأنها حيوية محدودة المجال بحدود كل قطر إن لم يكن بحدود كل منطقة من القطر الواحد ، محدودة الطاقة بنطاق (السوق والبورصة) والأدب الشعبي؛ لا تتجاوزه إلى القضايا الفكرية والآداب العالية.

مردود كذلك بأن دعاة العامية أنفسهم — أجنبياً وعرباً — خاضوا معركتهم

(١) انظر أصالة الوعي الشعبي في كتابي «قيم جديدة لأدبنا القديم والمعاصر» ص ٢٩٧

وما بعدها ، ط معهد الدراسات العربية العالية ١٩٦٧ والمعارف ١٩٧٠ .

(٢) انظر : صناديق الدمى ومقابر الأنبياء ، وأصالة الوعي الشعبي في «قيم جديدة لأدبنا

القديم والمعاصر» ص ٢٢٥ ، ٢٩٧ وانظر معه : «سلامة موسى وأزمة الضمير العربي المعاصر»

للزميل غالي شكري .

ضد الفصحى باللغة الفصحى ، وكتبوا آثارهم بها ، باستثناء قلة نادرة لا حساب لها فى موازين القوى المؤثرة فى الصراع وفى المناخ الفكرى .

والزعم بأن العامية وسيلة تثقيف الأميين ، لا يعنى فى الواقع سوى ترسيخ الأمية فيهم ، وترسيخ التخلف الثقافى .

وإقحام لغة الأرقام والصناعة على البلاغة العصرية والأدب الجديد ، يرفضه الواقع اللغوى لكل الدول العصرية التى تفرق بين لغة أينشتاين ، ونيوتن وماركونى ، ولغة ديكنز وجوته وفولتير وبرنارد شو وسمرست موم وإليوت وهيمينجواى . . .

والقول بأن السلفية اللغوية هى داؤنا الوحيد ، لا يبرئنا منه إلا أن « نؤلف فى أقطاب الصناعة فى عصرنا بدلا من التأليف فى معاوية بن أبى سفيان وعلى بن أبى طالب وخالد بن الوليد وحسان بن ثابت » .

ينقضه ما يتعلمونه فى المدرسة الغربية من أعلام العصور القديمة والوسطى ، وما يؤلفون فيه ويترجمون ، من كتب ودراسات عن هوميروس وأرستوفانيس وميلتون وشكسبير وإليوت . . . ، وليسوا من أقطاب الصناعة فى عصرنا . .

• • •

لكن مثل هذه القضايا بطبيعتها لا تعتمد على المنطق بقدر ما تعتمد على الجدل الخطابى والاستهواء الحماسى ، وتحاول أن تأخذ طريقتها إلى مواطن التأثير بما تقحم على الميدان من دعوى الحرص على مصالح الجماهير والانتصار لعاميتها وتيسير سبل الثقافة لها . وحين يتصدى الواعون منا لتصحيح هذا الزيف والكشف عن مغالطات الدعوى ، فإن هذا التصدى نفسه — على ما يبدو من ضرورته — لا يتجو من انفعال خطابى يتجه إلى التجريح والقذف أكثر مما يتجه إلى النقد الموضوعى والمنطق اللغوى والواقع التاريخى ، ومن ثم تحتدم الخصومة بين أنصار العامية يرفضون الفصحى ، وأنصار للفصحى ينكرون العامية ، بما يلهب موقف العداء بين اللغة الأم المشتركة ولهجاتها

الإقليمية . وتدخل القضية في دوامة المعتقد الديني والصراع المذهبي .

فيتسع الميدان لدعاوى مقحمة ومغالطات زائفة أثراً لهذه الحصومة الشاذة التي لا تعرفها طبيعة الحياة اللغوية في شرق أو غرب ، إذ يُحمل الدفاع عن الفصحى على الرجعية والسلفية والانغلاق والحمود والتوحش ، ويكون الانتصار للعامة عصريةً متطورة وتفتحاً لعصر جديد . أو على وجه آخر : تُحمل الدعوة إلى العامة على الإلحاد والحياة ، ويُسَمُّ أنصارها بأنهم جنود غزول لغوى وفكري ، وحملة دعوة خطط لها الاستعمار من القرن الماضي .  
وما أمر هذا كله منكم ببعيد<sup>(١)</sup>

\* \* \*

وفي غشية النقع المثار ، تتعذر الرؤية على كثير منا ، فيغيب عنهم أن حياتنا اللغوية عرفت هذه الظاهرة الطبيعية من قديم ، ويعرفها عصرنا في لغات الشرق والغرب . وتعتقد بهذا أزمنا اللغوية فيميل بعضنا إلى التخفف من قيود الفصحى ويجد في العامة حرية وانطلاقاً ، ويشد الآخرون فينبذون في كتابتهم كل ما يجري على ألسنة العوام بدعوى الابتذال ، ويرصدون للأقلام يحصون أخطاء قد يكون لها وجه من الصواب .  
من حيث لا يمكن ، ولا نملك ، أن نتخلى عن لساننا القومي أو نفرط في فصاحتنا التي يرتن بها وجودنا وبقاؤنا ورقينا الثقافي والفكري وتقدمنا الحضاري .  
كما لا نستطيع ولا نملك أن نلغى اللهجات المحلية التي يفرضها واقع تاريخي وسنن حتمية ؛ بل لا نستطيع كذلك ولا نملك أن نوجد عاميات الأقطار العربية في عامة واحدة هي لهجة أهل القاهرة ، كما دعا إلى ذلك الأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس في ( مستقبل اللغة العامة المشتركة ) .  
ولكن الحديث عن أزمنا اللغوية ، ينبغي أن ينتظر حتى نفرغ من المشكلات الأخرى التي تواجه وجودنا اللغوي في هذا العصر .

\* \* \*

( ١ ) وانظر كتاب « تاريخ الدعوة إلى العامة آثارها في مصر » للدكتورة نفوسة زكريا .



## اللغة العربیة وعلوم العصر

مازال جیلنا منذ وعی ، یسمع دعاوی  
عن عجز العربیة عن أداء العلوم الحدیثة ،  
حتى کدنا ننسى ماضیها العلمی فی عصر  
الحضارة الإسلامیة وفجر العصر الحدیث .

ومنذ عُرِلت عن المیدان العلمی تدریساً  
وتألیفاً ، صارت دعاوی عجزها من المسلمات  
البدیهیة التي لا تحتمل الجدل ، ولم تفلح جهود  
نصف قرن فی رد اعتبارها العلمی إليها . حتی  
عرّبت « موسکو » علوم العصر ، فهل کنا  
نحرث فی البحر ؟ !

في صيف عامنا هذا ، تلقيت رسالة من مطبوعات موسكو العربية ، حسبها أول الأمر مما ينشره « المجمع العلمي للاتحاد السوفيتي » من ذخائر تراث لنا ، لا يرى فيه رواد الفضاء أكفان موتى وأحافير أثرية من عصور غبرت ، ولا يسمح بأن يجعل من اهتمامه بها موضوع جدل أو مناقشة ، ممن قد يتصورون أن جهد المجمع العلمي يجب أن يوفر كله للسباق الظافر إلى بحوث الفضاء .

ثم لما نظرت في كتب هذه الرسالة من مطبوعات موسكو العربية ، وجدت بها جميعاً من صميم علوم العصر التي وُضعت لتكون مرجعاً للدارسين في الجامعات والمراكز العالية للتدريب الفني .

وأوشكت أن أطرح هذه الكتب جانباً ، أو أتخفف من عبئها على خزانة كتي ، فألتبس لها من يهتم بموادها التي لا شأن لي بها ولا اتصال . غير أنني ما لبثت أن ذكرت ما أشتغل به من قضايا حياتنا اللغوية ، فأقبلت على هذه المعربات الواردة من موسكو ، أحاول أن أستبين إلى أي مدى طوَّغ العلماء السوفييت لغتنا العربية ، لأحدث ما وُضلوا إليه في المجال العلمي والصناعي .

بعد أن تحدثت في مادتها العلمية إلى عدد من علماء الاختصاص ، في مقدمتهم عالمنا الحكيم الطبيب « الدكتور محمد كامل حسين » والدكتور « أسامة أمين الخولي » وكيل هندسة القاهرة ، وابنتي « أمينة أمين الخولي » المعيدة بكلية العلوم ، والمتخصصة في الرياضيات الكونية ونظرية النسبية . وكانت مفاجأة لي ، أن أقرأ لغتي في هذه العلوم العصرية ، سليمة واضحة ، دقيقة طيبة ميسرة ، لا تتوقف ولا تتعثر .

وأن أمضي في قراءة المواد العلمية التي انغزلت عنها طويلاً ، مأخوذة بلهفة من يكشف فجأة أن أسراراً من لغته غابت عنه .

بعد كل ما ضج به أفتنا العربي المعاصر ، من دعاوى طنانة رنانة ، تؤكد عجز لغتنا عن أداء علوم العصر ، وتبسط عذر جامعاتنا في الإصرار

على تدريسها بلغة أجنبية . وتندرنا بأن نظل حيث نحن ، متخلفين عن العصر علمياً وصناعياً ، إن نحن جازفنا بتعريب العلوم استجابة لعاطفة قومية ساذجة ، لا مجال لها في عصر العلم ؟

فبلغ علمي ، أن جيلنا مازال منذ وعي ، يسمع هذه الدعوى تدوى كالطبول . فأما الذين جهلوا منا تاريخ الأمة فأيقنوا أنها حق لا ريب فيه ، وأما الذين اتصلوا بماضي الأمة ودرسوا تراثها العلمي ، فقد وقعوا في حيرة من أمر هذه العربية : من أين أصابها العقم وهي التي استطاعت منذ عشرة قرون وأكثر ، أن تستوعب كل التراث الفلسفي والعلمي للأمم القديمة ، وأن تنقل إلى المكتبة العربية ذخائر الفكر والعلم والثقافة لأعرق الحضارات التي عرفها التاريخ ؟

وكيف يعيها اليوم أن تنقل علوماً كان للعلماء العرب ، في عصر الحضارة الإسلامية ، مجدُّ الريادة فيها وتحريرها من المنهج التأملی الفلسفی الذي كان يسيطر على العقلية اليونانية في عصر قيادتها للفكر الإنساني ، فيردها إلى غيبات مما وراء الطبيعة ، مترفعاً أو عاجزاً عن التجربة العملية بمنهجها الاستقرائي الدقيق وأجهزتها المعملية ؟

\* \* \*

ومن وراء ثلاثة عشر قرناً مضيت أساير التاريخ العلمي لأمتي ، وأنا في أخذة العجب لهذه الكتب العلمية المطبوعة بالعربية في موسكو .

من القرن الأول الهجري ، السابع الميلادي ، بدأ اتصال العربية بالتراث العلمي القديم ، في حركة ترجمة لكتب في النجوم ، والفلك ، والطب والكيمياء ، برعاية أمير من البيت الأموي ، هو « خالد بن يزيد بن معاوية » الملقب بعالم بني أمية .

على أن الترجمة لم تلبث أن أخذت في العصر العباسي الأول وضعاً رسمياً ، تدخل به في سياسة الدولة وتعتمد على رصيد سخي من الخزانة العامة ،

وقد استوعبت الحركة في عصر الرشيد وولده المأمون ، ذخائر التراث الفكري والعلمي في الفلسفة والرياضيات والفلك والطبيعة ، لليونان والفرس والهند ومصر .

ثم ما لبثت العقلية الإسلامية أن هضمت ذلك التراث وتمثلته فأعطته روحاً جديدة ، على نحو ما فعلت مدرسة الإسكندرية بالفكر اليوناني حين هاجر إليها .

وتلقى معجم العربية رصيذاً ضخماً من المصطلحات العلمية العربية ، إلى جانب الألفاظ العربية التي أمكن تطويعها للمصطلح العلمي . . ولا يذكر التاريخ أن حركة إحياء التراث العلمي قد انتظرت طويلاً ريثما يستقر رأي المختصين على إمكان نقل العلوم إلى العربية ، أو صدور فتوى من رجال الدين في جواز تعريبها .

وفي طمأنينة واثقة من تأييد العقيدة الإسلامية للعلم وتمجيدها للعقل ، انطلق علماء الدولة الإسلامية ينظرون في الظواهر الكونية بعقلية متحررة من الخصومة العتيقة المريبة بين العلم والدين ، فلم يمض قرن على تعريب التراث القديم حتى قدم هؤلاء العلماء جديداً أصيلاً من العلوم الطبيعية والرياضية ودخلوا التاريخ العلمي رواداً لآفاق لم يستشرف لها من قبلهم .

ومن القرى الثالث الهجري ، التاسع الميلادي ، بدأت المكتبة العربية تتلقى أوليات الكتب العلمية التي ألفها أولئك الرواد ، فاستطاعت لغتنا أن تؤدي كل مصطلحات العلوم الرياضية والطبيعة ، كما تلقت المراصد الفلكية والمعامل التجريبية ، الأجهزة العلمية التي اخترعها علماءنا الذين تم على أيديهم نقل العلوم الطبيعية والفلكية إلى مجال البحث العلمي التجريبي ، وكانت في التراث البابلي مختلطة بالسحر ، وفي المدارس اليونانية داخلية في نطاق البحوث العقلية والدراسات النظرية والفلسفة التأملية . .

وكل هذا مما لا يجهله دارسو التاريخ العربى والحضارة الإسلامية . وقد كان جديراً بأن يصل إلى المنتمين منا إلى الثقافة الغربية ، عن طريق المؤرخين الغربيين للحضارة والعلم . وهم قد شهدوا بأن المرحلة الرائدة لعصر العلم الحديث تمت على أيدي علمائنا فى العصر القيادى للحضارة الإسلامية ، واعترفوا بأن حركة الإحياء (الرينسانس) التى بدأت بها النهضة الحديثة فى أوروبا ، إنما قامت أساساً على ما انتقل إلى الغرب الأوروبى من تراثنا العلمى والحضارى على المعابر التاريخية الكبرى فى العصر الوسيط : الأندلس وصقلية والدردييل ..

كما شهدوا بأن علوم الطب والرياضيات والفلك والكيمياء ، سارت فى الغرب الحديث على الدروب التى عبدها رواد هذه العلوم من أعلام الدولة الإسلامية ، وقد ثبت تاريخياً أن أكثر مؤلفاتهم العلمية والفلسفية كانت تدرس فى جامعات أوروبية إلى القرن السابع عشر ، فى أصولها العربية أو مترجماتها اللاتينية التى تتابعت من القرن الثالث عشر الميلادى .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، يقرر تاريخ العلم أن رسائل « جابر بن حيان - ت ١٩٨ هـ » التى ألفها فى الكيمياء باللغة العربية فى القرن الثانى الهجرى ، عرفت فى أوروبا فى نصوصها العربية وفى ترجمات لاتينية ثم ألمانية ( هوليارد . Holmyard : ١٧٦٨م ) ثم ترجمها إلى الإنجليزية ريتشارد راسل R. Russel فى طبعة لندن ١٩٢٨ .

وكتاب الحساب والجبر والمقابلة ، الذى ألفه « أبو عبد الله محمد بن موسى ، الخوارزمى - ت ٢٣٦ هـ » فى أوائل القرن الثالث الهجرى ، نقله « جيرار الكرىمنى » إلى اللاتينية فى القرن السادس عشر الميلادى ، ثم نشر « روزن : F.Rosen » نصه العربى مع ترجمة إنجليزية فى طبعة لندن ١٨٥٠ .

ونشر « ناجل : A-Nagell » ترجمة الأبواب الخاصة منه بالحساب كما وضع « جاندىز S.gandz » كتاباً عن مصادر جبر الخوارزمى .

وكتاب ( الحاوى لصناعة الطب ) الذى ألفه طيبينا « أبو بكر الرازى

ت ٣١١ هـ « من علماء القرن الثاني وأوائل الثالث الهجري » تحمل أقدم نسخة عربية منه في أوروبا ، تاريخ سنة ١٢٨٢ بمخطوطات المكتبة الوطنية في باريس ( الناسيونال ) وترجمه إلى اللاتينية « جيرار الكريمنى » عام ١٤٨٦ ونص رينو في ترجمته الفرنسية لكتاب إدوار براون ( الطب العربى ) على أن كتب الرازى التى ترجمت إلى اللاتينية بلغت خمسة وعشرين جزءاً .

والجزء الخاص منه بالتشريح : والمعروف بالمنصورى - أهداه إلى المنصور بن إسحاق وإلى خرسان - نشرت ترجمته في طبعة ميلانو ١٤٨١ م ثم نشره « كويننج P. Koning » - مع أجزاء من ( كتاب الكناش الملكى ) لعلى ابن عباس والقانون لابن سينا - في طبعة ليدن سنة ١٩٠٣ ، وترجمه « برونر W. Brunner » إلى الألمانية في طبعة برلين ١٩٠٠ .

ورسالته في الجدرى والحصبة ، ترجمها « فاللا E. Vall » إلى اللاتينية في طبعة البندقية عام ١٤٩٨ م ، و« جاك جويل : J. Goupy » إلى اليونانية في عام ١٥٤٨ م ، وترجمه إلى الفرنسية « جاك بوليه J. Poulet » في طبعة باريس ١٨٦٦ ، ولوكليز ولينوار Leclerc, Lenoir في طبعة باريس سنة ١٨٦٦ ، ونشر « جرينيل W. Greenhill » نصه العربى مع ترجمة إنجليزية في طبعة لندن ١٨٤٨ ، كما نشر النص العربى مع ترجمة فرنسية عام ١٨٩٦ ، وترجمه « كارل أوبيتز K. Opitz » إلى الألمانية في طبعة ليزج ١٩١١ .

وكتاب « على بن العباس - ت ٣٨٤ » كامل الصناعة الطبية : المعروف بالكناش الملكى . ألفه بالعربية في القرن الرابع الهجرى . وترجم إلى اللاتينية في طبعة البندقية سنة ١٤٩٢ ثم في طبعة ليدن سنة ١٥٢٣ .

وبصريات « الحسن بن الهيثم - ت ٤٢٢ هـ » التى ألفها بالعربية في كتاب من سبعة أجزاء بعنوان ( المناظر ) عُرِف مع غيره من مؤلفات ابن الهيثم في ترجمات لاتينية بالعصور الوسطى . ونشر « ريزنر Risner » ترجمة لاتينية كاملة للمناظر بأجزائه السبعة ، عام ١٥٧٣ . كما نشر كارل شوى K. Schoy بالألمانية عام ١٩٢٠ ، رسالة ابن الهيثم في استخراج القطب .

وكتاب (الأدوية البسيطة) للطبيب الأندلسي «ابن الوافد» نشرت ترجماته اللاتينية نحو خمسين مرة .

وكتاب (التصريف) للطبيب الأندلسي «أبي القاسم الزهراوى - ٥١١هـ» ترجم إلى اللاتينية في طبعة البندقية سنة ١٤٩٧ ثم في طبعتي ستراسبورج سنة ١٥٣٢ ، وبال سنة ١٥٤١ م . والجزء الخاص منه بالجراحة ، كان أساساً للتعليم الجراحى بأوربا لبضعة قرون ، وقد نشر نصه العربى مع ترجمة لاتينية في طبعة أكسفورد سنة ١٧٧٨ م .

وقانون «الشيخ الرئيس ابن سينا ، أبى على الحسين - ت ٤٢٨ هـ» فى الطب ، المؤلف بالعربية فى أوائل القرن الخامس الهجرى ، من خمسة أجزاء ، ترجمه إلى اللاتينية «جيرار الكرىمنى» ونشر فى طبعات ميلانو ١٤٧٣ ، وبادوا ١٤٧٦ ، والبندقية ١٤٨٢ ، ثم أعيد طبعه حتى بلغت طبعاته عشرين مرة فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، ونشر نصه العربى فى روما سنة ١٥٩٣ م .

وكتاب «الشريف الإدريسي - ت ٤٥٧ هـ» : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، الذى ألفه بالعربية فى صقلية ، فى القرن الخامس الهجرى ، كان المرجع الجغرافى الأول فى عصر النهضة ، ونشرت أجزاء منه فى ليدن سنة ١٨٦٦ م ، وفى روما مع ترجمة إيطالية سنة ١٨٨٣ ، وفى مدريد سنة ١٠٩١ وت ترجمه دى جويه ودوتز : M. D. Joeje, R. Doz إلى الألمانية فى طبعة أوبسالا سنة ١٨٩٤ م .

ومفردات «ابن البيطار - ت ٦٤٦هـ» فى الأدوية التى ألفها بالعربية فى كتابه (الجامع فى الأدوية المفردة) فى أوائل القرن السابع الهجرى ، عرفت فى نصها العربى بأوربا فى عصر النهضة ، وترجمت إلى اللاتينية قبل أن ينقلها «فون زونتهايمر» إلى الألمانية فى طبعة شتوتجارت (١٨٤٠ : ١٨٤٢ م) و «لوكلير» إلى الفرنسية فى طبعة باريس (١٨٧٧ : ١٨٨٣ م) .

ثم لا أمضى في سرد ما أحيا الغرب من ذخائر تراثنا العلمى<sup>(١)</sup> الذى صد عنها المتفرنجين من مثقفينا ، كونها من حفريات ماضٍ غبر ، ومخلفات موتى أفناهم البلى .

فى الوقت الذى يشهد فيه مؤرخو الحضارة الغربيون ، من أمثال « سارتون وول ديوارنت ، وألدوميللى ، ونللىنو ، وأمارى ، وآدم ميتز ، ولوبون ، ودى بور وأولبرى ، وبراون وكراشكوفسكى ، وتوينبى ، وسيجيريد هونكه ... » أن هذه الذخائر فى أصولها العربية وترجماتها اللاتينية ، هى التى أضاعت للغرب مسراه من ظلمات العصور الوسطى إلى عصر النهضة والعلم الحديث .

\* \* \*

وأدع تاريخ العصر الوسيط ، فأرى لغتنا العربية قد سايرت التقدم العلمى فاستطاعت فى فجر العصر الحديث عندنا ، أن تأخذ دورها فى مدارس العلوم العسكرية والهندسية والطب والزراعة ، فى أوائل القرن الماضى . وحين اقتضت ظروف المرحلة الاستعانة بأساتذة من علماء فرنسا - مثل كلوت بك الطيب ، والدكتور فيجورى عالم النبات - كان المترجمون يعربون مؤلفاتهم ، ويحضرون معهم فى قاعات الدرس لترجمة دروسهم إلى اللغة العربية التى ظلت لغة التعليم الرسمية إلى بداية عصر الاحتلال . ولم يفكر أعضاء البعثات العلمية الأولى . الذين أوفدوا إلى فرنسا لدراسة العلوم الحديثة ، فى أن يعودوا فيلقوا دروسهم على طلاب المعاهد العليا بلغة أجنبية ، بل قدموا إلى مكتبتنا العلمية رصيداً ذا بال من معرباتهم ومؤلفاتهم .

(١) من أقرب المراجع لهذا الموضوع ، كتاب ( العلم عند العرب ) لألدوميللى ، ترجمة د . عبد الحليم النجار ، د . محمد يوسف موسى ط دار القلم بالقاهرة ١٩٦٢ . وتجد فى الفصل الأول من كتاب الدكتور توفيق الطويل ( العرب والعلم فى عصر الإسلام الذهبى ) ١ - النهضة العربية ١٩٦٨ ، دراسة وافية لهذا الموضوع مع فهرس لمصادر البحث ومراجعته .

وكتاب كراشكوفسكى : ( تاريخ الأدب الجغرافى العربى ) فى ترجمته العربية للدكتور صلاح الدين هاشم ، نشر جامعة الدول العربية .



ألف الجراح الشهير « محمد على البقلی » كتباً عربية في الجراحة ،  
و « محمد الشافعی » في الأمراض الباطنية ، و « محمد ندى » في النبات والحيوان  
والجیولوجية والطبیعة ، والصیدلی « علی ریاض » في الصيدلة والسموم ،  
و « محمد الدری » في الجراحة وفي الأمراض الوبائية ، و « سالم سالم »  
في الطب الباطنی . و « محمود الفلكی » في التقاویم والمقاييس والفلك ،  
و « محمد بیوی » في الحساب والجبر والمثلثات والهندسة الوصفية . . . . .

وشارك علماء اللغة في هذه النهضة العلمية ، فكان منهم خبراء متخصصون  
في تحرير الكتب العلمية وتصحيحها ، منهم « محمد عمر التونسي » مؤلف  
( معجم الشذور الذهبية في الألفاظ الطبية ) و « إبراهيم الدسوقي » الخبير  
بمصطلحات العلوم الرياضية ، و « رفاعه رافع الطهطاوی » وأحمد فارس  
الشدياق ، والمعلم بطرس البستاني « في ألفاظ الحضارة والفنون <sup>(١)</sup> .

وكان تراث هذا الجيل من العلماء المصريين ، بين أيدي المستشرقين العلماء  
الذين وفدوا على الشام في النصف الثاني من القرن الماضي ، وشاركوا في هذه  
النهضة العلمية بتدريس العلوم الحديثة والتأليف فيها باللغة العربية .

وقد اشتهر منهم « الدكتور كرنيلیوس فاندليك » الذي درس في بيروت  
بالعربية ، الكيمياء والجويات وعلم الأمراض . وعرفت مؤلفاته العربية :  
الباثولوجية في مبادئ الطب البشري ، والنقش في الحجر ، في تسع مجلدات  
صغيرة ، كل مجلد منها موجز في علم من العلوم الحديثة ، كالكيمياء والطبیعة  
والنبات والجیولوجية والفلك والجغرافية الطبيعية . وله كتب عربية أخرى

(١) من مراجع هذا الموضوع :

( تقويم النيل ) و ( التعليم في مصر ) لأمين سامی : ط القاهرة .

( تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر ) لأحمد تيمور ١٩٤٠ .

( المصطلحات العلمية في اللغة العربية ) للأستاذ مصطفى الشهابی : معهد الدراسات الغربية ١٩٥٥ .

( تاريخ التعليم في مصر ) للدكتور أحمد عزت عبد الكريم - القاهرة ١٩٤٥ .

في الرياضيات ، وأصول الجبر ، والأصول الهندسية ، وأصول علم الهيئة ،  
ومحاسن القبة الزرقاء في الفلك . . .

و «الدكتور جورج بوست» قام بتدريس الجراحة والمواد الطبية والنبات  
باللغة العربية . ومن مؤلفاته فيها : المصباح الوضاح في صناعة الجراح ،  
والأقرباذين والمواد الطبية ، ومبادئ التشريح والصحة والفسولوجية ، وكتاب  
من جزأين في مبادئ علم النبات . وقد ألف معجماً قيماً باللغة الإنجليزية في  
( نبات سورية وفلسطين والقطر المصري وبواديها ) ذيله بفهرس للأسماء العربية ،  
فصحى أو عامية ، لمصطلحات المعجم ، عددها نحو ألف وخمسمائة اسم .  
و «الدكتور يوحنا ورتبات» علّم الطب في كلية بيروت ، باللغة العربية ،  
وألّف بها كتب التشريح ، والفسولوجية ، وحفظ الصحة . ورسائل عديدة  
في مسائل طبية <sup>(١)</sup> .

. . .

إلى هنا تنتهى خلاصة المعروف من تاريخنا العلمى ، قبل أن تتسلل  
إلى أفقنا دعوى عقم العربية وعجزها . .

أما ما بعد ذلك ، فيشبه أن يكون قصة محيرة يشق على الدارس منا أن  
يميز خيوطها المتشابكة في نسيج معقد أشد التعقيد !

من أين بدأت هذه الدعوى ؟

وكيف سارت ؟ وإلى أين انتهت ؟

من العسير أن نستوعب القصة في أقطار الوطن العربى ، وقد أكتفى  
في هذا المجال المحدود ، بتتبع فصولها في مصر التى كانت مركزاً للغزو  
الفكرى بالشرق ، بحكم دورها القيادى في فجر اليقظة العربية ، وإن تكن  
القصة قد تكررت بصورة أو بأخرى في سائر أقطار الوطن العربى .

( ١ ) الأستاذ مصطفى الشهابى . . المصطلحات العلمية في اللغة العربية ص ٤٢ ط المعهد .

مع بدء نكبتنا بالاحتلال ، عُرِزَت اللغة العربية عزلاً تاماً عن تدريس العلوم الحديثة التي فرض المستعمر دراستها بلغته . وسائر هذا الانقلاب ترسيخ لفكرة عجز العربية عن تدريس أى علم حديث ، وإنما حسبها أن تبقى في الكتابيب والمعاهد الدينية والمدارس الأولية المحجوبة تماماً عن الثقافة العلمية الحديثة .

ثم ما لبثت الفكرة أن جاوزت مجالها المحدود ، في القول بعجز العربية عن العلم الحديث ، إلى دعوى تعلن أن تخلفنا العلمى والقومى والحضارى في عصور الانحطاط ، إنما يرجع إلى تشبثنا بلغة بدوية من أحافير عصر الناقة ، لا تصلح لغير حذاء الإبل والوقوف على الأطلال ، ومحكوم علينا أن نظل نعيش بعقلية الريفيين والبدو في مجتمع الزراعة والرعى ، إذا لم نهجر هذه اللغة العتيقة إلى لغة عصرية حية .

وقد اختلطت الدعوى في بعض مراحلها الأولى بالدعوة إلى اللغة العامية ، فالدكتور « سينا » كان يرى لنا أن نهجر الفصحى السائرة إلى الموت ، إلى اللغة العامية على أن نكتبها بحروف لاتينية .

لكن الحملة على الفصحى سارت بعده في طريقين : أحدهما يدعو إلى العامية وقد مضى القول فيه ، والآخر يدعو إلى لغة أجنبية حية بديلاً للعربية المحتضرة ، وهو ما يتصل بمشكلة لغتنا والعلوم الحديثة .

\* \* \*

مع بواذر الثورة العرابية ، رَوَّجَ عدد من المثقفين العرب فكرة استبدال لغة أجنبية بلغتنا العربية ، وإذ كان قادة الأمة قد وجدوا في العامية وسيلة إلى التعبئة الثورية للوعى الشعبى ، فإنهم لم يجدوا في الدعوة إلى لغة أجنبية سوى مسخ لشخصية الأمة وقضاء عليها .

وبدأ « عبد الله النديم » من العدد الأول من (التنكيث والتبكيث) حملته على دعاة اللغة الأجنبية ، بحوار ساخر بين ابن البلد وبين « عربى تفرنج » ثم كتب في العدد الثانى مقالا عنوانه " إضاعة اللغة تسلم للذات " سأل فيه

الناطق بالضاد ، بم يستعوض عن لغته وما لها من مثيل ؟ أعن جهل بتاريخ لغتنا وأسرارها وتراثها وحيويتها ؟ أم عن افتتان بحسن في لغة أجنبية حديثة ليس في لغتنا ؟ ثم استطرد يقول : « إن اللغة سر الحياة ، والحد الفارق بين الإنسان والبهيم . . . فهي أنت إن كنت لا تدري من أنت ، وهي وطنك إن لم تعرف ما الوطن . أما كونها أنت فلائك بها تعرف أهلك ، وأنت إذا فقدتهم صرت وحيداً غريباً في الوجود لا يقول لك قائل من أنت ، وأما كونها وطنك فإنه إنما يعمر ويسمى وطناً بأبنائه ، ومن فقد المواطن فقد الوطن .

« أسمعك تقول : إذا فقدت لغتي اعتضتُ عنها بأخرى . اعتضتَ ولكن بما أضاع منك الوطنية والمعتقدات الدينية . . . فتبَّيت وأنت وطني حر ، و تصبح وأنت في يد أجنبي يصرفك كيف يشاء . . . لأن إضاعة اللغة تسليم للذات » .

وهنا تقدم « الأستاذ أمين شميل » فدخل ميدان المعركة بكل وزنه الثقافي ومكانته الأدبية ، فلم يكتف بأن نستعير لغة أجنبية لتدريس العلوم الحديثة والتأليف فيها ، بل نادى بأن نتخلي عن العربية ، فصحي أو عامية ، إلى لغة أجنبية تحيينا علمياً وثقافياً واقتصادياً . وأكد عقم كل محاولة تبذل لإحياء لغتنا العربية المقضى عليها حتماً بالموت !

وكانت وجهة نظره :

— أن اللغة أداة للتعبير . والمرء لا يقيد بلغة خاصة إذا ما استطاع أن يصل إلى الهدف وهو التعبير عن نفسه . وإذا كانت اللغة العربية ليست أداة صالحة للتعبير لضعفها وضعف أهلها ، فلا لوم عليه إذا تركها إلى غيرها من اللغات الأجنبية لأن الإنسان منطور على طلب التقدم .

— أن اللغة العربية سائرة حتماً إلى الموت كما ماتت لغات من قبلها كانت لها خصائص ومميزات مثل اللغة العربية . ومع ذلك لم تستطع أن تتغلب على الموت . فبأي شيء نستبقى العربية ونغري بالتمسك بها : بحسن كلام أم بلطافة

لفظ أم بكثرة مواد لغوية وفصاحة عبارة ؟ أليس ذلك كله كان كثيراً في لغات ماتت كال يونانية والسريانية والكلدانية والقبطية ، دون أن يقبها من الموت شيء ؟

— أن إحياء اللغة العربية بعد موتها أمر معجز عسير غير مأمون العواقب فضلاً على كونه غير مجد ، من الناحيتين المادية والعلمية على السواء . وأننى لنا أن نكون خيراً من أصحاب تلك اللغات الميتة ، ولسنا سوى بشر من صفاتهم العجز ، وخلفنا مهام هذه الحياة تشغلنا بطلب الرزق ؟

« وهل الاشتغال بإحياء ما قضت الحياة بموته يؤتينا خبزاً ؟ اذهب إلى دوائر أحكامنا ومراكز تجارنا ، وانظر بكم يؤجر الكاتب الضادى والكاتب الدالى ، ثم ألف لك كتاباً واجعله كله ضاداً ، واصرف فيه عمرك واعرضه على قومك ، فترى ما لبضاعتك من رواج .

« أما اللذة العقلية التى أحصلها من درس لغتى لأفهم كتب علماءها الجليلة وأملأ صدرى من فرائد أقوالهم البديعة ، فإنك تعلم أولاً أن كل لذات علوم الدنيا لا تملأ بطن جائع ، ولا لذة عقلية لمن لا يحسن غذاء جسده . وقد نسيت ثانياً ، أن مؤلفاتنا التى نفتخر بها — يعنى ذخائر تراثنا — قد نهبت لفظاً ومعنى إلى مراكز الأمم النامية — يعنى : الراقية المتقدمة — فزادوا عليها أموراً كثيرة ، فهى حية فى تلك الأمم ميتة عندك ، لأسباب منها : عدم صحة النسخ فكتبنا كلها أغلاط . ومنها عدم وجود من يفهمها الآن وقد مات من كان يعرف معانيها ، ومنها أن كثيراً قد نُسخ بما أظهرته التجارب وقام غيره مقامه . ومنها الزيادات الجوهرية التى حدثت بعدهم ويجب معرفتها مما لا وجود له فى الكتب ؟ ومنها عدم وجودها كلها إذ لم يبق منها إلا الطفيف .

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاًها وحتى سامها كل مفلس . وهذا الهزال الباقى إذا كنت سعيداً وعثرت عليه ، تلتزم بدفع ثمنه

مالا جزيلًا ، ومن أين لك المال يا أخى وأنت تتجر ببضائع أكلتها العثُ  
وبدلتها الموضة ؟

— أن من أراد كسباً مادياً وعلمياً فليختر لغة غير العربية « أية لغة  
أجنبية إن كتبت بها راجت كتابتك ، وإن طلبت تحصيل علم فيها وجدت  
كتباً لا تحصى في غاية الضبط والكمال وامتلات بها خزانتك . منها كتب  
أجدادك قد تصفحها أضدادك ونقحوها وشرحوها وزادوا فيها ، ويسروها لك  
بشمن أرخص من الفجل . فإذا اشتبه عليك معناها وجدت ألوفاً يكشفون لك  
غوامضها ويحلون لك عقدها . نعم إن في لغة الطفولية لذة ووطنية ، إلا أن  
الوطنية الحققة ، ودعنا من الكلام الفارغ ، قائمة في المعاني لا في الألفاظ  
أعنى في صيانة حقوق الأفراد وإحكام العدل والتسوية والالتفات إلى الأمة  
ولغتها وعدم إعطاء خبز بنينا لغيرهم ، فإذا فعلت هيثتنا ذلك هان علينا كل  
شئ ، وإلا فأنت تضرب في حديد بارد ، وكانت الوطنية قولهم : ضرب  
زيد عمرًا ، واشتعل الرأس شيبًا » .

وقد نشر النديم مقال أمين شميل بعنوان "كلمة غيور على لغته" في  
العدد الخامس من (التبكيك والتنكيك : ١٠ / ٧ / ١٨٨١) .

ثم بدأ الرد عليه ، فرأى أن يفرغ أولاً من بيان حقيقة أن إضاعة اللغة  
تسليم للذات ، واستغرق الشرح مقالاً مطولاً في العدد الثالث عشر من  
التنكيك (١٨٨١/١١) حيث أوضح أن من يتخلون عن لغتهم يفقدون  
الجنسية رأساً ويتجنسون باللغة الطارئة ، « فإذا كانت أمة مستقلة وغيرت  
لغتها بغيرها ، ضعف فيها الاستقلال بقدر ما يضعف من لغتها ، فإذا تم التغيير  
فقدت الاستقلال ووقع فيها الخذلان » .

لكن أحداث الثورة العرابية لفتته في دوائها ، حتى إذا عاد إلى الظهور  
بعد أن اختفى تسع سنين ، كان الاحتلال الإنجليزي قد تسلط على مرافق البلاد  
الحوية ، وعزل اللغة العربية عن المجال التعليمي والعلمي ، وفرض اللغة  
الإنجليزية لغة التعليم .

وإذ كانت السلطة حين رخصت للنديم في إصدار صحيفة «الأستاذ» قد حرمت عليه الاشتغال بالسياسة ، جعل منها النديم مجالا للدفاع عن لغة الأمة ولسان قوميتها ، وحشد طاقته للجهاد في معركة الغزو اللغوي الذي كان ذريعة لترسيخ الاستعباد السياسي والقضاء على الأمة .

وبدأ نضاله من حيث انتهى به القول في إضاعة اللغة تسليم للذات ، عام ١٨٨١ م ، فاستأنف رده على المقال الذي كتبه أمين شميل قبل نحو أحد عشر عاماً . فلم يلمه على ترك اللغة العربية وليست لغة الإنجيل كتاب دينه ، ولكن ماذا عن القرآن ؟

ورد على المقارنة بين فقر الكاتب الضادى وهوانه لدى الحكام وأصحاب العمل ، مع غنى الكاتب الدالي وقيمه ، « بأن الأمة ليست كلها في دوائر الحكومة ولا متجرة مع أوروبا . وإنما ألبأ بعض الأمة إلى تعلم اللغات الأجنبية سوء تصرف بعض الحكام ، فبدل أن يتكلف الأوربي المنتقل إلى بلادنا انجاراً واستيطاناً تعلم لغتنا ، ليعاملنا أو يخاطبنا بها ، علموا هم بعض الأمة ليعخدم الأوربي ويساعده على نفوذه باتساع نطاق لغته فينا . فحق لهذا الفاضل — الأستاذ شميل — أن يبكى الذين أحيوا لغة الأجانب بإماتة لغة البلاد . ولكن لو فرض وتعلمنا اللغات الأجنبية وتكلمنا بها عند الحاجة إليها ، لوجب أن نحافظ على لغتنا لبقاء الدين والجنس ببقائها » .

وحديث « شميل » عن ذخائر تراثنا التي رأى أن يلتصقها من شاء منا لدى الأجانب التي نهبها وفهموها وشرحوها ويسروها للقراء ، ردّ عليه النديم بأن في كلامه إقراراً بأن الإنجليزى أو الفرنساوى ، لم يفهمها إلا بعد أن تعلم لغتنا وأتقن معرفة قواعدها ، وإلا استحال عليه أن ينطق بالكلمات العربية من مخارجها فضلاً عن فهم معناها ، « فإذا كان الأجنبي يتعلم لغتنا لينقل ما فيها إلى لغته ، أفلا نتعلمها للمحافظة على ما عندنا ؟ وإذا كان الأجنبي يقدر على فهم معاني لغتنا وهى أجنبية عنه ، أفلا نقدر على فهم مؤلفات علمائنا ونحن من عشيرتهم ؟ وأما تعليقه بالأغلاط — في كتب تراثنا — فأظنه من باب

التنكيت فإن الذين تمدح بهم من الإفرنج ما أخذوا تلك العلوم إلا من هذه الكتب ، فيلزم أن تكون علومهم فاسدة لأنها مأخوذة عن أغاليط لا صواب فيها ! فإن قيل إنهم صححوها وهي بغير لغتهم ، قلنا : أفلا يقدر أصحاب اللغة على تصحيح كتبهم وهم أدرى بها من غيرهم ؟ وأما قوله : قد مات من كان يفهم معانيها ، فإنه منقوض بنفس القائل ، فإنه أحد من يتكلمون باللغة العربية وله اقتدار على فهم معاني تلك المؤلفات والأخذ منها والنقل عنها ، كما فعل في مؤلفاته العربية <sup>(١)</sup> مع كونه غير مشغول بجميع العلوم العربية ، فالعلماء القاثمون بتعلم تلك العلوم ودراستها يعرفونها حق المعرفة ، ولهم على كل كتاب شروح وحواش ، تشهد بذلك الكتب التي ألفت من القرن الأول الإسلامي إلى الآن . على أن العلوم التي أهملت في الشرق كالطب والهندسة والجغرافية وغيرها واستعملت في الغرب ، قد ترجمها الشرقيون إلى لغتهم وقرأوها في مدارسهم . فهذه المدارس المصرية قرئت فيها العلوم القديمة والمترجمة ، ولم يفهموا شيء مما كتب في أوروبا ، ولم تتغير كيفية التدريس من اللغة العربية إلى اللغة الفرنسية أو الإنجليزية إلا في هذه السنة ، وهي نشأة مؤقتة لا تمكث إلا بقدر ما يطالب المصريون بحياة لغتهم التي يصرفون أموالهم على المدارس التي هي فيها ، ولا يعارضهم في ذلك معارض ، فإن الأجنبي لم ينفق على المدارس درهماً ولا ديناراً حتى يحتم علينا لغته التي لا حاجة لنا بها في التدريس »

(الأستاذ : ٢٠ - ٣ / ٦ / ١٨٩٣)

\* \* \*

وهذا الحوار بين النديم وشميل ، يكفي هنا لإعطاء فكرة عن أبعاد المعركة وأسلحة الفريقين فيها ، لكي نتابع قضية العربية والعلوم الحديثة

---

(١) ألف الأستاذ أمين شميل في القانون والسياسة والأدب . ومن مؤلفاته : (الوافي) في تاريخ المسألة الشرقية ، والمبتكر في الأدب ( ٥ مقامات + ٢٥ قصيدة ) ونظام الحكومة الإنجليزية ، والدرة الجلية في المباحث القضائية .



فترى أنه بقدر ما رفض الضمير القومى التخلّى عن لغة الأمة ، عجز عن التصدى لفرض العربية على المجال العلمى ، وقد عزّلت تماماً عن هذا المجال ، حتى اعترف الوطنيون أنفسهم بقصورها عن أداء العلوم الحديثة ما لم تُبدّل جهود مخلصه لعلاج هذا القصور .

ويمكن القول إن الشعور بمحنة العربية ، بدأ منذ أغلقت المعاهد العلمية ومدرسة الألسن فى عصر سعيد ، فى عام ١٨٦٠ دعا « أحمد فارس الشدياق » فى (مجلة الجوائب) إلى أن تتأزّر جهود المشايخ والعلماء ، لتعريب المصطلحات فى العلوم والفنون التى لم يكن لسلفهم معرفة بها . وحسّمل الدعوة من بعده « عبد الله فكرى » فى ( الآثار الفكرية ) عام ١٨٧٦ ، ثم تولّاها النديم فى ( الأستاذ ) من عام ١٨٩٢ لافتاً إلى واجب القائمين بالأمر فىنا « فى أن يحولوا بين اللغة وموتها بإحداث جمعية من مشايخ الأزهر وأفاضل العلماء العارفين باللغات الأجنبية ، ليضعوا للاصطلاحات الطبية والكيميائية والهندسية ومفردات الكلام ، أسماء عربية تدرس بها تلك العلوم » .

ووجدت الدعوة استجابة عملية ، فى أوائل عام ١٨٩٣ اجتمع فى دار السيد محمد توفيق البكرى عدد من علماء العصر وكتابه ، لدراسة مشروع المجمع ، وهم المشايخ : الشنقيطى ، ومحمد عبده ، وحزمة فتح الله ، وحسن الطويل ، والسادة : حفى ناصف ، ومحمد بيرم ، ومحمد المويلحى ، ومحمد عثمان جلال ، ومحمد كمال .

ووضعوا لأئحة للمجمع ، وانتخبوا السيد البكرى لرياسته ، ومحمد بيرم لأعمال السكرتارية . وعقدوا سبع جلسات ناقشوا فيها عدداً من المصطلحات العلمية ، وكان تاريخ آخر الجلسات يوم ١٧/٢/١٨٩٣ .

وفى العام نفسه ، ظهرت ( مجلة المهندس ) فقدمت تجربة عملية لكتابة البحوث العلمية باللغة الصفحى ، تحدياً ( لمجلة الأزهر ) ودحضاً لدعوى من قالوا بعجز العربية عن أداء العلوم الحديثة . وقد تولى « المهندس أحمد كامل »

تحرير القسم الهندسى والرياضى ، و « الدكتور مهدى » تحرير القسم الطبى ،  
و « حسن بك حسنى » تحرير القسم الفلسفى .

\* \* \*

وشهدت مرحلة اليقظة ، حركة تطور فى أساليب العربية ونهوض باللغة  
استوعبها « الأستاذ محمد خلف الله » فى كتاب ( معالم التطور الحديث فى  
اللغة العربية وآدابها - ج ١ القاهرة ١٩٦١ ) .

ثم شهد النصف الأول من هذا القرن ، عدداً من علمائنا ، عكفوا  
فى إخلاص باذل على وضع معاجم للعلوم ، من أشهرها معجم الدكتور  
محمد شرف ، بالإنجليزية والعربية ، فى العلوم الطبية والكيمياء والطبيعية والمواليد  
والنبات . ومعجم الحيوان والمعجم الفلكى للدكتور أمين المعلوف ، بالإنجليزية  
والعربية أيضاً . ومعجم أسماء النبات للدكتور أحمد عيسى ، بالعربية والفرنسية ،  
ومعجم الألفاظ الزراعية للأمير مصطفى الشهابى ، بالعربية والفرنسية . ونشرت  
مجلات المرحلة - كمجلة المجمع العلمى بدمشق ، ومجلة لغة العرب ببغداد ،  
ومجلة المقتطف بمصر - بحثاً علمية واتسعت لكثير من المصطلحات العربية أو  
العربية . واشتغل عدد من أعلام العصر بتحقيقات لغوية للألفاظ العلمية ،  
منهم الأستاذ : أحمد تيمور وأحمد زكى فى بحثهما فى ألفاظ الحضارة وأسماء  
البلدان ، والسيد عبد الحميد البكرى فى تحقيقه لألفاظ الفلك . ونشر الدكتور  
مأمون الحموى بحثاً فى المصطلحات الدبلوماسية ( دمشق ١٩٤٩ ) والدكتور  
عدنان الخطيب فى لغة القانون ( دمشق ١٩٥٢ ) والدكتور بشير فارس فى  
مصطلحات فن التصوير ( مصر ١٩٤٥ ) .

وشارك العلماء المستشرقون فى هذه الحركة ، منهم الأستاذ جريفل  
فى ( الحيوانات البحرية والنهرية فى سورية ولبنان ) والدكتور ماير هوف  
فى تحقيق أسماء نباتات طبية ، وشرح أسماء العقار لابن ميمون الأندلسى .  
لغتنا والحياة

والدكتور رينو والأستاذ كولن ، في شرحهما لمخطوط عربي مجهول المؤلف ، عنوانه ( تحفة الأحياب في ماهية النبات والأعشاب ) .

وتألفت لجان في مصر ، وسورية والعراق ، لوضع مصورات جغرافية بأسماء عربية صحيحة ، وتعريب المصطلحات العسكرية . وتألفت الجامعات الرسمية لتدعيم هذه الحركة ورعايتها : فتأسس المجمع العلمي بدمشق عام ١٩١٩ ، والمجمع اللغوي بالقاهرة عام ١٩٣٢ ، ثم المجمع العلمي ببغداد عام ١٩٤٧<sup>(١)</sup> .

• • •

ولكن هذه الجهود المبذولة على طول نصف قرن ، لم تستطع أن تعيد اللغة العربية إلى مجالها الحيوي في الدراسة العلمية ، بل لم تستطع كذلك أن تحسم الجدل القديم حول صلاحيتها لتدريس العلوم الحديثة والتأليف فيها . وقد خلا ميدان المعركة من الأجانب بعد أن خرج منه ويلكوكس وويلامور ، ودخله الأستاذ سلامة موسى ، فردد القول بمسئولية اللغة العربية عن تخلفنا العلمي إلى جانب مسئولياتها عن تخلفنا الحضاري والاقتصادي والاجتماعي ، وعن الجريمة والجنون .

وكان الأستاذ واعياً لكل ما يشكو المصلحون الوطنيون من رواسب عصور التخلف والانحطاط ، في المجتمع وفي اللغة ، حريصاً على تتبع ما يقترحون من علاج لمشكلات حياتنا اللغوية . وقد أخذ من هذا كله ، ما يؤيد به حملته على هذه اللغة المسئولة عن كل أمراضنا !

واشتدت حملته على " الأحافير اللغوية " وسخريته بالزهو المضحك لمن يعتقد أن لغتنا تستطيع أن تجتاز نفسها . وهذا الاعتقاد من أكبر الأسباب للفاقة الثقافية التي نعانيها في وقتنا : « لأن هذه اللغة لا ترضى مثقفاً في العصر الحاضر ، إذ هي لا تخدم الأمة ولا ترقيا ، لأنها تعجز عن نقل مائة

( ١ ) لمزيد تفصيل عن جهود العلماء والجامع في هذا المجال ، اقرأ كتاب الأستاذ مصطفى

الشهابي ( المصطلحات العلمية في اللغة العربية ) ط المعهد ١٩٥٥ .

من العلوم التي تصوغ المستقبل « (١) ».

واضطرب بين الدعوة إلى العامية ، وبين دعوته إلى لغة علمية ، ليست لغة القرآن وتقاليد العرب البالية ، مع الإلحاح في النصيح لنا باستعمال الحروف اللاتينية .

وقد مضى القول في العامية ، ونعرض هنا للغة العلمية ، من حيث اتصالها بموضوع هذه المحاضرة ، فراه يتصور أننا سوف نتطور من العقلية الزراعية البدوية ، إذا اشتغلنا بتأليف الكتب في أقطاب الصناعة في عصرنا ، بدلا من التأليف في أعلام تاريخنا .

ويلقى هذا السؤال :

« نحن نحاول أن نرقى بأمتنا ، ولكن ما معنى الرقى ؟ »

ثم يجيب : « هذا الرقى يعني أننا نعيش المعيشة العلمية حيث تستند الحقائق إلى البيانات لا إلى العقائد . . . فيجب لهذا السبب أن تكون لغتنا علمية وثقافتنا كوكبية وكتابتنا لاتينية » .

أما اللغة العلمية ، فتعني عنده « أن كتب المطالعة في المدرسة والبيت يجب أن تتناول موضوعات البيولوجية والاجتماع والتراجم والكيمياء والفلكيات والاقتصاد والصناعة ، بدلا من مقطوعات أدبية من كتب العرب قبل ألف أو خمسمائة سنة » - ٩٦

كما تعني أن نكف عن الأساليب الأدبية ، لنكتب بلغة الأرقام واللغة العصرية.

وهذه نماذج من مشتقاته من هذه اللغة العلمية :

من الطب : اللغة هي الجهاز العصبي للمجتمع .

- خوف الغارات قد نفذ إلى جميع مسام المجتمع .

- يمشى في ثباقل روماترعى .

— الوقف كالحثرة فى الدورة الاقتصادية المصرية .

— يعانى تحمة ذهنية .

من الكيمياء : كان مذهب التطور من أعظم الحماثر الاجتماعية .

ومن الطبيعة : الاستقلال هو بؤرة الاشتعال الوطنى .

— من الحركات المغنطيسية التى تجذب الشبان ..

— الطاقة الموطرية فى الكلمات .

ومن الميكانيكا : يرى المصباح الأحمر أينما سار .

— الحرب هى قاطرة التاريخ لأنها تعجل التطور .

ومن الموسيقى : الحياة تفقد إيقاعها فى المرض .

ومن السيكلولوجية : تجرمت الفكرة عندى .

ولست أدرى ما قيمة هذه العبارات الركيكة التى ساقها فى باب " اللغة  
العصرية — ص ٧٥ " ونحن السلفيين سدنة لغة القرآن ، تجرى أقلامنا بأساليب  
بيانية من مثل قولنا : نبض المجتمع ، وحسب العربية ، وغشية الدوار ، وأخذة  
المفاجأة ، واتزان رأى ، وسراب الوهم ، والمناخ الفكرى للعصر ، وفلك القصور  
وقطب الجماعة ، ومحور الموضوع ، وإعصار التتار ، وتيارات الغزو ، وكثافة  
الحس ، وشلل الحركة ، وعقم الوجدان . . .

دون أن تشفع لنا هذه « اللغة العلمية » لدى من ينكرون علينا سلفيتنا  
اللغوية ، بل ما نزال فى رأيهم نعيش بعقلية بدوية زراعية ، ولم تفلح هذه  
الأساليب فى نقلنا إلى مناخ العصر !

وليسوا بحيث يدرون أن لغة القرآن التى زعموا أنها تنأى بنا عن روح  
عصرنا ، حافلة بروائع من آيات البيان الأعلى ، تستخدم ما يسمونه اللغة  
العلمية ، على نحو يتضائل دونه كل ما حشدوا ويحشدون من عباراتهم  
العصرية الهابطة . كمثل آيات :

« رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت » - محمد : ٢٠

« أولئك الذين لعنهم الله فأصمَّهم وأعمى أبصارهم » - محمد : ٢٣ .  
 « أعمالهم كرمادٍ اشتدت به الريح في يوم عاصف » إبراهيم : ١٨ .  
 « أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » .  
 النور : ٤٠

« يكاد سنا برقه يذهب بالابصار »  
 النور : ٤٣  
 « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً »  
 النور : ٣٩

« ... يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون . قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » .  
 يوسف : ٤٣

« أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين . مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون . صمُّ بكم عمى فهم لا يرجعون . أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا . . . »  
 البقرة : ١٨

\*\*\*

فأين من هذه الآيات المحكمات ، تجرئُم الفكرة وقاطرة التاريخ والحثرة في الدورة الاقتصادية ، والطاقة الموطرية في الكلمات ؟ ما أرى الأستاذ سلامة موسى ، قدم حلاً لأزمة الغريبة واللغة العلمية ، وهو لم يلبث أن ترك هذه العبارات العصرية ليدعو إلى « الخط اللاتيني » الذي انتهت إليه آماله

في رقي الأمة وتطورها وإصلاح المجتمع ، وحامت حوله أحلامه في عالم سعيد أو « يوتوبيا الضائعة » .

وقد انتظر بدعوته حتى ظهر الأستاذ عبد العزيز فهمي باقتراحه في العدول عن الحروف العربية إلى الحروف اللاتينية قصداً إلى التيسير في ضبط الكتابة وتحديد حركات الحروف بما يغني عن ضبطها بالشكل . فتلقف الكاتب المصلح « الأستاذ سلامة موسى » هذا الاقتراح وقال :

« هذا السخط الذي يتولانا كلما فكرنا في حالنا الثقافية وتعطيل هذه اللغة لنا عن الرقي الثقافي ، تزيد حدته كلما فكرنا وأدى بنا التفكير إلى اليقين بأن إصلاحها مستطاع . والقلق عام ولكن الجبن عن الابتكار أعم . ولذلك قلما نجد الشجاعة للدعوة إلى الإصلاح الجريء إلا في رجال نابيين لا يبالون الجهلة والحمقى ، مثل قاسم أمين أو أحمد أمين في الدعوة إلى إلغاء الإعراب ، أو مثل عبد العزيز فهمي حين يدعو إلى الخط اللاتيني ، والواقع أن اقترح الخط اللاتيني هو وثبة المستقبل لو أننا عملنا به لاستطعنا أن ننقل مصر إلى مقام تركيا ( ! ؟ ) التي أغلق عليها هذا الخط أبواب ماضيها وفتح لها أبواب مستقبلها .

« وهذا الاقتراح يحتاج أولاً إلى إلغاء الإعراب . وميزاته :

أولاً : الاقتراب من التوحيد البشري لأنه وسيلة القراءة والكتابة عند المتمدنين الذين يملكون الصناعة ، أي العلم والقوة والمستقبل . وهذا الخط تأخذ به الأمم التي ترغب في التجديد كما فعلت تركيا . ومن المرجح أن يعم هذا الخط العالم كله قريباً .

وثانياً : حين نصطنع الخط اللاتيني ، يزول هذا الانفصال النفسي الذي أحدثته هاتان الكلمتان المشثومتان شرق وغرب ، فلا نتعير من أن نعيش العيشة العصرية . ولا بد أن يجر هذا الخط في أثره كثيراً من ضروب الإصلاح الأخرى مثل المساواة الاقتصادية بين الجنسين ، ومثل التفكير العلمي والعقلية بل النفسية العلمية أيضاً ، إلخ .

وثالثاً ورابعاً وخامساً . . .

وسادساً : أننا عندما نكتب بالخط اللاتيني نجد أن تعلم اللغات الأوروبية قد سهل أيضاً ، فتنفتح لنا آفاق هي الآن مغلقة .  
وبالجملة نستطيع أن نقول إن الخط اللاتيني هو وثبة في النور نحو المستقبل ، ولكن هل العناصر التي تنتفع ببقاء الخط العربي والتقاليد ترضى بهذه الوثبة ؟ <sup>(١)</sup>

\* \* \*

فهل الأمر حقيقة يمثل هذه البساطة ؟

وهل استطاعت تركيا - القدوة والمثال - أن تبلغ بحروفها اللاتينية من التقدم الصناعي والرقى العلمي ما لم تبلغه اليابان أو الصين الشعبية ، بلغاتها الشرقية الآسيوية العتيقة ؟

أو هل استطاعت غانا ، والإنجليزية لغتها الرسمية والثقافية ، أن تملك من العلم والقوة والمستقبل مالا تملكه مصر أو المغرب مثلاً ؟

أو هل خرج السودان الجنوبي ، ولغته الإنجليزية ، من الشعوب المتخلفة إلى الدول المتقدمة ، وتحرر من الكلمتين المشؤمتين : شرق وغرب ، فاستطاع أن يعيش المعيشة العصرية وضمن تحقيق المساواة الاجتماعية والاقتصادية بين الجنسين والتفكير العلمي والنفسية العلمية ، وانفتحت أمامه آفاق موصدة في وجه السودان الشمالى بحكم لغته العربية التي يجبن عن التخلي عنها ، رجال تغوزهم الجرأة والنباهة كيلا يبالوا بالجهلة والحمق ؟

ولكن هذه الدعاوى العريضة التي لا تثبت لنظر أو منطق أو واقع ، وجدت من يؤمنون بها من مثقفينا السائرين غرباً ، « لأن هذه اللغة العربية لا ترضى مثقفاً في العصر الحاضر إذ هي لا تخدم الأمة ولا ترقياها ، لأنها تعجز عن نقل نحو مائة علم من العلوم التي تصوغ المستقبل وتكيفه » كما أكد



سلامة موسى في كتابه ( البلاغة العصرية واللغة العربية ) .

بل أخشى أن أقول إنها ساعدت على ترسيخ الفكرة العامة عن عجز لغتنا عن مسايرة التقدم العلمى ونقل علوم العصر . .

ومن هنا كان الخطر . .

فالأمة حين تحس هجوماً على عناصر ذاتها ومقومات أفعالها ووجودها من أجنبي غريب عنها مهما يكن زيه أو قناعه ، تتحفز لاتقاء الخطر في مواجهة عدو سافر ، فتأخذ كلامه بمنتهى الحرص والحذر ، وقد يصل موقفها منه إلى حد الرفض والتحدى .

أما حين تنتقل السهام إلى أيدي نفر من أبناءها ، فإن الخطر يأتى من حيث لا تتوقع . ودون أن تتأهب لاتقائه بشيء من التوجس والحذر والارتياح . وما يكتبه الأجانب عن عقم العربية ، قلما يصل إلى مجال التأثير العام ، بحكم عزلة الجماهير ونفورها من الأجنبي ، وإنما يصل إليهم عن طريق المثقفين الذين ينتمون فكرياً إلى الغرب . وهم عادة ينفذون إلى المجال الثقافى بدعوات إصلاحية تقدمية . ثم لا يلبثون أن يكتشفوا فى تشخيصهم لأمراض المجتمع . أن لغتنا العربية هى علة العلل وأصل الداء ، والقييد الباهظ الذى يشل خطانا نحو التقدم ، والسد الأصم الذى يحجز بيننا وبين آفاق العصر !

ويمضى وقت غير قصير قبل أن يتصدى الوعى القومى لمواجهة الخطر ، لكن بعد أى يحدث الضجيج أثره فى المناخ الفكرى للأمة ، بحيث تحتاج إلى جهد شاق يستغرق أمداً لكى تسترد اتزان خطاها وشفاء أفعالها .

وفى قضية "العربية والعلوم الحديثة" كانت دعوى عجز هذه اللغة وعقمها من « سبيتا وويلكوكس وويلمور » وغيرهم من الأجانب الغرباء ، بحيث تذهب مع الريح ، لولم تجذب إليها عدداً من كتابنا ذوى الثقافة العصرية ، ممن كتبوا فى التقدمية والتطور والاشتراكية .

وعن طريقهم ، أخذت مجراها فى حياتنا القومية . وكان ربط تخلفنا

العلمي والثقافي والاجتماعي والحضاري بيداوة العرب وجمودها ، هو الذي  
مكّن للدعوى من مناطق التأثير ، فصدق بها من صدق عن جهل أو غفلة  
وتحير المثقفون العرب الأصلاء من أمر لغتهم التي عرفوا تاريخها العلمي .

وكان رأى الكثرة من علمائنا ، أن العلوم الحديثة تقدمت أشواطاً بعيدة  
المدى عن العهد بها أيام آبائنا الأقربين ، فضلاً عن جيل اليقظة في القرن  
الماضي الذي عرّب علوم زمنه .

وعلى امتداد نصف قرن أو أكثر ، شهدت حياتنا اللغوية ما أشرنا إليه  
من جهود فردية سخية لوضع المصطلحات العلمية في اللغة العربية ، إلى جانب  
ما قامت به الهيئات العلمية من جهود في هذا الميدان .  
وتمضى عشرات السنين . .

وما تزال بلحان المصطلحات العلمية ، حتى يومنا هذا ، تتابع عقد  
جلساتها ومؤتمراتها ، وتثبت في تقاريرها أو مجلاتها ، ما يستقر عليه الرأى  
من مصطلحات علمية . وما يزال مركز تنسيق التعريب في الرباط ، يوالى إرسال  
رسائله إلى علماء الوطن العربي يستفتيهم في مشكلات تعريب العلوم .

وما يزال عدد من علمائنا وعلماء الاستشراق ، يتابعون نشر كتب  
علمية من ذخائر تراثنا ، قد يكفي أن أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :  
« مختارات من رسائل جابر بن حيان ، ت ١٩٨ هـ » .

تحقيق د. بول كراوس — ط الحانجي بالقاهرة ١٩٣٥

« المختصر في حساب الجبر والمقابلة للخوارزمي . ت ٢٣٦ هـ »

د. على مشرفة ، ود . محمد مرسي أحمد — القاهرة ١٩٣٧

« صورة الأرض للخوارزمي » <sup>(١)</sup> ظهرت منه طبعة كاملة بعناية مترك ،

---

(١) الكتاب ذكره أبو الفدا باسم « رسم الربع المعمور » ودرسه المؤرخ البولندي ليوليل  
Leluwel وخرج بدعوى أعلنها ، هي أن الكتاب ترجمة لرسالة وضعها باليونانية مؤلف إغريق عاش  
في بلاد الإسلام وأفاد من المصادر الإسلامية . لكن دعواه انهارت من أساسها بعثور «سييتا» على =

وبحوث عنه بقلم نلليو (١٨٩٥) ومترك وهونجمان (١٩٢٩) ويقول كراتشكوفسكى : « يجب الاعتراف ، تبعاً لنلليو ، وبارنولد ، بأنه لا يوجد شعب أوربي واحد ، يستطيع أن يفخر بمصنف يمكن أن يقارن بهذا الكتاب الذى ألفه الخوارزمى ، أكبر رياضي عصره ، وواحد من أكبر رياضي جميع العصور على الإطلاق ، إذا أخذنا فى حسابنا اختلاف الظروف » .

« الذخيرة فى علم الطب ، لثابت بن قرة . ت ٢٨٨ هـ »

تحقيق الدكتور جورجى صبحى — ط الجامعة المصرية ١٩٢٨ .

« الحسن بن الهيثم : بحوثه وكشوفه البصرية — ت ٤٢٢ هـ »

الأستاذ مصطفى نظيف — الجامعة المصرية ١٩٤٢ .

« المناظر ، للحسن بن الهيثم » كرنكو ، ط حيدر أباد ١٩٢٨ .

« استخراج الأوتار فى الدائرة بنحو الخط المنحنى فيها ، للبيرونى —

ت ٤٤٠ هـ » أحمد سعيد الدمرداش . الدار المصرية للنشر بالقاهرة .

« الآثار الباقية ، لأبى الريحان البيرونى » معهد الاستشراق ، طشقند .

« كتاب الجواهر فى معرفة الجواهر ، للبيرونى » كرنكو ، حيدر أباد

سنة ١٩٣٧ .

« القانون المسعودى ، فى الهيئة والنجوم ، للبيرونى » د. بول كراوس .

« القانون فى الطب ، للرئيس ابن سينا ت ٤٢٨ هـ » ١٣ جزءاً ط بولاق

١٨٧٧ ، طشقند ١٩٥٦ .

« الشفاء ، فى المنطق والطبيعات والإلهيات ، لابن سينا »

المجمع اللغوى بالقاهرة ١٩٥١ ، ١٩٦٥ .

= أصل المخطوط العربى بالقاهرة سنة ١٨٧٨ ، وقدلفت إليه العلماء بمقالتين نشرهما فى عام ١٨٧٩ ،

١٨٨٢ ، ثم انتقل المخطوط بعد وفاته سنة ١٨٨٣ إلى ستراسبورج . انظر كراتشكوفسكى فى

(تاريخ الأدب الجغرافى العربى) ص ٩٨ من الطبعة الأولى للترجمة العربية للدكتور صلاح

الدين هاشم .

« شكل القطاع ، لنصير الدين الطوسي — ت ٦٧٣ هـ » الآستانة ،  
سنة ١٣٠٩ هـ .

« المعتمد في الأدوية ، لابن البيطار ، ت ٦٤٦ هـ »  
الأستاذ مصطفى السقا . ط الحلبي ١٩٥١ .

« الفوائد في أصول علم البحار ، لأحمد بن ماجد » — ط باريس ١٩٢٤ .  
« ثلاثة راهبانجات في علم البحار ، لأحمد بن ماجد »  
شوموفسكى ، موسكو ١٩٥٧ .

بحوث فيدمان في كتاب « نهاية الإدراك في دراية الأفلاك » لقطب  
الدين مسعود الشيرازى — ت ٦٣٤ هـ — تلميذ العالم الفلكى نصير الدين  
الطوسى . وفي الكتاب مباحث في الكوزمولوجيا والمترولوجيا والميكانيكا والبصريات .

— وانظر ما نشر المستشرقون من تراث العرب الفلكى والجغرافى والملاحى ،  
في فهرس كراتشكوفسكى لكتابه : « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » ، وفي  
كتاب تللينو : « الفلك عند العرب » .

إلى جانب ما نشر علماءنا من بحوث في المجلات العلمية ، بمصطلحات  
عربية أو معربة في العلوم ، تجدون بياناً لها في محاضرات الأمير مصطفى  
الشهابى « المصطلحات العلمية في اللغة العربية » . من منشورات المعهد .

\* \* \*

ولا أثر من هذا الجهد السخى المبذول يصل إلى حياتنا العلمية ؛ ودعونا  
من حياتنا العامة التى التقطت من بعض مصطلحات المجمعين ، ما اتخذت  
منه موضوع فكاهة ومادة تندر . .

والمفروض أن جهود العلماء في نشر التراث العلمى لعصر ازدهار الحضارة  
الإسلامية ، واستكمال الحركة العلمية في التأليف والترجمة لمطلع العصر  
الحديث في النصف الأول من القرن الماضى . . . كانت موجهة إلى تمكين  
اللغة العربية من استرجاع مكانها في تدريس العلوم والتأليف فيها ، ونقل

كل جديد مستحدث إلى المكتبة العلمية العربية .

لكن الذى حدث ، هو أن الكليات العلمية في جامعاتنا ظلت بمعزل عن كل تلك الجهود ، وتابعت تدريس الطب والهندسة والطبيعات والرياضيات . . . باللغة الإنجليزية أو الفرنسية ، وكأن الجامعات في وادٍ وجهود العلماء والهيئات في تعريب العلوم الحديثة ومصطلحاتها في وادٍ آخر .

باستثناء كلية الطب في الجامعة السورية ، التى تأسست في دمشق سنة ١٩١٩ - في عهد الملك فيصل الأول - باسم « المعهد الطبى العربى » لتحل محل كلية الطب التركية ، وصممت من عام تأسيسها على تدريس العلوم الطبية بالعربية . وكان مجلس أساتذتها أشبه بمجمع لغوى ، تدارسوا فيه المصطلحات التى جاءت في تراثنا من كتب الطب ، وفي الكتب المصرية التى ألفها علماءنا من عصر محمد على ، والكتب التى ألفها أساتذة الطب في جامعة بيروت قبل أن تهجر العربية إلى اللغة الإنجليزية .

واستطاع أساتذة دمشق أن يؤلفوا كتباً قيمة في فروع الطب المختلفة ، وفي الكيمياء والفيزياء والمواليد :

فألف « الدكتور مرشد خاطر » سفرًا في علم الجراحة من ستة مجلدات وأجزها في مجلدين .

وألف الدكتور « أحمد حمدى الحياط » كتاباً في علم الجراثيم والاستاد « محمد جميل » في علم الطبيعة ، والدكتور « حسنى سبيع » في الأمراض الباطنية ( ٧ مجلدات ) والدكتور « محمد صلاح الدين الكواكبي » في الكيمياء ... (١)

ولكن هذه التجربة الناجحة بالعربية لم تتكرر .

بل لم تستطع ، بعد أكثر من أربعين عاماً ، أن تقنع جامعات وطننا العربى الحديثة بتعريب كلياتها العلمية .

( ١ ) لكلية طب دمشق جهود أخرى في الميدان : أشار إليها الأمير مصطفى الشهابي :

المصطلحات ، ص ٥٨ .

وكانت المفارقة العجيبة أن جامعة الأزهر ، أعرق جامعة إسلامية في الشرق الإسلامي ، وجامعة الرياض ، عاصمة الجزيرة العربية ، اعتمدتا اللغة الإنجليزية للتدريس فيما استحدثتا من كليات علمية !  
وبدا كأن قضية العربية وعلوم العصر ، قد وصلت إلى باب مسدود . .

\* \* \*

ثم كان الفصل الأخير من هذه القصة المعقدة ، رسالة من موسكو تحمل مجموعة من الكتب العلمية الحديثة مطبوعة بالعربية الفصحى في « دار مير » للطباعة سنة ١٩٦٨ !

ولم نسمع أن بلخانا عقدت هناك لبحث مشكلات هذا التعريب ، أو أن جدلا أثير حول صلاحية اللغة العربية لأداء علوم العصر !  
ولأنما خرج كل كتاب يحمل اسم العالم الذي ألفه :  
ف تسيجيلسكى : اللحام الكهربائي .

ما ليشيف ، ونيكولا ييف ، وشوفالوف : أسس الميكانيكا العملية .  
أفروتين : أسس تشغيل المعادن .  
جلاجوفا : الدوال ومنحنياتها .

وتابعت « دار مير ، في موسكو » نشر الكتب العلمية للعربية ، في أحدث علوم العصر . أذكر منها :

بيولوجيا الفضاء ؛ طاقة الذرة ؛ نظرية الاحتمالات ؛ علم التحكم  
الأتوماتيكي ؛ نظرية النسبية ؛ أسس الميكانيكا التطبيقية ؛ مقاومة المواد ؛  
الرياضيات العالية للمدارس الفنية . . . . .

\* \* \*

ما أقسى الدلالة التي تعطيها هذه الكتب العلمية المطبوعة بالعربية في موسكو ، بعد كل ما تضحخم به رصيدنا من تقارير اللجان ومؤتمرات المجمع وجهود العلماء ، على امتداد نصف قرن وأكثر !

وما أبلغ هذا الفصل الختامى لما طال جدلنا فيه وتعقدت أزمئتنا به .

لقد بدأت القصة بعزل الاستعمار لغئنا عن العلم ، ثم الدعوة إلى هجر لغتنا واستعارة الإنجليزية أو الفرنسية للعلوم الحديثة ، وكأن هاتين اللغتين ، دون الألمانية والروسية أو اليابانية والصينية مثلاً ، هما المفتاح السحري لكنوز العلم .. وانتهت بكتب دار مير للطباعة فى موسكو ، فى عصر اقتحام الفضاء والوصول إلى القمر ؛ فأين نحن من البداية ومن النهاية ؟

\* \* \*

وحين أقول : انتهت القصة ؛ فإننى أعنى أنها انتهت ، أو يجب أن تنتهى من حيث هى قضية لغوية ظلت معروضة أكثر من نصف قرن ، تواجه الأمة العربية بدعوى عجز لغتها القومية عن أداء العلوم الحديثة وقصورها عن نقل علوم العصر ، وتلقى عليها تبعة تخلفنا العلمى وفاقتنا الثقافية . . .

ويبقى أن يلتبس الباحثون أسباباً أخرى لاستمرار عزل اللغة العربية عن معاهدنا العلمية العالية ، بعد أن خرجت دعوى عقم لغتنا وعجزها من مجال الخصومة والجدل ، وظهر بوضوح أننا فى تسوينغ عذر جامعاتنا بهذا العقم فى العربية ، والتماسنا شتى الوسائل لعلاجها ، كنا كمن يحرق فى البحر . . .

\* \* \*

وإذا كانت العربية قد صمدت لكل تلك الحملات الضارية التى جاءت من الأجانب الغرباء ومن أبنائها المتغربين ، تحاربها باللهجات العامية حيناً وبالخط اللاتينى حيناً آخر ، وتهتمها بالبداوة والعقم فتعزلها عن الميدان العلمى لتظل نائية بها عن روح العصر ،

أقول : إذا كانت العربية قد صمدت لهذه الحملات ، فلأنها دون ريب تملك من القوة والحيوية والصلاحية للبقاء ، ما قاومت به محاولات المسخ ورفضت نبوءة المتنبيين لها بالموت . . .

# المغرب العربي والغزو اللغوي

— جريمة العصر

— المعركة اللغوية في الجزائر



## جَرِيْمَةُ الْعَصْرِ

حين تمتحن أمة بسرقة لسانها ، تضيق :  
تُمسَخ شخصيتها القومية وتبتر من ماضيها  
وتراثها وتاريخها ، ثم تظل محكوماً عليها بأن  
تبقى أبداً تحت الوصاية الفكرية والوجدانية  
للمستعمر ، حتى بعد أن يجلو عن أرضها .

وبمضى الزمن ، يغدو هذا الاستعباد  
القهرى ولاء فكرياً لمن كان لها بالأمس  
عدواً .

اختلفت طبيعة المعركة اللغوية باختلاف الأقطار العربية ، كما تفاوتت أسلحتها بتفاوت ميادين الصراع .

وقد مضى القول فيما واجهت العربية في مصر والمشرق ، من حملات ضارية صمدت لها فاستطاعت أن تنجو من التفريط في لسان قوميتها ، وإن لم تستطع بعد أن تتخلص من آثار الغزو الفكري ، ومن عزل العربية عن الكليات العلمية بجامعة المشرق ، باستثناء الجامعة السورية في دمشق .

أما في أقطار المغرب ، فكان جهد الاستعمار أن يسلخها عن قوميتها العربية وشخصيتها الإسلامية . ومن ثم اتجهت الحملة الضارية إلى حرمان بلاد المغرب من لسان قوميتها وعزلها عن ماضيها الذي امتد ثلاثة عشر قرناً لم تعرف فيه غير العربية لساناً وثقافة ، والإسلام ديناً وحضارة .

وكانت جريمة العصر الكبرى ، محاولة الاستعمار أن يسرق لسان أمة أعرق منه في الوجود ، وأغنى في الميراث الحضاري .

والأمة قد تمتحن باحتلال أرضها فتناضل من أجل الحرية حتى تستردها على المدى القصير أو الطويل .

وتمتحن باغتصاب خيرات أرضها وأرزاق بنينا ، فتحتمل الجوع والحرمان ، وتقتات من أملها المرجو في الخلاص .

بل قد تمحارب في عقيدتها ، فيتصدى الضمير الشعبي لحمايتها ، بالرفض والتحدى .

لكنها حين تمتحن بسرقة لسانها تضيق !

تمسخ شخصيتها القومية وتبتر من ماضيها وتراثها وتاريخها ، ثم تظل محكوماً عليها بأن تبقى أبداً تحت الوصاية الفكرية والوجدانية للمستعمر ، حتى بعد أن يجلو عن أرضها .

يشدها إليه نوع من الاستعباد الفكرى ، إذ لا تجد غير لسانه وسيلة للنطق والتعبير ، ولا تلتبس في غير مكتبته ، زادها الفكرى والأدبى والثقافى .  
ويمضى الزمن يغدو هذا الاستعباد القهرى ، ولاء فكرياً وروحياً لمن كان لها بالأمس عدواً !

لطول ما نهل أبنائها المثقفون من نبع أدبه وفكره ، وانحصروا في فلكه لا يرون الدنيا إلا بعينه ، ولا يحسون طعم الحياة إلا بمذاقه ، ولا يحقق وجدانهم إلا بنبضه !

وهم بحكم ثقافتهم العالية ، يشغلون مراكز التوجيه والقيادة للرأى العام ، وعن طريقهم يتسلط الغزو الفكرى على الشعب الذى رفض وجود المستعمر !  
وكثيراً ما يتصدون لمحاربة الذين صانوا لسانهم القومى واعتزوا بثقافتهم الأصيلة ، فيتصدع الكيان الوطنى من أثر الصدام المريع بين دعاة الأصالة يهتمون المتفرنجين بالمرقوق والعقوق والكفر ، وبين دعاة الثقافة الأجنبية يهتمون خصوصهم بالرجعية والحمود ، ويرون فيهم هياكل من حفريات عصور غابرة !

\* \* \*

والغزو اللغوى قد تسلط على تونس والجزائر والمغرب ، لكن المعركة لم تصل إلى ذروتها الضارية مثلما وصلت إليها في الجزائر ، بحكم ظروف تاريخية وأوضاع إقليمية حمّت المغرب من تلك المحنة ، لعمق إحساسه بدوره التاريخى في هجرة الإسلام إليه ديناً وحضارة بعد نكبته في الأندلس ، وإحساسه الواعى كذلك بموقعه (الاستراتيجى) الحساس ، في الجبهة المغربية للأمة الإسلامية ؛ فضلاً عن قصر الأمد الزمنى لمحنته بالاستعمار ، بالقياس إلى القطر الجزائرى الذى طال عليه الليل قرناً ونصف قرن !

وعلى الزمن الطويل ، بدا أن الجزائر فقدت لسانها وأضاعت شخصيتها وخسرت معركتها في المجال اللغوى .

لكن معركة التحرير الباسلة ، كانت وحدها كافية لأن تكشف لذوى

البصيرة منا ، عن وجه الحقيقة التي غابت عنا زمناً كنا نقرأ فيه لكُتاب  
الجزائر ما تنشره لهم مطابع فرنسا وتروج له ، لا يعنيا منه أن يلعنوها بقدر  
ما يعنيا أنهم أضاعوا لسان قوميتهم !

إن إضاعة اللسان تعنى إضاعة الذات ، والشعب الذي خاض معركته  
الباهرة لتحرير بلده وقدم أكثر من مليون شهيد فدية لشرف الإنسان ،  
لا يمكن أن يكون قد أضاع ذاته ، ومن ثم لا يمكن أن يكون قد ضيع  
لسان قوميته ، وإن بدا الأمر في ظاهره على عكس ذلك .

فلننظر في قصة الغزو اللغوي في الجزائر ، من حيث هي مثل لما امتُحِنَتْ  
به العربية في أقطار المغرب ، وبقيت على الرغم منه حيّة لا تموت .

# المعركة اللغوية على أرض البطولات

في شهر أغسطس من عام ١٩٦٣ ،  
انعقد مؤتمر المعلمين العرب في عاصمة الجزائر ،  
وكان التعريب « قضية » تأخذ مكانها في  
برنامج المؤتمر ، ويطول حوارنا حولها ثم  
نعلن ما نرى لها من مقترحات وتوصيات .

بعد خمس سنوات ، انتقل التعريب  
من « قضية » معروضة للبحث والنظر ، إلى  
« معركة » مترامية الأبعاد ، انطلاقاً من  
معركة التحرير الكبرى ، وامتداداً ثورياً لها .

وقضية التعريب في الجزائر ، من القضايا الكبرى التي فاتتنا كثير من أسرارها وعُقدِها ، وقصُرت رؤيتنا عن ملح أبعادها .

وعذرنا في ذلك ، أن حجاباً كثيفاً من الصمت قد عزلنا عن الجزائر قرناً كاملاً إثر قضاء الاستعمار على المقاومة الباسلة للشعب بقيادة الأمير « عبد القادر الجزائري » . ثم لما توهج الضرام الثورية في معركة التحرير ، شُغلنا بها كما شغل العالم المعاصر كله . وبعد النصر شغلتنا أجهزة الإعلام بالصراع السياسي هناك عن الصراع الفكري . وغلب على الفهم العام أن مأساة الغزو اللغوي بلغت هناك من العمق والنفوذ والشمول ، بحيث لا أمل لهذا الجيل ، وربما لأجيال بعده من شعب الجزائر ، في النجاة من محنة ضياع لسانه القومي الذي سرقه الاستعمار .

واكتفت الجمهرة من مثقفينا بأن تقرأ لأدباء الجزائر الذين كتبوا ويكتبون باللغة الفرنسية ، من أمثال : محمد ديب وكاتب يس ومالك حداد ومولود فرعون ومولود معمري وآسيا جبار . . .

عن تصور خاطئ منا ، لموقف الشعب الجزائري من اللغة الغازية ، وعن قصور وتقصير في تتبع الجولة الثورية لمعركة التعريب على أرض البطولات ...

فما قصة الغزو اللغوي للجزائر ؟

وما أبعاد المعركة التي تواجهها الجزائر المستقلة فيما تواجه من مخلفات

ليلها الطويل ؟

\* \* \*

والقصة بدأت بالغزو الاستعماري سنة ١٨٣٠ ، ونحتاج مع ذلك إلى أن نُطيل من بعيد على مسرح الأحداث قبل ليل الاستعمار ، لنفهم أبعاد الصراع اللغوي الذي احتدم هناك .

حتى القرن الحادي عشر الهجري ، الثامن عشر الميلادي ، كانت

الجزائر تأخذ مكانها المرموق من أقطار المغرب ، في خدمة علوم العربية والإسلام ، وتقدم إلى الميدان أعلاماً من رجالها حملوا الأمانة وكانت إليهم رحلة طلاب العلم .

ويبدو أن عوامل الضعف التي انتابت الأمة الإسلامية في العصر التركي، حملت علماء الجبهة المغربية على أن يتشبثوا بمشعل النور الذي لم يكن قد بقي للأمة سواه ، فعمرت مجالس العلم بأئمة منهم كانوا نجوم الداجية ودليل الركب الساري بليل . .

ونظرة سريعة إلى كتب التراجم لعلماء الجزائر حتى القرن الحادي عشر الهجري ، تكفي لأن تعطي مع القرآن الكريم ، التفسير التاريخي لحركة الاستعمار حين تجرد لحرب الإسلام فلم يجد سلاحاً أمضى من القضاء على اللغة العربية . .

من حيث قدر أن أرض الجزائر لن تحتل وطأته عليها ، ظالماً بقي لها لسانها العربي ، يصلها بكتاب دينها ويعطيها تراث علمائها الأئمة الذين عمرت بهم ربوعها قبل أن يجتاحها الغزو . . .

أذكر من هذه الكتب التي ترجمت لعلماء الجزائر والمغرب حتى القرن الحادي عشر الهجري :

« نفح الطيب » و « روض الآس » و « أزهار الرياض » للمقرئ التلمساني .

« ترتيب المدارك » للقاضي عياض السبتي .

« الديباج » لابن فرحون .

« نيل الابتهاج بتطريز الديباج » للمؤرخ الفقيه ، أبي العباس أحمد بابا السوداني التبيكتي .

« المعيار المغرب عن فتاوى علماء أفريقية والأندلس والمغرب » لأحمد بن يحيى الونشريسي .

- « عنوان الدراية في علماء بجاية » لأبي العباس أحمد الغبريني القسنطيني .  
 « البستان في ذكرى الأولياء والعلماء بتلمسان » لابن مريم الشريف التلمساني .  
 « تعريف الخلف برجال السلف » لأبي القاسم محمد الحفناوي الجزائري .  
 « فهرس الفهارس » لعبد الحى الكتانى .  
 « نشر أزاهر البستان فيمن أجازنى بالجزائر وتطوان » لابن زاكور الفاسي .

.....

\* \* \*

واللافت حقاً ، أن جمهرة هؤلاء العلماء كانوا من أولياء الله الصالحين الذين جعلوا من خدمة علوم العربية والإسلام وسيلة إلى الله وقربى ، وتتابعوا على حمل اللواء خلفاً عن سلف .

فأحمد بن زكري ، الفقيه الأصولي المنطقي ، كان إمام عصره علماً ودينياً وتقياً .  
 وشيخه « ابن زاغو » كان ولياً صالحاً وإماماً قدوة وناسكاً عابداً وعالماً محققاً .  
 « وسيدى زروق » الإمام العالم الفقيه المحدث ، كان من مشايخ الصوفية العاملين الذين جمعوا بين الحقيقة والشرعية .

وشيخه « سيدى عبد الرحمن الثعالبي » الولي الزاهد الذى تعزز عاصمة الجزائر بمزاره المبارك ، اختصر (تفسير ابن عطية) فى جزأين وشرح ابن الحاجب .  
 وتلميذه التقى الزاهد « أحمد بن عبد الله الجزائري الزاوى » ألف منظومته المشهورة فى العقائد « المنظومة الجزائرية » فى نيف وأربعمئة بيت .

« وعبد الرحمن الأخضرى » صاحب « متن - السلم » المشهور فى المنطق و « الجوهر المكنون » فى البلاغة و « الدرة البيضاء » فى العبادات ، كان ولياً مباركاً ، وضريحه معروف مزار .

« والشريف الحسنى التلمساني » أبو عبد الله محمد الإدريسي « إمام عصره بإجماع ، والذى تخرج عليه جيل من صدور العلماء وأعيان الفضلاء ، يذكرون فى تاريخه أنه كان يطيل الانقطاع للعلم والعبادة ، وقد بقى مرة ستة



أشهر عاكفاً على الدرس لم ير أولاده ، وربما وُضع له فطوره في الصيام فيُشغل عنه بالنظر في مسائل العلم ، حتى يؤتى بسحوره .

\* \* \*

ويلفت النظر كذلك ، اجتماعُ الطائفة من علماء الجزائر الأولياء ، في الجليل الواحد :

ففي ترجمة العلامة المحقق والقاضي المؤرخ « المقرئ التلمساني الفاسي » وهو من أعيان القرن الحادي عشر الهجري ، نقرأ أنه كان من شيوخه في تلمسان :

« علماها الشانخان وعالماها الراسخان ابنا الإمام : أبو زيد عبد الرحمن وأبو موسى عيسى ؛ ومفتي تلمسان أبو موسى عمران المشدالي ؛ ومشكاة الأنوار أبو إسحق إبراهيم بن حكيم الكتاني ؛ والقاضي المفتي أبو عثمان سعيد ابن أحمد التلمساني ؛ وعالم الصلحاء وصالح العلماء أبو محمد المصمودي ؛ وفادرة الأعصار أبو عبد الله النجار ؛ والمقرئ الراوية أبو عبد الله المكناسي ؛ وإمام الحديث والعربية أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي ؛ والفقيه أبو عبد الله الجزولي ، والشيخان أبو زيد عبد الرحمن الصنهاجي ، وأبو عبد الله محمد العبدري التلمساني ؛ وقاضي بجاية أبو عبد الله محمد الزواوي ؛ وإمام المعقولات أبو علي حسن بن حسن ؛ والقاضي المحدث أحمد بن حسين القسنطيني .. » .

كل هؤلاء وعشرات أمثالهم ، كانوا هناك ملء القلوب والأسماع والأبصار مهابة وجلالا ، فلما أوغل الليل بقيت أرواحهم تحوم حول الربوع التي عمرت بهم زماناً ، وبقيت ذكراهم تحرس الضمير الشعبي وتذكى فضاله عن وجوده الإسلامي العربي ، بقدر ما كانت تؤرق المستعمر فتغريه بالإمعان في الكيد للعربية حرباً للإسلام .

\* \* \*

وقد اجتاحت الاستعمار الجزائر وليس فيها من يتكلم الفرنسية ، فكان عليه أن يتصل بالرأي العام الجزائري عن طريق السنة وأقلام عربية مستعارة أو

مأجورة . لكنه بدأ من اللحظة الأولى في فرنسة أجهزة الحكومة ودوائر العمل ، ثم فرنسة التعليم فرنسة كاملة لم تدع للغة العربية في المنهج المدرسى غير ساعتين في الأسبوع ، تُدرس فيهما اللهجة العامية ، لغة ثانوية إضافية .

وإلى أن يتم الغزو ، كان المستعمر يتصل بالشعب بلغته الدارجة ، يحارب بها الفصحى لغة القرآن الكريم والثقافة العربية والفكر الإسلامى . ومن سنة ١٨٤٧ إلى سنة ١٩٢٧ ، كانت ( جريدة المبشر ) الرسمية تصدر بالفرنسية ، وبعربية ركيكة مسفة ، موجهة إلى الشعب . وأنقل هنا من افتتاحية عددها الأول — سبتمبر : ١٨٤٧ — ما نصه :

« اعلمو يا مسلمين أرشدكم الله أن المعظم سلطان أفرنصه نصره الله ، اتفق له برأيه وقوع هذا ” المبشر ” مختص لفائدتكم وخيركم وتوافر النعمة عليكم . والشاهد لكم في ذلك ، كل ما يدل على نعمتكم هو بفؤاده . ويرضى لكم ميسرنا — ما يرضى — لنفسه ولا سيما أنكم بمسكن قلبه كعزيز الرعية . واعلموا أن سلاطين النصارى مهما أرادوا يعرفون الرعية بالأمر الواقعية ، يبعثون لهم رسائل خبرية — جرائد — . . . وسعادة سلطان افرنصة له معرفة ومحبة باللغة مع سلاطين الإسلام وهم صاحب اصطنبول وصاحب العجم وصاحب الهند وصاحب مصر وصاحب الغرب — المغرب — وصاحب تونس ، وثبوت المحبة بينه وبين هؤلاء الدول العظام ، معرفتهم بإحسانه وعظيم سطوته وقوته مدة مديدة . . .

« وأيضاً آخر فوائد هذا المبشر الذى أنعمنا عليكم بإنشائه ، هو لما تعلمو بمقصودنا وجميع ما يجب عليكم من التصرفات ، وتطلعون على هذا الأخبار ، ينفي عنكم بسبب ذلك كلام الوشات أهل الشيطنة دمرهم الله — يعنى بالوشاة وأهل الشيطنة : دعاة المقاومة ، وعلى رأسهم الأمير عبد القادر وبو بغلة — الذين يسعون لكم فى الهلاك وجر البلاد إليكم منا ، لتخليطهم وخبلهم . ونبين لكم طريق الشرع بالعدل التى نسير نحن بها . كما نعلمكم بالفوائد التى تحصل لكم بها الألفة معنا ، فهذا غرضنا ومقصودنا . »

وجريدة (المبشر) بدأت تظهر عام ١٨٤٧ وهو العام الذى شهد مأساة القضاء على مقاومة الجيش الجزائرى للاحتلال ، بقيادة الأمير عبد القادر . وقد ظلت تصدر إلى عام ١٩٢٤ ، باللغتين الفرنسية والعربية ، وفى هذا شاهد على أن الغزو اللغوى عجز بعد نحو قرن كامل . عن الاتصال بالشعب بغير لغته العربية التى لم يتخل عنها !

\* \* \*

وإذا كان مفهوماً أن تصدر هذه الجريدة الاستعمارية الرسمية باللغتين الفرنسية والعربية ، فما وعاه تاريخ الغزو ، أن الصحف غير الرسمية للجمالية الفرنسية ، لم تستطع بعد عشرات السنين من بدء الاحتلال ، أن تستغنى عن الاتصال بالشعب الجزائرى بلسانه العربى !

منها مثلاً (جريدة الأخبار) التى أذن « المارشال كونت دى فالى » لطلائع المهاجرين الذين تدفقوا على الجزائر لاستيطانها فى إصدار هذه الجريدة عام ١٨٣٩ ، قبل ثمانى سنين من انتهاء المقاومة المسلحة الأولى للشعب الجزائرى .

وظلت (الأخبار) تصدر باللغة الفرنسية سبعين عاماً ، ثم بدأت من عام ١٩٠٩ تصدر باللغتين العربية والفرنسية !

وكان فى استطاعتها أن تستغنى بقراءها من المستوطنين الفرنسيين - الذين زاد عددهم من أربعين ألفاً سنة ١٨٤١ ، إلى مائة وثلاثين ألفاً عام ١٨٥٠ ، ثم اطردت الزيادة عاماً بعد عام - ريثما تم فرنسة اللسان الجزائرى ، وكان فى حسابها أن يحسمها الغزو اللغوى فى وقت قصير ، لولا أنها أدركت بعد طول التجربة ، عقم الانتظار الطويل لفرنسة الجزائريين ، وقد مضى على الاحتلال أكثر من سبعين عاماً ، لم يستطع خلالها أن يفرض لغته الدخيلة وثقافته الغازية ، على الشعب الجزائرى العربى المسلم .

\* \* \*

ما الذى حمى وعى هذا الشعب ، وقد كان ثمانون فى المائة منه أميين ، فلم يُضِيع ذاته فى دوامة الأعصار الجائح ؟

حماه « القرآن الكريم » كتاب الأميين الذين حيل بينهم وبين التعليم أو رفضوا أن يردوا منهله المندس برجس الاستعمار ، وبقيت لهم مدرستهم القرآنية ترهف وعيهم وتنير بصائرهم وتنسخ أميتهم بكلمات الله تزكيهم وتعلمهم الكتاب والحكمة ، وتلزمهم ديناً وعقيدة أن يرفضوا العبودية لغير خالقهم ، وأن يقاوموا البغى والطغيان .

فإذا كانت الأجيال التى تخرجت بعد ذلك فى المدرسة الفرنسية قد نسيت أن آباءها الأقربين لم يكونوا يعرفون غير لغتهم العربية لساناً وثقافتهم الإسلامية زاداً ومورداً ، فإن الضمير الشعبي لا يمكن أن ينسى . .

والتاريخ معه ، يذكر ماضى الجزائر القريب حين أعيا المستعمر أن يتصل بشعبها إلا بلسانه ، ويذكر ماضيها غير البعيد قبل ليل الاستعمار .

\* \* \*

وإلى مستهل هذا القرن العشرين ، كانت العربية ما تزال تناضل عن وجودها فى الجزائر المحتلة ، مزودة برصيد الأئمة العلماء من سلفها الصالح . ومن عجب أن الاستعمار وجد نفسه مضطراً تحت ضغط الضمير الشعبي إلى أن يحتال على الموقف الصعب فيتزلف إلى الأمة بإظهار التسامح والغيرة على عقيدتها وتراثها . وكما كان « قصر اندوبارة » فى مصر الإسلامية يحتفل بليلة القدر ويدعو شيوخ الأزهر إلى الحفل الدينى المشهود فى مركز ممثل سلطة الاحتلال ، لم يجد الحاكم الفرنسى للجزائر المحتلة بأساً فى أن يرتدى قناع التسامح ، فبنى « المدرسة الثعالبية » بجوار مقام سيدى عبد الرحمن الثعالبي فى حى القصبة بالعاصمة الجزائرية ، ويندب اثنين من الشيوخ لنشر كتاب أو كتابين من تراجم علماء السلف الصالح !

أما الثعالبية ، فبنيت عام ( ١٣٢٢ هـ : ١٩٠٤ م ) فى عهد الوالى الفرنسى

« مسيو جوناو » وتستقبل الداخل إليها عن يمين المدخل ، لوحة رخامية كبيرة محفور عليها ستة أبيات هابطة سقيمة ، نظمها الشيخ « أبو القاسم الحفناوى » تمجيداً لعالى الجناح نجم العصر سمو الولى جوناو ، وقال فيها مؤرخاً :

في كل جيل من الأجيال أخيارُ	وخيرهم من له في العلم أخبارُ
بالعلم شاد بنو اليونان دُورَهمُ	وكان للأعرب فيه بعدُ آثارُ
وهذه آية العرفان مشرقة	بالثعلبية ، نِعَم الاسمُ والجارُ
شيدت وتاريخها لجنسنا فتحت	وذو الولاية نجمُ العصر جوناو
( ١٣٢٢ هـ )	( ١٩٠٤ م )

وأما الكتابان ، فأحدهما :

( تعريف الخلف برجال السلف ) صنفه الشيخ الحفناوى ، ناظم الأبيات ، وطبعه سنة ١٩٠٧ مصدراً بتحية إكبار من المصنف « إلى نجم العصر الولى الفرنسى » جاء فيها ما نصه :

« ولما آلت ولاية القطر الجزائرى للحازم الخطير سمو الولى العام جوناو ، المجتهد فى جلب المهمات ودفع الملمات ليلَ نهار ، صوبَ نظره السامى نحو مسلمى الجزائر بمزيد الإمعان ، وأحسبى لجيلهم خير ما كان لأسلافه من مدنية الإسلام . .

« وشكراً لحكومتنا الجزائرية على المساعدة الجليلة لطبع ما يسر أبناء وطننا ودينتنا من معارف الاعتبار وآثر الاختبار . .

والكتاب الآخر ، هو ( البستان ، فى ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان ) لابن مريم الشريف التلمسانى .

تولى إعداده للنشر « الشيخ محمد بن أبى شنب المدرس بالمدرسة الثعلبية الدولية » وطبع سنة ١٩٠٨ برعاية مسيو جوناو ، عن نسختين خطيتين ، نسخة المكتبة الدولية الجزائرية ، ونسخة المستشرق الفرنسى « وليام مارسيه » مدير مدرسة الجزائر الثعلبية الدولية ؟ !

وعلى مرأى من راغى الإسلام «جونار» ، استولى الاستعمار على كنوز التراث الجزائري ، وعهد إلى «مسيو مارسيه» وكتيبة من زملائه ومساعديه المستشرقين في فحصها ودراستها وفهرستها ، وأدخلها في ملكية المكتبة الفرنسية . وقد نشر المجلد الأول من فهارس المخطوطات الجزائرية بعناية مسيو فانيان ، حلقة ثامنة عشرة في سلسلة الفهرس العام لمخطوطات مكتبات فرنسا :

Catalogue Général des Bibliothèques de France. Tome XVIII, Alger

وكل ذخائره ، في علوم العربية والإسلام .

وقد نُقل من هذه الذخائر ما نُقل إلى فرنسا ، وبقيت جملة منه بين أيدي المستشرقين الفرنسيين في مكتبة الجزائر التي دمرها الحريق قبيل الاستقلال . ولم تنج سوى بقايا مبعثرة كان العلماء قد حملوها إلى خزائنهم في القرى النائية والمعازل الجبلية ، أذكر منهم الشيخ عبد الحميد بن باديس في قسنطينة ، وشيخنا البشير الإبراهيمي في الشريعة على قمة الأطلس ، والشيخ إبراهيم بيوض ، والفقيه ابن دودش قاضي معسكر ، والفقيه الحاج المختار بزاوية الهامل ، والفقيه الوانوغى مفتى بلدة الأصنام . . .

وكانت هذه الذخائر زاداً لجماعة علماء الإسلام في كفاحها للتعبة الثورية ، حيث مضت تحشد طاقات الشعب لخوض المعركة ، وتنشر جريدة (الشهاب) مناراً وجريدة (البصائر) نوراً ، وتفتح المدارس العربية في ظروف بالغة القسوة والخرج ، وتوفد طلابها لا ستكمال دراستهم العربية العالية في جامعات القرويين بفاس والرباط بالمغرب ، والزيتونة بتونس ، والجامع الأزهر وجامعات القاهرة ودمشق وبغداد .

حتى زين للاستعمار أن يضم أملاك الأوقاف الإسلامية إلى خزائنه ، وقد كان ريع هذه الأوقاف المورد المالى للمجاهدين الأبرار من علماء الجزائر .

وكان في حسابه أن مثل هذا الإجراء يوقف التعبئة الثورية ، بإغلاق المدارس الأهلية وتعطيل (الشهاب والبصائر) ، لكن الشعاع الهادى من نور لغتنا والحياة

المدرسة القرآنية كان قد أضاء للشعب طريقه وحدا مسراه ، فانطلق ينحوض  
معركة الجهاد المسلح عام ١٩٥٤ ، وهو يهزج بحذاء شيخه بن باديس :  
شعب الجزائر مسلمٌ وإلى العروبة ينتسبُ  
من قال : حاد عن أصله أو قال : مات ، فقد كذبُ  
أو رام إدماجاً له . رام المحال من الطلب !  
وكان لا بد للشعب أن ينتصر . .

وحين تهيأ مندوبو فرنسا وزعيمها دييجول ، لتوقيع وثيقة استقلاله ، تسلل  
نفر من أعداء الحرية فأضرموا النار في مكتبة الجزائر بالعاصمة فالتهمت  
ما التهمت من كنوز تراثها ، وأتلف ماءُ الإطفاء ما بقي منها ، فتركها جنون  
التعصب والحقد ، مساء اليوم السابع من يونيو عام ١٩٦٢ ، أنقاضاً ورماداً  
وهشيماً . .

مطمئناً إلى أن الجزائر ستظل تدور في فلك المستعمر ، بعد أن ضاع  
لسان جيل من مثقفها ، وضاع تراثها !  
وفاته أن معركة التحرير ذاتها ، قد أثبتت أن الوعي الشعبي قد عصيَ  
على التخدير والقهر والغزو ، وخاض المعركة تحت لواء عقيدته وقوميته ، وبقيت  
الجزائر عربية إسلامية .

بعد كل ما كان من محاولات المسخ والسلك .  
وعلى رغم كل ما كان من تلك الصبغة الأجنبية الطارئة التي أقحمت عليها  
في ليل الاحتلال الطويل . .

\* \* \*

ولقد واجهت الجزائر المستقلة أزماتها اللغوية ، من بين ما واجهت من  
مخلفات الاستعمار وأعباء الحرية والاستقلال .  
في شهر يوليو من عام ١٩٦٣ كان احتفال الجزائر بعيد استقلالها الأول ،  
وقد شرفني بالدعوة إليه . فكانت أغنية النصر التي سمعتها في مهرجان العيد فظلت  
ملء قلبي ومسمعي حتى اليوم :

يا محمد مبروك عليك\* الجزائر رجعت إليك

وفي الشهر التالي مباشرة ، كانت قضية التعريب معروضة على مؤتمر المعلمين العرب في دورته الثالثة بالجزائر ، أغسطس ١٩٦٣ ، وقد اشتركت فيها مع وفد مصر إلى المؤتمر .

بعد خمس سنوات رجعت إلى الجزائر للمرة الثالثة : فإذا التعريب لم يعد قضية تدرس ، وإنما صار معركة يسمونها في أرض البطولات : معركة تحرير اللسان أو معركة الأصالة .

وبمنطق بسيط يقولون : إن الثورة المسلحة حررت التراب الجزائري ، وبقي أن تخوض الجزائر معركتها لتحرير لسانها . وتحرير اللسان يعني تحرير الفكر والوجدان والضمير . وبغير هذه الحرية يكون الاستقلال وهماً والنصر عقيماً !

وحين كان التعريب قضية مطروحة علينا في مؤتمر عام ١٩٦٣ . بدت لنا نحن الأعضاء الوافدين من أقطار الوطن العربي هينة يسيرة : يكفي لها أن تجمع الأمة على تحرير لسانها فيكون لها ما أرادت ، ومثل الشعب الجزائري لا يشق عليه أن يفرض إرادته الحرة على أبنائه ، وقد فرضها على المستعمر في عنفوان جبروته وشراسة طغيانه ، حين كان له حكم السيادة وسلطة الأمر والنهي .

لكنها ليست كذلك ، في رؤية من ينظر إليها عن قرب .

وإنها لأعمق غوراً وأعقد مسلكاً ، في حساب من يواجهونها في دوامة الصراع .

الخصوم فيها ، هم ضحايا في الوقت نفسه !

ضحايا عهد طويل ، امتد قرناً وبعض قرن ، سيطر فيه المستعمر على التعليم المدرسي نظاماً ونخطة ومنهجاً ولغة ومادة ومناخاً . ثم جعل شهادته المدرسية هي المؤهل الرسمي للوظيفة ، والصك المعترف به لأي عمل في الدوائر والأجهزة التي تخضع للحكومة ، وفي المؤسسات التي يملكها المستوطنون . أو بتعبير أدق : جعلها بطاقة التموين لضرورات العيش ووسائل الرزق !



فإن يكن الضمير الشعبي قد رفض هذا المسخ وأثر لأبناء الجزائر أن يكابدوا  
الظماً العقلي ولا يشربوا من نبع مدنس ، وأن يؤثروا الجوع على خبز مسموم ،  
فإن الظروف القاسية والأوضاع المسيطرة حكمت على فريق منهم أن  
يسيروا في طريق التعليم الرسمي تأمينا لحق العمل وضماناً لمورد الرزق .  
ولعدة أجيال ، تخرجت أفواج من هذه المدارس ، لا يملكون التعامل  
أو التفاهم بغير لغة المستعمر ، ولا يجدون سبيلاً إلى زاد فكري ووجداني  
إلا في مكتبته .

واستطاع الضمير الشعبي مع ذلك أن يشد أكثرهم إلى قضية وطنهم  
فشاركوا في النضال قدر ما استطاعوا ، وكان منهم من شغلوا مراكز قيادية  
في الموقع السياسي والديبلوماسي ، ومن جاهدوا في عرض قضية وطنهم باللغة  
الفرنسية ، على الضمير الغربي المعاصر .

\* \* \*

وجلا المستعمر ، وفي حساب أبناء المدرسة الفرنسية من الجزائريين .  
أن يشغلوا المراكز القيادية في الدولة وأن يديروا أجهزتها بحكم ثقافتهم  
العصرية ومؤهلاتهم الدراسية العليا . .

ثم إذا بهم يسمعون فجأة ، دعوة إلى التعريب تتجاوب بها آفاق الجزائر .  
وكان من الطبيعي أن يتصدوا لمقاومتها .

لا عن خيانة للوطن في تقديرهم . ولا عن جهل منهم لشرعية حق  
الأمة في تحرير لسانها .

ولكن دفاعاً عن كيانهم ووجودهم ، وإدراكاً منهم لأبعاد دعوة تجعل  
حامل " دكتوراه الدولة من جامعة السوربون " مثلاً . أمياً لا يقرأ ولا يكتب !  
وشجعهم على مقاومة التعريب ، ظنهم أن الدولة الجزائرية الحديثة لا يمكن  
أن تستغنى عنهم ، وهم من صنفوة مثقفها ، وذوو الخبرة بالعمل الإداري والفني  
والأساليب الدبلوماسية .

وتصوروا أن دعوة التعريب لن تلبث أن تذهب مع الريح صرخة  
في واد ! . . .

وفاتهم حسٌ الوعى الثورى لأمة تريد تحرير لسانها واسترجاع مقومات  
شخصيتها الوطنية ، بكل ملامح عراقها وعناصر أصالتها .

وفاتهم كذلك ، أن فداحة التضحيات التى اقتضاها الكفاح المسلح ،  
لم تستنفد طاقة الشعب ، وإنما أعطته رصيذاً ثورياً يخوض به معركة الأصالة  
فى تصميم وإصرار .

كيلا يتحول النصر إلى هزيمة !

\* \* \*

وكان أن صارت « دعوة التعريب » إعلان ثورة وشعار مرحلة ، وهتاف  
جهاد ونداء معركة .

وتحدد عام ١٩٧٠ لوضع نهاية هذه الجولة عنها ، بمقتضى قرار جمهورى  
أصدره الرئيس « هوارى بومدين » فى أبريل من سنة ١٩٦٨ ، يقضى  
بإبعاد أى موظف أو عامل فى مؤسسات الدولة ، لا يعرف اللغة العربية .  
معلناً عن إصرار الجزائر على استكمال تعريب لسانها فى موعد أقصاه عام  
١٩٧٠ .

ومعطياً مهلة عامين آخرين لمن فاتهم دخول المدارس الشعبية لمحو  
الأمية العربية ، أو استكبروا أن يدخلوها . ومحققاً إرادة الشعب فى أن تخرج  
حركة التعريب من مجال الجدل الخطابى والحوار الكلامى إلى مجال التنفيذ .  
وأتصور مع ذلك أن قرار عام ١٩٦٨ إيدان باقتراب الأزمة من ذروتها  
الدرامية العنيفة ، وإن أخذت إجراءات التعريب طريقها إلى التنفيذ :

الدواوين توشك أن تستكمل تعريبها بعد أن ظلت تدار بدوى الثقافة الفرنسية .  
والأسماء الفرنسية للاميادين والطرق والزنقات ، قد رُفعت واستبدلت بها  
أسماء جزائرية عربية صميمة .

ولافتات المتاجر تُرجم أكثرها إلى العربية ، واكتُفِيَ في بعضها بتغيير الحروف اللاتينية إلى حروف عربية .

والصحف اليومية تخصص صفحات كاملة لنشر دروس العربية .

والمدارس العربية لمحو الأمية تنتشر هناك وتكاد تضيق على سعتها بمن يحرصون على مكافحة أميتهم العربية قبل عام ١٩٧٠ .

ومعاهد المعلمين تضع في حسابها تخريج أكبر عدد من المدرسين لمواجهة أعباء التحول الثوري .

\* \* \*

لكن هذه الإجراءات وأمثالها ، هي أيسر ما في المعركة ، حيث تفرض طبيعة الوضع مواجهة عقْدٍ من التناقض الخطير بين أبناء الوطن الواحد، أثراً لرواسب الاستعمار والغزو من ناحية ، ومعاناةً للموقف الصعب بين ضرورات الحياة الحديثة لشعب عريق تخلف دهرًا ، وبين ميراث عراقة الذي يرد إلى الجزائر شخصيتها الوطنية محررة من شوائب الغزو .

وحيث يتسع ميدان الصراع للخلط بين الرجعية والمحافظه ، بين العصرية وعقدة الحاجة ، بين الطموح وفتنة الغريبة !

وحيث تنحصر الرؤية غالباً في زوايا حادة ، لا تبصر من الموقف سوى جانب واحد ، ولا ترى من الصورة غير وجهه فحسب :

فالذين يَبْعُون أن الانتماء إلى الإسلام كان العنصر الأساسي في كفاح الشعب الجزائري ، قد يغيب عن أكثرهم أن ثورة سنة ١٩٥٤ لم تكن حركة دينية بالمفهوم الشائع ، وإنما كانت نضالاً عن عقيدة أرهفت وعى الشعب لحقوق إنسانيته ، وحمَلته تكاليف وجوده الحر ، بكل ما يعنى من رفض الرق والاستبداد والتخلف .

والذين قرءوا تاريخ الحركات الثورية المعاصرة ، وقد انطلقت من دعوات

مذهبية منتصرة ، قد يخططهم التمييز بينها وبين الثورة الجزائرية التي قام بها شعب لم يتصل بهذه المذاهب في ليل الاستعمار ، فضلا عن كون الجمهرة الشعبية من الثوار اعتصمت بمعقلها في الجبال والريف والبادي ، بمعزل عن صراع المذاهب المعاصرة التي قد يتصل بها أبناء العاصمة والمدن الكبرى ؛ وينفر منها أبناء البادية والجبال ، لأنها في تقديرهم بضاعة أجنبية ، يصدرها الغرب الذي استعبد الشعوب وسرق الأوطان والألسنة والعقائد !

والذين تصوروا أن الاستقلال نهاية الكفاح ، وقعوا في خطأ تاريخي وفكري حين فصلوا بين حرب التحرير وبين استرجاع الشخصية الوطنية الجزائرية ، متأثرين في هذا الفصل بالمفهوم الغربي للثورة الجزائرية وهو مفهوم يعزلها عن أساسها الإسلامي فتقتصر رؤيته على جانبها النضالي ضد الاستعمار ، غافلا أو متغافلا عن كونها ثورة وطنية لشعب يعي ذاته ويزود عن مقومات وجوده وأصالته .

« وغير مجهول أن الثورة الجزائرية احتاجت في الجولة الفاصلة من نضالها المسلح ، إلى خبرة فنية لم تكن متاحة للثوار من أبناء القبائل والجبال . وإنما أتيحت لعدد ممن تدربوا على أيدي المستعمر . فكانوا أداة استخدمتها الثورة في معركة التحرير . وما كان أداة في النضال المسلح ، يمكن أن يصير يعد النصر إلى سلاح ضد النضال الذي تفرضه طبيعة المرحلة الجديدة ، وعقبة في طريق المد الثوري لتحرير الشخصية الوطنية للجزائر .

وتفادى هذا الخطر ، قد يسلم تلقائياً إلى خطر آخر هو النفور من التفتح للفكر الغربي ، والتردد في قبول أساليب التقدم العلمي مع ضرورتها لعملية البناء وحاجات التنمية الاقتصادية » (١) .

\* \* \*

إلى ذلك البُعد ، تتعقد معركة التعريب وتأخذ وضعها الصعب بين متناقض المذاهب وصراع القيم وملتقى التيارات .

وما كنت أدري أنها بلغت ذاك المدى من التعقد ، حتى كانت رحلتى إلى الجزائر في مطلع صيف سنة ١٩٦٨ ، هى التى كشفت لى عن مسالكها الصعبة وخيوطها المتشابكة :

ولم يكن إدراكى لهذا كله عن حدسٍ افتراضى أو اجتهاد شخصى ، بل فرضه علىّ ، وعىُ الجزائر لأبعاد معركتها ، وإصرارها على أن تحسمها بالنصر الذى يعطى استقلالها قيمته ، ويفسح الطريق أمام طموحها دون أن يمسخ أصالتها أو يهدر تضحياتها .

والضمير الشعبى الذى تحدى جبروت الاستعمار ، هو الذى يحرس الثورة الوطنية ويوجه عمليات التصفية لحساب قضية النضال القومى لا عليها .

واصلنا بين حاضِر الجزائر وماضيها القريب والبعيد ، ومنطلقاً بها فى ثورية واعية لسير خطاها على الدرب ، مرتبطة بجذورها الأصيلة فى أعماق أرضها الطيبة .

ولقد كان من جديد ما شاهدت من معالم الجزائر العربية الحرة مكتبة الجامعة فى مبناها الشامخ الأنيق الذى بدى فيه من عام ١٩٦٤ بعد عامين من الحريق ، وافتتحه « الدكتور أحمد طالب الإبراهيمى وزير التربية الوطنية » فى شهر أبريل من سنة ١٩٦٨ ، نفس الشهر الذى صدر فيه قرار الرئيس بومدين بتحديد عام ١٩٧٠ موعداً أقصى لاستكمال تعريب العاملين فى أجهزة الدولة ومؤسساتها ، ونفض بقايا الصبغة الدخيلة التى ترفضها الأمة .

\*\*\*

هل يبدو القرار صعباً ؟

الواقع أننا نبالغ كثيراً فى تصور نجاح المحاولة الاستعمارية هناك ، حين

نحصر الرؤية في الأحياء الفرنسية من العاصمة وبعض الثغور .  
 لقد بقيت الأحياء الشعبية في العواصم بمعزل عن هذا الغزو ، كما بقيت  
 جبال الجزائر وريفها وبواديها معازل منيعة تصد التيار ، وتنفر من مجرد  
 الاتصال بالرجل الغربي مهما يكن زيه أو قناعه ، لا عن انغلاق يرفض التفتح  
 كما فهم بعض المثقفين العصريين ، ولكن عن يقين بأن هذا الموقف هو الذي  
 يحمي نضال الشعب ضد ذرائع الغزو .

أقول هذا وفي مسمعى صدى باق من أغنية الانتصار التي سمعت شعب  
 الجزائر يشدو بها في عيد استقلاله الأول :

يا محمد مبروك عليك

الجزائر رجعت إليك !

وأظنها تكفي لبيان مصير المعركة اللغوية على أرض البطولات . . . .

## تعليم العربية ورأى فى أزمته اللغوية

ليست عقدة الأزمة ، فى اللغة ذاتها ،  
العقدة فيما أتصور ، هى أن أبناءنا لا يتعلمون  
العربية لسان أمة ولغة حياة ، وإنما يتعلمونها  
:مزل عن سلبقهم اللغوية : قواعد صنة  
وقالب صماء ، تجهد المعلم تلقيناً والتلميذ  
حفظاً ، دون أن تكسبه ذوق العربية ومنطقها  
وبيانها

ما أشق على المفكرين منا ، أن يشدوا أعينهم عن المعركة الضارية التي تدور بيننا وبين أعداء البشر ، ليظلوا في مواقعهم الفكرية نضالا عن معنويات الأمة ، واشتغالا بقضاياها !

وما أصعب أن يُلقى أحدها باله إلى موضوع قومي ، قد يبدو للنظرة العجلى بعيداً عن الصراع المحتدم على أرض الرسائل ، في المنطقة الموبوءة بالعصابة الصهيونية التي تشغل كل أجهزة الإعلام في الدنيا وتفرض عليها أن تلتقط أصداء عدوانها المسعور ، وأن تشغل بأفاعيلها في مسخ الحمى المقدس العزيز على البشرية المتدنية ، على اختلاف مللها وعقائدها ومذاهبها !

قد يُسيغ موقفنا ، أننا فيما نشتغل به من قضايا وجودنا المعنوي ، إنما نأخذ أماكتنا في الموقع الفكري من ميدان معركة ضارية معقدة ، لانتحصر في الجانب العسكري وحده بمعزل عن معنويات الأمة .

ويبقى مع هذا التقدير لخطر القضايا الفكرية ، أننا نجد أشق العسر في أن نفرغ لمعالجتها بما تحتاج إليه من تدبر وأناة ، والمناخ من حولنا مسمم بأنفاس العدو الجاثم على منطقة مقدسة من حمانا المستباح !

• • •

#### لجنة . : ولجان :

في مثل هذا الجو النفسي المشحون بالتوتر والقلق والغضب ، أحاول أن أنظر في أزمة التعليم المدرسي للغتنا القومية ، من حيث فرضت هذه الأزمة نفسها على المرحلة الدقيقة الصعبة التي نمر بها ، فصدر قرار من « الأستاذ الدكتور محمد حلمي مراد : وزير التربية والتعليم » بتكليف لجنة من أساتذة العربية ومفتشيها ، لدراسة هذه المشكلة على وجه السرعة ، واقتراح الحلول التي توصي بها اللجنة لإصلاح التعليم المدرسي للغتنا القومية . .

وبقدر ما أعانت ظروف وشواغلي ، شاركت في عدد من جلسات هذه اللجنة ، فتأثرت بما بذل السادة الزملاء من جهد مضمّن لكي يفرغوا من



المهمة التي كُلفوا بها في الزمن القصير المحدد لها . .

وذكرت بلحاناً سابقات ، ألقها الوزارة على طول نصف قرن ، للنظر في هذه المشكلة المزمّنة ، إلى جانب ماتراكم في المجمع اللغوي من تقارير بلحانه . وما حفظت مكتبة « معهد البحوث والدراسات العربية » من بحوث الأساتذة الذين حاضروا في مشكلات حياتنا اللغوية .

وهي تزداد على الزمن تعقيداً . وتستعصى على كل الجهود والمحاولات . وكنت أتصور أن يبدأ عملنا في اللجنة الجديدة ، بمراجعة أعمال اللجان السابقة ، والنظر فيما اهتدى إليه الباحثون من تشخيص للأزمة ، وما قدموا من توصيات ومقترحات لحلها ، ومعرفة المصير الذي آل إليه كل ذلك . .

لكي ننتفع بدراساتهم ونستنير بآرائهم ، ونبدأ من حيث انتهت خطواتهم . لكن وضع اللجنة لم يحتمل إلقاء أى سؤال عما مضى ، ومطلوب منها أن تنظر في الأزمة وتدبر حلاً عاجلاً لها ، في أشهر ثلاثة لا تزيد . .

ومنطق السرعة مفهوم ، إذا قدرنا أن السيد الوزير ، حريص على أن تأخذ مقترحات اللجنة طريقها إلى التنفيذ ، قبل أن يحل الموعد الموسمي لطبع الكتب المدرسية لعام دراسي جديد .

فضلاً عما يعطى تحديد الوقت لمهمة اللجنة ، من جدية العمل وتأمين مصيره من الضياع الذي تعبّر عنه القولة الذائعة : إذا شئت أن تدفن مشروعاً فأحِلْهُ على لجنة تلوسه !

ولكن يبقى سؤال لا يمكن تجاهله ، وإن لم يعرضه أحد :

ترى هل يستطيع أعضاء اللجنة الجديدة أن يهتدوا في هذا الوقت المحدود ، إلى مفتاح سحرى يحل عقدة الأزمة اللغوية التي أعيت مَنْ قبلهم على الزمن الطويل ؟

أخشى أننا لا نملك إلا الوقوف عند الوضع الحالي لا نمسه بتغيير

جوهري ، وإنما قصارى ما تحاوله هو أن نعيد توزيع أبواب المناهج المدرسية للغة العربية ، فننقل باباً من المرحلة الابتدائية أو الإعدادية إلى المرحلة الأعلى ، وقد نحذف فقرة من هذا الباب أو ذاك تيسيراً على التلاميذ ، وقد نقترح إضافة درس أو درسين على القدر المقرر في المنهج الحالي . . .

ثم نربح ضماثنا ، فنعطى « المعلم » الدور الأول في إصلاح التعليم ، والمعلم لا يتم إعداداه في عام أو عامين ، ويبقى السؤال : ماذا يُعلم ؟ وكيف يعلم ؟

وفي وهج المناقشة ، تبدو المشكلة معقدة أشد التعقيد ، تتشابك خيوطها فلا تستطيع أن تفصل بين المعلم والمادة المدروسة ، ولا بين المادة والمنهج المقرر ، ولا بين هذا كله والكتاب المدرسي !

وتواجهنا الأزمة بأبعادها المترامية وعمقها العصية ، في الوقت الذي يلوح فيه الوقت المحدد لعمل اللجنة ، أشبه بنذير لا يكف عن ملاحقتنا ، فيتر مناقشاتنا ويحصر رؤيتنا في نطاق محدود !

\* \* \*

### ظواهر الأزمة :

والظاهرة الخطيرة لأزمنا اللغوية ، هي أن التلميذ كلما سار خطوة في تعلم اللغة العربية ، ازداد جهلاً بها ونفوراً منها وصدوداً عنها ! وقد يمضى في الطريق التعليمي إلى آخر الشوط ، فيتخرج من الجامعة وهو لا يستطيع أن يكتب خطاباً بسيطاً بلغة قومه !

بل قد يتخصص في دراسة اللغة العربية حتى ينال أعلى درجاتها ، ويعيه مع ذلك أن يملك هذه اللغة التي هي لسان قومته - ومادة تخصصه !

كل درس يتلقاه أبناؤنا في لغتهم العربية ، ينأى بهم عنها . ونرى اللغات الأخرى يتعلمها أبناؤها في مدارسهم العامة ، فيكسبون من كل درس معرفة جديدة بأسرار لغتهم !

وتسمع أساتذة كباراً يحاضرون بالعربية أو يلقون أحاديث في أندية

ثقافية ، وتقرأ لهم ما يكتبون من بحوث ومقالات ، فندرك ما يعانون من إحساس باهظ بعقدة اللغة التي ترهقهم بالشعور بأنهم لا يملكون أداة التعبير السليم الطلق ، عن أفكارهم وآرائهم .

وتتضرى العقدة . حين تصل ببعضهم درجاتهم العلمية إلى مراكز قيادية في هيئة التدريس الجامعي بأقسام اللغة العربية ، فيعانون تدريسها بذوق أعجمي وينطقونها برطانة ينبو عنها حس العربية ، ومن ثم يضمنهم الشعور بأنهم في غير أماكنهم ، ولا يزيلهم الخوف من انكشاف ضعفهم أمام الأصلاء من الزملاء والطلاب !

وبغريزة الدفاع عن وجودهم ومناصبهم ، يؤرقهم الحقد على هؤلاء الأصلاء ، فلا يجدون ما يشفيهم إلا أن يحاربوهم بتهمة الرجعية والتخلف وبالسخرية من " فقهائهم ومشيوخهم " !

وتعويضاً عن النقص والقصور ، تهاونوا بأصيل علوم العربية ، فطغت عليها بضاعة واردة من أساليب أعجمية معربة ومذاهب أجنبية مستعارة أقحمت على الدراسات اللغوية في أقسام التخصص ، على حساب ما لا يجوز أن يستغنى عنه دارسو العربية في المرحلة الجامعية .

وتتمزق أواصر الزمالة بين أعضاء الأسرة الواحدة ، فيتأثر المناخ العلمي بما يحدثه هذا التمزق من شر ونكر ، وما يتركه من صدى في نفوس أفواج من الطلاب الذين يخرجون ليشغلوا وظائفهم في حياتنا اللغوية ، ومنهم معلمو العربية في مدارسنا . . . .

والأمر في اللغة العربية بمدارسنا ، لا يقتصر على مجرد كونها مادة يتعلمها التلميذ ويؤدي الامتحان فيها بمستوى أو بآخر . . .

ولكنها مجلى أصالته ، ولسان قوميته الذي يوصله بتاريخ أمته وتراث آبائه وأجداده ، ويتجاوب به فكرياً مع أبناء وطنه العربي على امتداد أقطاره ، واللغة التي ينبغي أن تقدم إليه ما يرضيه من الزاد الثقافي لكيلا يدين بولائه الفكري والوجداني للأجانب الغرباء !

استراح كثير منا فآلقوا بالتبعة فيما نعانى من أزمنا اللغوية ، على ظاهرة الازدواج اللغوى : نكتب ونقرأ ونتعلم ونتثقف بلغة ، ونتعامل فى حياتنا بلغة أخرى . وأفقنا الفكرى مشحون بأصداء الشكوى من هذا الوضع ، وضجيج الجدل المثار حول العامية والفصحى .

ولكن الرؤية النافذة لا تلبث أن تلمح من وراء النقع المثار ، أن الأزمة لا يمكن أن ترجع إلى وجود لغة للتخاطب والتعامل اليومى فى البيت والسوق ، وأخرى للتعليم والثقافة والأدب . .

إذ لو كان هذا الازدواج هو عقدة الأزمة ، لما كان هناك وجه للشكوى من فساد العربية على ألسنة المتعلمين وأقلامهم ، وقد تعلموا من دروس العربية ما يكفى لتقويم ألسنتهم .

وكل اللغات تعرف هذا الوضع الثنائى ، تختلف فيه لغة البيت والسوق عن لغة المدرسة والجامعة ، والفكر والأدب .

لكن التلميذ هناك ، ما يكاد يقطع مراحل تعليمه العام ، حتى يعرف قواعد لغته ويقرأ بها ويكتب ، دون أن يحول استعماله للعامية — فى مجالها — بينه وبين التمكن من لغة الثقافة والفكر ، والاقتدار عليها .

وفقهاء العربية منا ، يتعاملون فى حياتهم اليومية باللغة العامية ، دون أن تجور على أصالتهم فى الفصحى أو تحجب عنهم أسرارها فى النطق والتعبير ، أو تهبط بمستواهم فى الأداء والبيان .

وقد سبق القول فيما عرفت العربية من ظاهرة الثنائية اللغوية من قديم جاهليتها المعروفة لنا : فى اللغة العالية المشتركة للشعر والنثر الفنى ، وفى لغات القبائل يتعاملون بها فى نطاق كل قبيلة .

ولم تشك العربية فساداً من هذا الوضع .

وعُرفت الثنائية اللغوية في نطاق أوسع ، حين خرج العرب من جزيرتهم بعد الفتوح الإسلامية واستقروا في الأقطار الجديدة ، يتعاملون بالفصحى المشتركة في الثقافة والعلم والرسميات ، ويتحدثون بلهجاتهم التي هاجروا بها من منازل قبائلهم في الجزيرة العربية .

ثم كان التحول التاريخي الكبير للحياة اللغوية لشعوب المنطقة التي ما لبثت أن تعربت بعد الإسلام وهجرت لغاتها القديمة إلى اللغة العربية ، وكان من الطبيعي أن تتفاوت لهجاتها المتعربة .

وبقيت الفصحى المشتركة ، اللسان القومي الموحد لشعوب المنطقة على اختلاف أصولهم البعيدة وتباعد أقطارهم ما بين المشرق الآسيوي ، وأقصى المغرب الأفريقي : بها يخطب خطبائهم ، وينظم شعراؤهم ، وتدون رسائلهم ، وتكتب مؤلفاتهم .

كما سبق القول في ازدهار الفصحى في عصر النهضة الإسلامية ، فكانت لغة الدين والعلم والأدب والثقافة والحضارة ، لم يَصِرْ لها أن شعوب الدولة الإسلامية كانت تتكلم بلهجاتها المحلية ، ولا عاق انطلاقتها وسيادتها ، وجود هذه الثنائية اللغوية ، تلتقي بها الأمة على لسان قومي موحد ولغة عليا مشتركة ، وتختلف اللهجات لا باختلاف الأقطار فحسب ، ولكن باختلاف بيئات القطر الواحد .

فالقول بأن وجود لغتين : فصحى وعامية هو عقدة الأزمة في حياتنا اللغوية ، مردود بحكم التاريخ ، ومنطق الواقع المحكوم بسنن الاجتماع اللغوي التي تفرض وجود لغة عامة مشتركة للثقافة والأدب ، ولهجات محلية محدودة بنطاق البيئة والإقليم والقطر .

ولسنا بحيث نعيد الكلام هنا في العوامل والظروف التي نقلت هذه الظاهرة الطبيعية من وضعها المحكوم بقوانين الحياة وسنن الاجتماع ، إلى حيث صارت في أفقنا الفكري المعاصر ، أزمة حياتنا اللغوية .

واضح أنه مهما يكن من سعة الفروق بين الفصحى ولهجاتها العامية ، فالمفروض أن التعليم يصل التلميذ بالفصحى ويمكنه من الاقتدار عليها .

لكنه يقطع المراحل المدرسية واحدة بعد أخرى ، دون أن يستقيم لسانه بلغة التعليم والثقافة .

فهل تكون العقدة في اللغة الفصحى ذاتها ؟

ذلك ما يبدو لأول وهلة ، فيشغل الحراس على لغتنا القومية ، بالنظر في وجوه الصعوبة والتعقيد في الفصحى ، والعكوف على التماس وسائل لمعالجتها . ويضج من يضج بالشكوى من جمودها ويرى أن حياتنا اللغوية لن تستقيم ما لم نأخذ حريتنا في تغيير الموروث من سننها في البناء اللغوي ونهجها في التعبير . وفي هذا أيضاً ما هو موضع نظر :

لقد شكوا مثلاً من وجود كلمات في العربية يختلف رسمها في الكتابة عن النطق بها ، كآلف المقصور حين تكتب ياء في مثل : يُمنى وذكري : وكالهمزة المفتوحة نطقاً ، تكتب على ياء بعد الكسرة وعلى واو بعد الضمة : في مثل : مثات وزوام . . .

وتعلمنا اللغات الأوربية الحية ، فلم يشق علينا أن يختلف نطق ألفاظ كثيرة فيها عن طريقة رسمها ، ولم نسمع أن أهل هذه اللغات فكروا في أن يستبعدوا من الكتب المدرسية ما يشذ عن القواعد القياسية للإملاء .

وشكوا من صعوبة النسق اللغوي الذي يضبط معاني الألفاظ في الجملة ، بحركات الإعراب . وما نعرف لغة في الدنيا تستغنى عن قواعد لنحوها وتصرفها وأدائها ، يتعلمها أبناء اللغة في مدارسهم ، وتعلمها نحن الغرباء ، فلا نلن عقد القواعد اللغوية في الألبسة الأوربية .

بل لماذا لا نقول إنه ما من مادة علمية يدرسها أبناؤنا ، لا تفرض عليهم قواعد وضوابط ليست بحال ما ، أسهل ولا أيسر من القواعد الأساسية للغة العربية . والتلميذ في المدرسة الابتدائية يتعلم قواعد الحساب فلا تفكير في إعفائه مثلاً من القسمة المطولة أو إجراء عمليات الحساب في الكسور الاعتيادية والعشرية ، وما أظنها أيسر من القواعد النحوية البسيطة للفعل والفاعل والمفعول .

وقد تكون عملية حسابية في الأرباح البسيطة والمركبة ، أعقد من ضوابط المبتدأ والخبر أو الإضافة أو الاستثناء . . .

ونجد مع هذا ، أن تلميذ المدرسة الابتدائية يحل مسائل الحساب المقررة عليه ، وقد يعييه بعد إتمام المرحلة الثانوية أن يقرأ جملة من فعل وفاعل أو من مبتدأ وخبره ، قراءة صحيحة !

\* \* \*

### رأى . . .

وأخشى أن نكون ضللنا طريقنا إلى عقدة الأزمة ، متأثرين بالشكوى من وجود فصحي وعامية ، ومن صعوبة اللغة العربية ، فابتعدت بنا الجهود والمحاولات عن هذه العقدة ، من حيث توهمنا أننا وصلنا إليها فشخصنا العلة وعرفنا موضع الداء . وفي مثل هذا الموقف ، يكون من المجدى أن نحاول تغيير الاتجاه الذى سرنا فيه أشواطاً دون أن تلوح على الأفق بادرة تشير إلى أننا اهتدينا حقا إلى عقدة أزمتنا اللغوية .

وإذ أحاول أن أتجه إلى طريق آخر ، يبدو لى أن عقدة الأزمة ليست فى اللغة ذاتها ، وإنما هى فى كوننا نتعلم العربية قواعدَ صنعة وإجراءاتٍ تلقينية وقوالبَ صماء ، نتجرعها تجرعاً عقيماً ، بدلا من أن نتعلمها لسان أمة ولغة حياة .

وقد تحكمت قواعد الصنعة بقوالبها الجامدة ، فأجهدت المعلم تلقيناً والتلميذ حفظاً ، دون أن تجدى عليه شيئاً ذا بال فى ذوق اللغة ولح أسرارها فى فن القول . وانصرف همنا كله إلى تسوية إجراءات الصنعة اللفظية ، بعيداً عن منطق اللغة وذوقها .

وكان الخطأ الأول ، أن الأصل فى الإعراب أن يضبط المعنى ويدل عليه ، لكن اللغويين فصلوا النحو عن المعانى ووضعوا بينهما الحدود والأسوار . فأنت تتعلم فى النحو مثلاً ، حكم الصنعة فى نائب الفاعل ، أما لماذا تُصرف العربية النظر عن الفاعل وتأتى بما ينوب عنه ، فذلك ما لا شأن للنحو به ، وإنما مكانه فى علم آخر هو علم المعانى !

وأنت تدرس فى النحو ، الحكم الإعرابى للمبتدأ المؤخر والخبر المقدم ، أما دواعى التقديم والتأخير فمنفصلة تماماً عن النحو الذى لا يتدخل فى اختصاص علم المعانى .

ويحفظ التلميذ قواعد الصنعة فى المعارف والنكرات ، أما سر العربية فى التعريف والتنكير فلا شأن للصنعة به !

وهذا العزل الشاذ بين الإعراب والمعنى ، هو الذى جار على جدوى التعليم فى كسب ذوق العربية ومعرفة منطقها .

وتمضى مدارسنا على شغل دروس العربية بهذه القواعد النحوية والصنعة البلاغية ، منفصلة تماماً عن ذوق العربية وأساليبها ، فيتلقاها التلميذ تلقينا ويحفظ منها ما يفرغه فى ورق الإجابة يوم الامتحان ، ثم ينتهى منها تماماً وينقطع كل ما بينه وبينها ، لم تكسبه معرفة العربية ولم يُجَدِّ على أدواته اللغوية . بل أخشى أن أقول إنها تفسد سليقته اللغوية التى كسبها بفطرتة : فالتلميذ يدخل المدرسة الابتدائية وهو ينطق على سجيته بصيغ التصغير ويُجرى النسب ، ويميز بين المؤنث والمذكر ، والمفرد والمثنى والجمع . لا يخلط بين كتابين وكتب ، ولا يقول : الأبواب مفتوح ، أو المعلم محترمة ، أو المدن المصريون ! وهو يستعمل أكثر المصادر والجموع بصيغها الصحيحة ، كما يجرى لسانه بأسماء الفاعل والمفعول والزمان والمكان والآلة فى صيغها الفصيحة . . .

ولكن المدرسة حين تلقنه قواعد الصنعة ، يتعثر فى عُقَدِها ويضل فى متاهتها . وقد نسأل طالب اللسان فى قسم اللغة العربية عن إجراءات الصنعة فى تصغير : بنت أو سوق ، مثلاً فلا يدرى بم يجب . وهو من طفولته يقول : « بُنْيََّةٌ وسويقة » على سليقته التى فسدت بالتعليم !

• • •

هذه فكرة مجملة عن رأى لى فى أزمتنا اللغوية ، أرجو أن يأخذ مجاله من النظر والتأمل والدراسة ، لعله يجادى علينا فيما نتعلق به من صحة وجودنا اللغوى !



## حوار

### في قضايا الغويّة

- ١ - هذه اللغة المشتركة ومعالم تطورها
- ٢ - مستقبل اللغة العربية المشتركة
- ٣ - لغة الأدب الشعبي بين العامية والفصحى

## هذه اللغة المشتركة ومعالم تطورها الحديث

مع كتاب للأستاذ محمد خلف الله

لم يكن عجباً ونحن نجتاز هذه الظروف القاسية العصبية ، أن نلوذ بما  
عُرف لنا من ماضٍ طويل مشترك ، كنا نلتقي فيه فكراً وروحاً ووجداناً ، عبر  
الحواجز والأسوار ، ونتجاوب بكل قلوبنا ومشاعرنا برغم كل الحدود والسدود ..  
وذكرتُ فيما ذكرت ، هذه اللغة المشتركة لسان عربيتنا ومناط وحدتنا  
الفكرية والذوقية ، فترأت لى من وراء الحقب والأدهار ، أطياف أجداد  
لنا أنفقوا أعمارهم فى خدمة هذه اللغة ، وبذلوا حياتهم لحمايتها فى مهبط  
الأعاصير ، ومنحوها نور عيونهم لكى يضيئوا لها مسراها فى ليلنا الطويل ..  
من هؤلاء الجنود الفدائيين : الشامى والعراقى ، والحجازى والنجدى  
واليمنى ، والمصرى والمغربى والأندلسى . . . شهدتهم العصور والأجيال  
عاكفين على رسالتهم النبيلة ، فى صوفيّة علمية متجردة صنعت لنا تاريخنا الفكرى  
المشرك ، وحمّمت تراثنا الذى يعطى وجودنا المعنوى عنصر أصالته وسر بقائه ..

\* \* \*

وفى مكتبتنا الحديثة ، كتاب قيم عن ( معالم التطور الحديث فى اللغة  
العربية وآدابها ) ألفه « الأستاذ محمد خلف الله : عميد معهد البحوث  
والدراسات العربية » ونشرته الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، حلقة فى سلسلة  
دراسات عن حركة التجديد والإحياء فى الحياة العربية فى العصر الحديث .  
وقد حدد الأستاذ العميد نطاق بحثه فجعله خاصاً بمصر وحدها فى القرن  
التاسع عشر ، وهذا القرن — أو بتحديد أدق : الربع الأخير منه — قد  
شهد نقطة انطلاق حاسمة فى تاريخنا القومى والفكرى بوجه عام : فيه لاح

شعاع اليقظة يومض في الظلمة ، ومنه بدأ الركب العربي يتحرك في أعقاب ليل طال ، وبه تميزت معالم الطريق لهذه النهضة الحديثة التي يظن بعضنا — خطأ — أنها طارئة مفاجئة .

ولقد كنا في حاجة حقاً ، إلى عالم محقق مثل الأستاذ خلف الله ، يجلو تلك الفترة التي شهدت بوادر اليقظة ، وينصف أولئك الرواد الذين حملوا الشعلة في الظلام . وأذنوا في أفقنا بدعاء الفجر الجديد والناس نيام ، وخلفوا لنا تراثهم اللغوي والأدبي ، يضيء معالم الطريق أمام الذين تلقوا اللواء من جيل الرواد .

وفي قراءتي للكتاب ، لم يفارقني الشعور بما احتمل الأستاذ الجليل من مشقة وهو يحاول أن يركز دراسته لتلك الفترة الحافلة في خلاصة موجزة ، فاستعان عليها بالهوامش التي حملها أقصى ما تطيق من حواش وتعليقات وإضافات ، ومن نصوص لم يتسع لها المجال في العرض العام . ولم يستطع مع هذا أن يقدم كل ما عنده : مبرز الخطوط الكبرى لحركة البعث ، وركز اهتمامه على أعلام من راودها : « رفاة الطهطاوي » في الترجمة والاتصال بالثقافة الغربية ، و« محمد عبده » في الإنشاء والكتابة ، و« البارودي » في إحياء الشعر ، و« المرصني ، وحمزة فتح الله ، وحفي ناصف » في دراسات اللغة وآدابها .

• • •

وكنت أتوقع ، بعد أن فرغ الأستاذ العميد من بيان بوادر البعث اللغوي والأدبي بمصر ، أن يتابع في الجزء الثاني من كتابه القيم ، رصد مطالع التطور الحديث للغة العربية بوجه عام . لكنه صرح في الفقرة الأخيرة من هذا الجزء الأول بأنه وصل في سيره إلى أوائل القرن العشرين حيث تأخذ الاتجاومات التي سجلها في سابقه تنضج وتثمر ، وحيث تنمو ميادين جديدة في الأدب واللغة سيحاول أن يتبعها في القسم الثاني من الكتاب .

والكتاب بهذا الوضع ، يشير قضية هامة : ذلك لأنه إذا كان قد التزم

في جزئه الأول حدود المجال المخصص للبحث ، فقصر اهتمامه على مصر ، إلا أن الموضوع العام للكتاب في عنوانه ، هو : معالم التطور الحديث في اللغة العربية وآدابها .

وأستاذنا يعلم بلاريب ، أن التطور اللغوي والأدبي ، لم تنفرد به مصر وحدها ، وإنما شاركتها فيه أقطار أخرى للعربية في المشرق والمغرب ، حملت نصيباً من هذا التطور ، قلّ أو كثر .

وما يغيب عنه جهد الرواد ممن شاركوا في حمل شعلة اليقظة ، في شتى أقطار الوطن العربي ، من أمثال الألوسي والصابي النجفي والصابي والزهاوي في العراق ، والشدياق واليازجي والبستاني وأمين الريحاني وجرجي زيدان في لبنان ، والشيخ طاهر الجزائري والقاسمي وكرد علي في سوريا ، والخالدي والسكاكيني والنشاشيبي في فلسطين والأردن ، وعبد الحميد بن باديس والشيخ البشير الإبراهيمي والشاعر محمد العيد آل خليفة في الجزائر ، وحسن حسني عبد الوهاب والشيخ بن عاشور في تونس ، وعلماء مراکش وفاس في المغرب الأقصى . . .

وأعلم أن عدداً من أبناء هذه الأقطار توافروا على دراسة فجر النهضة الأدبية الحديثة في بلادهم ، كما فعل الدكتور جميل سعيد في محاضراته عن العراق ، والدكتور ناصر الدين الأسد عن الأردن وفلسطين ، والأستاذ شفيق جبري والأستاذ سامي الكيالي عن سوريا ، والدكتور سهيل إدريس عن لبنان ، والأستاذ حسن حسني عبد الوهاب عن تونس ، والدكتور صالح خرفي عن الجزائر ، والأستاذ عبد الهادي التازي عن القرويين في فاس ، والأستاذ عبد الله كنون عن الأدب المغربي . .

لكن الاكتفاء بدراسة التطور الحديث للغة العربية ، في كل قطر على حدة ، يوشك أن يخيّل إلى القارئ أن لغتنا كانت تمارس تطورها في كل قطر ، بمعزل عن الأقطار الأخرى . .

مع أن كل قضية لنا لغوية ، إنما هي قضية عامة ، يشترك فيها أصحاب

العربية على اختلاف أقطارهم ، ولا يمكن أن نستوضح رؤية تطورها الحديث مالم نجمع هذه التيارات الإقليمية في مصب واحد ، تلتقى عنده شتى الروافد ، من قلب المشرق الآسيوى إلى أقصى المغرب الأفريقى ، لتبدو الصورة لنا آخر الأمر متكاملة .

ولا يعنى هذا بحال ما ، ألا تُدرس حياةُ اللغة العربية في كل قطر من أقطارها ، فذلك هو ما يحتمه المنهج العلمى . لكنه يعنى ألا تقوم هذه الدراسة المتخصصة في عزلة عن التيار العام لسير الحياة بلغتنا المشتركة ، إذ أن طبيعة العربية من حيث هى لغة الوطن العربى كله ، تستلزم أن يدخل في تقدير الدارس ، هذا التفاعل المحتوم بين مناطقها ، وتلك المشاركة التى لا بد منها ، لأصحاب العربية في مختلف أقطارها .

وإذا كان الأستاذ العميد بدقته المنهجية قد آثر تخصيص هذا الجزء لمصر ، وترك لسواه من أبناء الأقطار الأخرى أن يرصدوا مطالع النهضة اللغوية في بلادهم ، فقد بقى أن يتناول دارس " منا هذا الموضوع من أفقه العام ، ليضىء لنا معالم التطور الحديث لهذه اللغة المشتركة التى تعاقب علماؤنا على خدمتها جيلا بعد جيل .

وما أحسبني أشق على أستاذنا إذا رجوت أن يكون هذا هو موضوع الجزء الثانى من كتابه ، في ضوء ما اجتمع لنا من دراسات متخصصة للعربية في مختلف أقطارها ، قبل أن يغذ السير إلى القرن العشرين ، ويتابع دراسته لمعالم التطور الحديث في اللغة العربية وآدابها .

## مستقبل اللغة العربية المشتركة

مع كتاب الأستاذ الدكتور « إبراهيم أنيس »

قضية الوحدة اللغوية ، هي مدار البحث الجاد الذى عاجله الأستاذ الدكتور فى هذا الكتاب<sup>(١)</sup> .

وهذه الوحدة اللغوية أمل كبير تعترضه صعوبات جمة . يذكر سيادته منها : « صعوبات من ناحية الاختلافات فى الأداء والنطق ، ومن حيث المصطلحات والدلالات . ومن حيث الأساليب التى تأثرت باللهجات المحلية أو بلغات أجنبية كالإنجليزية فى مصر والعراق ، والفرنسية فى الشام وبلاد المغرب ، وغير ذلك من مشاكل إذا استطعنا التغلب عليها ، ظفروا فى آخر الشوط بتلك اللغة العربية المشتركة » ص ٤٢

ويرى الأستاذ الدكتور ، أنه « لكى تتحقق تلك الوحدة اللغوية ، يجب على كل الأمم العربية<sup>(٢)</sup> أن يؤمنوا إيماناً قوياً بفائدة ذلك الاتجاه ونفعه ، بالنسبة لمستقبلهم السياسى والاقتصادى والاجتماعى ، وأن تجتمع كلمتهم على العمل لنجاح ذلك . ولا يمكن أن يتم هذا إلا بأن يسلموا القيادة طيبة موجهة كالجامعة العربية مثلاً ، ترسم الخطة وتحدد المعالم ، وعليها جميعاً الخضوع لتعليماتها وما تقترحه علينا - » ص ٥٦ .

وقد ترك الأستاذ الدكتور للزمن مهمة الفصل بين من يرون - لتوحيد اللغة المشتركة - إعادة الفصحى إلى عزها القديم وإحياء تراثها الأصيل ، وتعبئة القوى لنشرها عن طريق التعليم والإذاعة ومختلف وسائل النشر الأخرى حتى تسترد الفصحى سلطانها وتنتصر على اللهجات المحلية ؛

ومن يذهبون إلى اختيار اللهجة المصرية ، فى أسلوبها المذهب الذى يستعمله المثقفون ، لتكون لغة حديثة مشتركة بين الأمم العربية<sup>(٣)</sup> .

(١) طبع معهد البحوث والدراسات العربية سنة ١٩٦٠ .

(٢ ، ٣) لعل الأول أن يقال : شعوب أو أبناء الأمة العربية .

وكنت أرجو لو أنه ترك للزمن كذلك ، مهمة حل هذه المشكلة التي عقدتها ظروف طارئة شاذة لا شك في أن الزمن لن يسمح ببقائها .

وفي رأي أن عقدة الموقف ليست في وجود لهجات محلية تقضى بها حاجات الحياة اليومية ، فلكل لغة حية في عصرنا لهجاتها المحلية التي تختلف باختلاف الأقاليم . والعربية نفسها ، قد كان فيها ، أيام عزها وأصالتها ، لهجات محلية للقبائل ، لم تمنع ما يشبه الوحدة اللغوية في المجال الأدبي ، ولم تحل عند نزول القرآن الكريم ، دون فهمهم لغته العليا ، على اختلاف لهجاتهم .

وليست عقدة الموقف كذلك ، أن بين الشعوب العربية فروقاً صوتية في الأداء ، كالاختلاف في نطق الأصوات الساكنة مثل الكاف والقاف والحاء والذال والطاء ، جهراً وهمساً وتفخيماً وتخفيفاً ، أو بعض أصوات اللين مداً وقصراً ، أو اختلافنا في وضع النبرة ضغطاً وإمالة ... ( ص ٤٢ : ٤٥ )

فقد وُجد مثل هذا الاختلاف بين العرب الفصحاء الأصلاء قبل أن يخرجوا من جزيرتهم ، وبقيت آثاره واضحة في « القراءات السبع » يؤدي فيها اللفظ الواحد بطرق عدة يحتملها رسمه . ولم يؤدي هذا الاختلاف إلى نفور العربي من أخيه العربي ، ولا عُدّ مشكلة خطيرة تحتاج إلى العلاج والحسم ؛ إذ الأمر فيها طبعي ، وليس في الإمكان أن نكلف الأشياء ضد طبيعتها فنفرض على ملايين العرب أن يؤديوا اللفظ الواحد بصورة صوتية واحدة ، لا تطوع بها ألسنتهم .

وليست العقدة كذلك في اختلاف بعض أساليب التعبير بين الأقطار العربية تبعاً لظروف بيئتها وتأثرها بأساليب أجنبية شتى ( ص ٤٦ ) فمثل هذا يحدث في أبناء الإقليم الواحد ، حيث تختلف أساليب التجاريين عن الزراعيين ، ورجال الصناعة عن رجال القانون أو الأدب أو الطب ، وسكان الجبال والبادي عن سكان السواحل . . ثم لا يكون هذا الاختلاف الطبيعي في صور التعبير وأساليب الأداء ، ظاهرة تمزق في الوحدة القومية لأبناء الوطن الواحد والقطر الواحد .

وليست العقدة كذلك : في استحداث دلالات جديدة للألفاظ لم تنص عليها المعاجم القديمة . فالعربية في عصور أصالتها ونقاها . كانت تتابع استحداث دلالات متجددة للألفاظ ، ويعينها على هذا التجدد « ونة » طبيعية يكفي أن يُستشهد لها بسعة الاستعمال المجازي الذي يستحدث دلالة جديدة للفظ اعتماداً على أدنى صلة بالدلالة الأولى . ونحن اليوم نقول رحل فلان بالقطار أو الباخرة . مع أن الدلالة الأصلية للرحلة . شد الرحال على المطايا للسفر . ونقول ببساطة : أفلعت الطائرة ، مع أن الإقلاع في الأصل اللغوي للسفينة ذات القلوع . فهل تكون مشكلة ، استحداث دلالة جديدة للمظاهرة مثلاً . في إعلان الرأي أو إظهار العاطفة في صورة جماعية ( ص ٧ ) ولدينا آية « التحريم » في أنقى وأعلى نص عربي ، قد استعملت التظاهر فيما يشبه هذه الدلالة المستحدثة ؟ :

« إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ، وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ » .

وهل نبعد كثيراً عن الدلالة المعجمية للفشل « بمعنى الكسل والضعف والتراخي ، حين نستعمله بمعنى الخيبة — ص ٧ : « التي هي نتيجة الكسل والضعف ؟ وهل نعتسف في التجوز ، حين نطلق لفظ « الشقى على اللص وقاطع طريق . وهو في المعجم ضد السعيد — ص ٧ : « . ومتى كان اللص سعيداً ؟ ثم . ألسنا نستعمل اليوم الشقى بدلالته المعجمية في مثل قولنا : ما أشقاه . . ويا للشقاء ؟

كلا . . ليست عقدة الموقف — فيما أرى — في شيء من هذا ومثله ، وإنما هي في إصرار بعض حماة اللغة عندنا على عزل الفصحى عن الحياة ، ولعهم باستعمال ألفاظ عربية أمانتها الحياة ونصت المعاجم القديمة نفسها على أنها « ممتنة » وفي إصرارهم على تعطيل المجاز وتجميد الأساليب والدلالات



في لغة حية ، أخص صفاتها المرونة والتجدد والتوسع في استحداث دلالات مجازية لأدنى ملحظ في الدلالة الأصلية .

وهذا ، عندي ، هو سر المأساة التي تفرض العقم والجمود على لغة حية وتبني عليها أن تنمو وتسير الزمن .

ولكني مؤمنة بأن حيوية اللغة ، ستبني هذا العقم والجمود ، واثقة أن حتمية التطور والتجدد ستتولى حتماً ، مهمة تحطيم الأغلال التي يحاول بعضنا — بحسن نية — أن يشلوا بها لغة كالعربية ، زاخرة بالحيوية ووفرة المرونة .

وإذ ذاك لن توجد مشكلة ، لأن القضية كلها ستصبح غير ذات موضوع . ولن نحتاج إلى هيئة ، كالجامعة العربية أو المجمع اللغوي ، نسلم إليها القيادة لتوحد الحناجر وتقضي على اللهجات المحلية ، وتفرض علينا — نحن ملايين العرب — أن نؤدى اللفظ بصورة واحدة ، وأن نعبر بأسلوب موحد !

فوجود اللهجات المحلية أمر طبيعي مقرر ، ليس لأحد عليه سلطان . وهذه اللهجات لا تمنع من الوحدة اللغوية في مجال الثقافة والفكر والأدب ، وأنت الآن تسمع الألمانية في النمسا بلهجة غير التي تسمعها بها في ألمانيا أو سويسرا ، ويمكنك بسهولة أن تفرق بين لهجة أبناء إنجلترا وبين لهجة الأمريكان ، وأن تميز أسلوب البحارة في البندقية ونابلي وجنوا ، على الساحل الإيطالي ، عن أسلوب الجبلين على قمم الألب الإيطالية ، كما تستطيع أن تميز هنا بين لهجة سكان السواحل والثغور المعرضة للمخالطة اللغوية ، وبين لهجة سكان الريف أو البوادي المنعزلة .

وكل اللغات ، في كل العصور ، عرفت وتعرف وستظل تعرف أبداً ، فروقاً واضحة بين لغة الحياة اليومية ، ولغة الفكر والأدب . والعربية لا تشذ عن هذا ، وقد عرفت في قديمها الأصيل حيث كانت هناك لغة عالية — والتعبير بنصه من رسالة الغفران لأبي العلاء — ولغة معتادة لعامة الناس ،

فكيف نتصور إمكان صنع لغة موحدة الأساليب ودلالات الألفاظ وطرق الأداء الصوتي ؟

وأى سلطان يمكن أن يتحكم فى حناجرنا وألستنا ، ويوحد لنا مستوانا فى التفكير وصور التعبير ؟

\* \* \*

إنى لأرجو أن يكون بحث الأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس فى ( مستقبل اللغة العربية المشتركة ) بما تناول من عرض دقيق رصين لهذه القضية ، بدءاً اتجاه سليم فى النظر إليها والتفكير فيها ، ولعلنا به نُعَفَى من جدال عقيم حول مشكلة أثارها جمودٌ يأخذ - ظلماً - صورة المحافظة على قديمنا العريق وتراثنا الغالى ، فيلجم العربية بأغلال تعطل نموها وازدهارها ، ويضيع الجهد عبثاً فى مقاومة حيويتها وقهر مرونتها ، وفى محاولة إيقاف سير الحياة بها وتعطيل سنة النمو والتطور . . .

( ٣ )

## لغة الأدب الشعبي بين العامية والفصحى

لبثت زماناً ، أرى أن الإلحاح فى الحديث عن العامية والفصحى ، قد يسىء إلى العربية من حيث يراد به النفع ، لما فى هذا الإلحاح من ترسيخ للعقدة التى نشكوها من ثنائية اللغة ، وتضخيم لمشكلة تعدد اللهجات المحلية فى الوطن العربى الكبير .

وكنت ولا أزال أومن بأن الزمن سيتكفل بحل هذه المشكلة من حيث ندرى ولا ندرى ، ولو لم يكن لنا من الزمن إلا أن يصل بمعركتنا ضد الأمية إلى غايتها المرجوة ، وإلا أن تتماهى الحدود الزائفة والأسوار المصطنعة بين الأقطار العربية ، لكان لنا من ذلك حلٌ للمشكلة يغنينا عن محاولة حسمها قبل الأوان ، بحلول معتسفة تأبأها طبيعة اللغة والحياة ..

بل لم أكن فى الحقيقة أريد أن أعترف بوجود صراع حقيقى بين العربية الأم ولهجاتها المتعددة ، فما كان تعدد اللهجات سوى ظاهرة طبيعية فى حساب الواقع والحياة . ولعله فى العربية ، أقرب إلى أن يكون شاهداً على اتساع مجالها وقوة مرونتها وحيويتها ، بحيث وسّعها أن تغدو لسان العرب من قلب الشرق الآسيوى إلى أقصى المغرب الأفريقى ، على اختلاف مسالكهم الصوتية وبيئاتهم الإقليمية وميراثهم اللغوى .

لكن تجاهل المشكلة لم يعد مستطاعاً أمام ذلك الصراع العنيف الذى احتدم حول العامية والفصحى فى الأعوام الأخيرة . ولست أقصد بجديتى الآن ، إلى أن أعود فأقف عند هذا الخلاف المثار ، وإنما هى محاولة أريد بها أن أعرض القضية من زاوية خاصة ، تكشف عن تناقض عجيب فى موقف الهيئات

الثقافة الرسمية من العامية والفصحى ، وتؤكد حاجتنا الماسة إلى تخطيط ثقافى تسير به جهودنا فى خطوات متناسقة متكاملة .

ولولا هذا التناقض ، لما تعقدت الأزمة وجاوزت فى تعقدها الحد الذى كان يجب أن تقف عنده . فليس منا من يمارى فى أن أدب الفصحى هو مناط الوحدة اللغوية للعرب ، بما يعنى فى الأدب من وحدة مزاج مشترك ووجدان عام . .

وكان يمكن ألا نمارى كذلك فى أن الأدب الشعبى ضرورة وجدانية لا غنى عنها ، لأن التحدث إلى عامة الشعب بلهجاتها وأسلوبها ، هو مناط التأثير فيها والانفعال بها والتجاوب معها .

ولكن الأمر اضطرب فى نعمة الخلاف وفوضى التناقض ، فاختلطت الأصوات منذرة بالويل والثبور وعظائم الأمور ، وتبدلت التهم فقل إن الترخيصة فى استعمال العامية فى الأدب : خيانة للوحدة العربية وكفر بلغة القرآن الكريم ، وقيل كذلك إن الإصرار على استعمال الفصحى وحدها فى الأدب : عزلة وجدانية عن الشعب ، وتعطيل للتأثير فيه والتجاوب معه والاتصال به .

ومضى الحائرون يلتمسون عند كبار الأدباء مخرجاً ، فإذا الموقف يزداد اضطراباً وتناقضاً :

أستاذنا «الدكتور طه حسين» ، الذى علمناه من أشد أنصار أدب الفصحى : قد أذن فى أن يصاغ حوار ( الأيام ) فى التليفزيون باللغة العامية .

و «الأستاذ محمود تيمور» الذى عرفناه قديماً يؤثر العامية فى قصصه الشعبية . ثم رأيناه فى الحديد من أعماله الأدبية يدير الحوار على السنة العامة بلغة مجمعية معجمية . نقلت عنه إحدى الصحف : « أنه سيكتب مسرحية جديدة مرتين : مرة للناس بالعامية ، ومرة أخرى بالفصحى » .

ونسأل عن موقف الهيئات الرسمية . فليقانا من تناقضها العجب والعجاب :

فالدولة من ناحية ، قد اعترفت بالأدب الشعبي في هذه المرحلة الجديدة من تاريخنا . وبلغ من عنايتها به ، أن استحدثت كرسيًا للأدب الشعبي في جامعة القاهرة ، اعترافاً منها بهذا الأدب وتقديراً لخطره .

وبين لجان المجلس الأعلى للفنون والآداب ، لجنة خاصة للفنون الشعبية ترعاها وتشجعها .

وفي وزارة الثقافة ، إدارة خاصة بالفنون الشعبية ، ومنها الأدب الشعبي ، يرأسها وكيل للوزارة متخصص في هذا الأدب . وقد رصدت الوزارة مبالغ ضخمة في ميزانيتها لتشجيع المسرح الشعبي وحماية التراث الفني للشعب . وأعلنت عن مشروع ضخيم لإخراج " أوبريت شعبية ، اسمها : مهر العروسة " عهدت الوزارة إلى الشاعر عبد الرحمن الحميسى في تأليفها ، وإلى الأستاذ محمد عبد الوهاب في تلحينها . وهي مكتوبة بالعامية المصرية . كما عهدت إلى الشاعر الشعبي « صلاح جاهين » في صياغة أغان شعبية لقصة القاهرة ، في عيدها الألفى . . . . .

. . .

ولكننا - من ناحية أخرى - نرى لجنة النثر بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، تحجب جائزة الدولة التشجيعية للقصة ، عن بعض القصص الممتازة لعامية في حوارها . .

بل سمعنا كذلك أن لجنة الفنون الشعبية في المجلس ، رفضت ملحمة شعبية صاغها الشاعر الشعبي « حامد الأطمس » بالزجل العامي .

وما يدرينا ، لعل اللجنة الموقرة ترى - صوناً لهيئتها - أن تهذب تراثنا الشعبي من المواويل والأغاني والأزجال والأمثال ، فتعيد كتابته بالفصحى على نحو ما يفعل أديبنا المجمعى « الأستاذ محمود تيمور » !

فهل من سبيل إلى علاج هذا التناقض الذى يبدد القوى ويبعث الجهود وتتعثر فيه خطواتنا بين شد وجذب ؟

إحدى اثنتين :

إن كانت العامية مرضاً ورجساً ، فإن أى ترخيص فى استعمالها جريمة فى حق الوطن ، وأى اعتراف بأدبها الشعبى أو عناية بترائثنا منه ، خيانة وثغرة فى بناء النهضة ، ولنا أن نتصور عندئذ فداحة الإثم وشناعة المفارقة ، إذا سمعنا شيوخ الإسلام وزعماء الوطنية ، يتكلمون فى حياتهم اليومية بهذه العامية الملتونة !

أما إذا كانت الدولة قد اعترفت بالعامية فى أدبنا الشعبى الذى تشجعه وترعاه وتستنقذ تراثه من الضياع ، وهى تقدر أن هذه العامية أداة التأثير الوجدانى فى الشعب ، ووسيلة اتصال به ونفوذ إليه ، وطريق الفهم لمزاجه ، فقد وجب أن توضح الهيئات الثقافية المسئولة موقفها من الأدب الشعبى حتى لا يظن ظان أن عامية الحوار وصمة عار فى القصة ، وأن الملحمة الشعبية إذا صيغت زجلاً ، لم تعد أهلاً لرعاية « لجنة الفنون الشعبية » ، فى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب !

وإلى أن ينجلي المرتف ستظل حياتنا مجاهدة بهذا الصراع الذى كان يعصفنا منه تخطيط ينظم جهودنا الثقافية ويسير بها فى خطوات متناسقة متكاملة تسير وعينا وطموحنا . .

# الفهرست

الصفحة

٥	الإهداء
٧	تمهيد
١١	مدخل تاريخي
٢٧	مدخل لغوي

## الباب الأول

### العربية وقانون التطور

٣٩	في بيئتها الأولى في العصر الجاهلي
٥٣	في أقطارها الجديدة مع الفتوح الإسلامية
٨٣	العربية ولهجاتها الإقليمية في الأقطار المتعربة

## الباب الثاني

### لغتنا ومشكلاتها في العصر الحاضر

٩٣	العامية والفصحى
١٢٧	اللغة العربية وعلوم العصر
١٥٩	المغرب العربي والغزو اللغوي
١٦٧	المعركة اللغوية على أرض البطولات
١٨٧	تعليم العربية ورأى في أزمتنا اللغوية

### حوار في قضايا لغوية

٢٠١	هذه اللغة المشتركة ومعالم تطورها
٢٠٥	مستقبل اللغة العربية المشتركة
٢١١	الأدب الشعبي بين العامية والفصحى

١٩٩١ / ٤٨٩٨	رقم الإيداع
ISBN 977-02-3350-1	الترقيم الدولي

١ / ٩٠ / ١١٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.٠)